كتابٌ بكتاب ورأيٌ برأي

التَّصَوُّف

بين الإفراط والتفريط

الدكتور عمر عبد الله كامل

دار ابن حزم

التصوف

بين الإفراط والتفريط

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابٌ بكتابٍ ورأيٌ برأيٍ

التَّصَوُّف

بين الإفراطِ والتَّفريطِ

الدكتور عمر عبد الله كامل

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

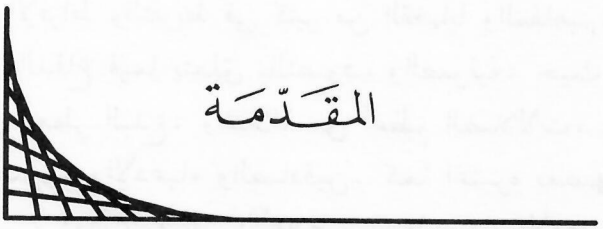

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وهادياً إلى صراطه المستقيم، ورضي الله عن أصحابه الغر الميامين، وعلى العلماء العاملين الربانيين.

وبعد:

فإن من دواعي التوفيق أن يسَّر الله لي الكتابة في هذا الموضوع الشائق الشائك. أما كونه (شائقاً) فلأنه يتحدث عن ركن عظيم من أركان الدين، ومقام من أعظم مقامات المتقين، ألا وهو الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ بقوله: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

هذا الركن المهم الذي غاب عن أذهان كثير من الناس اليوم، واعتبر الحديث فيه والتذكير بمفهومه عند بعضهم من البدع في الدين؟!.

وأما كونه (شائكاً) فلأن هذا الموضوع فيه كثير من المنزلقات الخطرة التي تزل بها الأقدام، وتطيش عندها الأفهام، ولذلك تهيب من الكتابة فيه الكثير من العلماء، خشية من لوم اللائمين وهجوم الهاجمين وطعن الطاعنين.

ومع صعوبة الموضوع ودقته وخطورته فقد توكلت على الله عز وجل، وكتبت هذه الصفحات، متوخياً الحق والصواب، وسائلاً المولى سبحانه وتعالى الأجر والثواب.

وسلكت فيما كتبت المنهج الوسط الذي يؤلف بين القلوب، ويقرب بين المفاهيم والعقول، وهذا المنهج هو الطريق لوحدة الأمة وعودتها إلى رشدها. فقد كثر الإفراط والتفريط في كثير من القضايا والمفاهيم، ولعل في مقدمتها الهجوم والدفاع فيما يتعلق بالتصوف والصوفية، حيث اعتبر عند بعضهم بدعة من أخطر البدع، وضلالة من أعظم الضلالات، دون تفريق بين الحقائق والصور، والأدعياء والصادقين. كما اعتبره بعضهم هو لب الدين، وعين اليقين، دون تنبيه إلى الأغلاط، وتحذير من الأدعياء.

وقد وجدت أعلام الإسلام يزنون الأمور بميزان العدل والإنصاف، فيحمدون في مواضع يُحمد فيها أعلام التصوف وكبار أئمته، ويحذرون أشد التحذير من الشطحات والدعاوى.

وفي مقدمة هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الذي استفدت من كتبه ونقلت منها في كتابي هذا الشيء الكثير، كما استفدت من كثير من أئمة السلف السابقين، ومن المعاصرين المنصفين، وكان عملي بمثابة الذي يجمع الزهور ويقدمها طاقة فواحة الشذى لكل راغب.

وجعلت هذا الكتاب في ثلاثة عشر فصلاً، مترابطة متناسقة، يكمل بعضها بعضاً حتى أصبحت كمثل القصر الجميل المتناسق الذي يسر الناظرين.

وأرجو أن يحقق كتابي هذا ما أصبو إليه من دعوة للحوار الهادف البنّاء، ودعوة لتقريب وجهات النظر المختلفة، وتأليف القلوب المتنافرة.

ولا أدعي العصمة لنفسي فيما كتبت، وأرجو من كل قارىء منصف أن يتكرم بكتابة ملاحظاته، بروح الإنصاف والعدل، وقصد النصيحة لا التشهير والتعيير، كما هو شأن أكثر الردود اليوم، وأنا على استعداد لقبول النصيحة والاستفادة منها إذا كانت ملتزمة بأدب النقد والخلاف، أما إذا كانت بدافع الانتصار لأفكار مسبقة، وأهواء نفسية، وعصبيات فكرية، وانتماءات حزبية، فإنني لا ألتفت لمثل هذه الردود، ممتثلاً قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾.

وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لمقام الإحسان، وأن يزكي نفوسنا، ويطهر قلوبنا، ويحققنا بصدق المتابعة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والله الموفق، ، ،

د. عمر عبد الله كامل

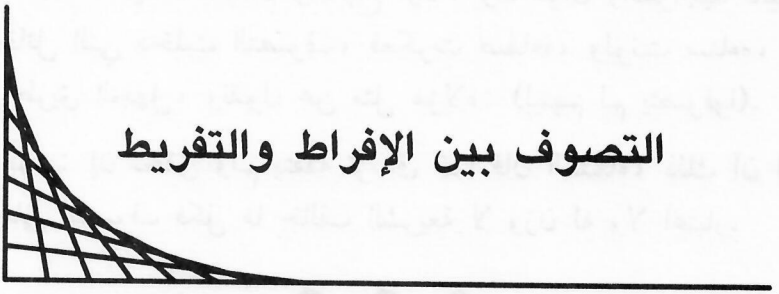

التصوف بين الإفراط والتفريط

تمهيد:

«إن من أكبر المسائل التي قام حولها جدل فكري كبير، مسألة التصوف، وأصوله ومؤيداته الشرعية، وطرقه وأهدافه. ولم يتوقف هذا الجدل عند عصر معين، بل استمر عبر عصور الفكر الإسلامي، فكان في كل عصر، بين مؤيد ومنكر، ومناصر ومعارض، ومتعصب ومتحامل.

والعجيب أنك تجد بين الفريقين مخلصين للحق ومتجردين له، ومع ذلك لم يوصلهم إخلاصهم إلى نقطة واحدة يجتمعون عليها، بل على النقيض، كلما أوغل كل منهما في محبته ازداد بعداً وتناقضاً، فكيف حصل هذا؟ ومريد الحق لا بد أن يصل إليه!!!.

قال الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر جواباً عن هذا التساؤل في تقديمه لكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر الكلاباذي: (إن أمر التصوف في الواقع ليس أمر جدل أو أخذ أو رد، وإنما هو تعرف، والتصوف تجربة، والتجربة شعور، والشعور ليس منطقاً ولا برهاناً، إنما هو تعرف، وقديماً قالوا: من ذاق عرف، وبالتالي فإن من لم يذق لم يعرف.

وكتاب المؤلف إذن ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور المتدفق الفياض، وهذا التعبير لا يفهمه حق فهمه إلا من شعر به..) باختصار.

على أن الأشواق والأحوال والمواجيد يجب أن تكون مقيدة بقيود العلم الصادقة الدقيقة، فالعلم والاتباع أولاً، والأحوال والمواجيد ثانياً، وإن كل الدخائل التي دخلت التصوف، فعكرت صفاءه، ولونت سناءه، دخلت إليه عن طريق الجهل، ونقول عن مثل هؤلاء: (ليتهم لم يتصوفوا).

وأقول: إن تحقق ولم يتفقه تزندق كما قال العلماء، ذلك أن الشريعة حاكمة على التصوف فكل ما خالف الشريعة لا وزن له ولا اعتبار.

● ● ●

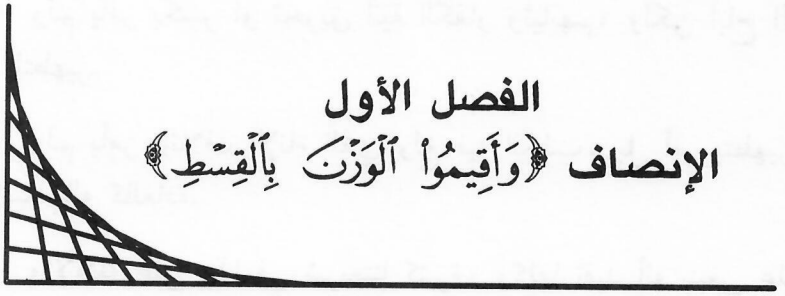

الفصل الأول
الإنصاف ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾

«إنه ليس من الإنصاف أن نغمط الناس أشياءهم، وغالباً ما ينبع ذلك عن فساد في الاعتقاد والظن، فمن ظنّ بالناس العصمة لا بد أن يكون قاسياً في حسابهم ومؤاخذاتهم، فإذا ما أخطأ أحدهم أخذناه بخطئه، ورفضنا خيره وصوابه كما رفضنا شره ومعصيته، وحكمنا عليه وعلى أمثاله وعلى من انتسب إليه أو رضيه أو أثنى عليه، أو جلس إليه بالرفض جملة وتفصيلاً، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩].

إن دخول كثير من الدخائل والمفاهيم السيئة إلى بعض الأفكار السلفية لا يجيز لنا أن نعمم الحكم على الجميع، ونرفض السلفية اسماً ومضموناً، فكثير من المنتسبين إلى السلف وقعوا في هوة التشبيه والتجسيم، وكثير من المعاصرين منهم من أنكر المعجزات، وتلاعب بالآيات القطعيات، كنفي مدلول الآية القطعي في الطير الأبابيل والحجارة والرمي، والوقوع في هوة التكفير.. فوجود بعض الأخطاء لا يبرر عدم قبول الصواب.

أمثلة على الإنصاف وعدم الإجحاف:

حقا إن التعميم ذميم، وإن ربنا سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، ولا أعلم أحداً من فقهاء الإسلام حرم ذبيحة الجزار العاصي - إذا كانت شرعية - بسبب معصيته، بل إن اليد التي يذبح بها تحل الذبيحة ولو كانت عاصية بخاتم الذهب.

ولم يأمر رسول الله ﷺ بإراقة الماء الذي وقعت فيه ذبابة، ولكن أمر بطرح الذبابة، ويبقى الماء صالحاً للشرب.

ولم يأمر بكسر أو تحريق آنية الكفار وثيابهم، ولكن أباح الانتفاع بها بعد التطهير.

ولم يأمر بإتلاف الإناء الذي ولغ فيه الكلب، بل أمر بتطهيره بالتراب ثم استعماله كالعادة.

والأمثلة على هذا في شريعتنا كثيرة، وكلها تفيد أنه ينبغي على المسلم أن يدفع ما يضر، ويبقي على ما ينفع، فيدفع من الضرر بمقداره لا أزيد، ويبقي على النافع ما أمكن، ولا يكون كالدب الذي ذب عن رأس صاحبه الذبابة بصخرة فقتل صاحبه وطارت الذبابة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩].

نعم إن الأمثلة في شريعة الإسلام على الإنصاف وعدم الإجحاف كثيرة، وكثيرة جداً.

التوبة تتجزأ والمعصية تتجزأ:

من المقرر عند علماء الأمة أن التوبة في الإسلام تتجزأ في الذات الواحدة كما أن المعصية تتجزأ، فكيف نأخذ أناساً بجرائر آخرين؟!.

وقد قرر العلماء أن المسلم المقيم على معصيتين أو أكثر إذا تاب عن واحدة منها بشروط التوبة، تقبل توبته، وأن الله عز وجل لا يحاسب مانع الزكاة على ترك الصلاة إذا كان مصليا، ولا يعاقب شارب الخمر على فطر رمضان إذا كان يصومه، كما لا يحاسب السارق على الزنى إذا كان لا يزني، وهكذا فالمعصية أيضاً تتجزأ.

وقد يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب، وحسنات وسيئات، فيثاب على هذه ويعاقب على تلك، كما روى البخاري في صحيحه: (أن رجلاً كان يسمى حماراً، وكان يضحك النبي ﷺ وكان يشرب الخمر،

ويجلده النبي ﷺ، فأتي به مرة، فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله».

فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله، وحب الله ورسوله ﷺ أوثق عرى الإيمان[1].

خطأ التعميم:

فكيف بمن يحكم على من لا يحصى من الخلائق من علماء وعباد وزهاد وعارفين ومربين ودعاة ومرشدين بسبب فساد بعض من ينتسب إليهم، يحكم على الكل بالفساد، ونعوذ بالله من ذلك الحكم، ما أظلمه، وما أبعد صاحبه من الإنصاف ومن فهم الإسلام، ومن حقيقة الدين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ٥].

إن طوائف الحلولية، والاتحادية، والباطنية، والإباحية، والذين أسقطوا التكاليف، والذين قالوا بمخالفة الحقيقة للشريعة والباطن للظاهر، والذين قالوا بعصمة الولي وتقديمه على النبي، والذين قالوا بفناء النار، ومساواة المسلمين في نهاية الأمر بالكفار، وما إلى ذلك من الأقوال والعقائد والفرق والجماعات التي تناقض كلمة التوحيد، وتمرق من الدين بمخالفة نصوصه المحكمة في دلالتها، والقطعية في ثبوتها، لا يقبلها قلب مسلم، ولا تركن إليها إلا نفس ظالمة مثلها لتمسها النار.

إن المسلم إنما اعتنق الإسلام لتوحيد الله عز وجل، واتباع نبيه ﷺ، فلا ينبغي له أن يخرج منه من أخبث أبواب الكفر والزندقة وأقبحها عند الله عز وجل.

وما جواب المسلم لهؤلاء إلا كجواب أولئك القوم من الصحابة الذين أمروا من رسول الله ﷺ أن يطيعوا أميرهم، فأمرهم أن يلقوا أنفسهم في النار، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار؟ فكيف نلقي أنفسنا

---

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية ج١٠ ـ ص ٨، ١٦.

فيها، وقال رسول الله ﷺ: **«لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»**[1].

الطوائف المدسوسة في التصوف:

نعم إن تلك الطوائف التي اندست بين القوم، أو دست من أقوالها المشبوهة في كتبهم ومقولاتهم وأشعارهم حتى شوشت وشوهت على الخلص منهم، لا ينبغي أن تحول بيننا وبين إنصاف القوم، وتحرير أقوالهم حتى نعرف سقيمها من صحيحها، ونفيد منها، ونعرف معروفها وننكر منكرها، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وقد انتسبت إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم. اهـ)[2].

إن أكثر نقاد التصوف، إنما عرفوا الصوفية من خلال الزبد الطافي على السطح، وغاب عنهم البحث في الأعماق، والتعرف على ما ينفع الناس، وما ذلك إلا بسبب تعصب الكثير منهم، وضيق أفقهم، وسطحية نظرتهم، وغاب عنهم أن «في كل ميدان من الميادين أدعياء، نجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمي، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف» كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود في تحقيقه لكتاب «المنقذ من الضلال» للغزالي[3].

«وليس من الإنصاف أن تحمل على التصوف أوزار الأدعياء واللصقاء، الذين يندسون في صفوفه نفاقاً واحتيالاً، أو جهلاً وفضولاً، فإنه ما من نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون إليها من غير أهلها..» كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية».

---

(١) سيرة ابن كثير ج٣ - ص ٤٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى (ج١١ - ص١٨).

(٣) ص ٢٦٧.

تجريد الحق عن قائله:

لقد علمنا الإسلام نظرية تجريد الحق عن قائله، والخير عن فاعله، فالحق والمعروف والخير، حق وخير ومعروف بصرف النظر عن صاحبه، والمنكر منكر كذلك.

فهذا حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه يرثي مطعم بن عدي بعد وفاته، وقد مات على الكفر، بقصيدة يشكر له فيها معروفه إذ أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة يوم منعته قريش عند عودته من الطائف، وكان فيما قال:

أجرت رسول الله فيهم فأصبحوا عبادك ما لبى محل وأحرما
وما تطلع الشمس المنيرة فوقهم على مثله فيهم أعز وأكرما

وقال النبي ﷺ يوم بدر: **(لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له)** يريد: لقبل شفاعته في أسرى بدر جميعهم، وذلك جزاء معروفه - وهو على الكفر - !!!.

وأثنى رسول الله ﷺ على أخلاق أهل الجاهلية، وهم أهل جاهلية وأوثان فقال: **(يا علي أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا)**.

ومع ذمه ﷺ للشعر أثنى على نصف بيت من الشعر ما لم يثن على كلام أحد من الناس فقال: **(أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد)**. وفي رواية: أصدق بيت قاله شاعر، وفي رواية: **(أصدق كلمة قالها شاعر)**، وفي رواية: **(أصدق بيت قالته الشعراء)**:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وما ذلك إلا لموافقة كلمته للحق، والواقع.

وأثنى على شعر أمية بن أبي الصلت مع كفره، فقال صلى الله عليه وسلم: **(آمن شعر أمية بن أبي الصلت وكفر قلبه)** فلم يمنعه الكفر من إبداء

إعجابه بالشعر، للإيمان والتوحيد الذي كان يفيض به شعره، وفي صحيح مسلم: **(كاد ابن أبي الصلت أن يسلم)**.

وأخيرا: هل فيما سقناه مقنع للمجحف أن ينصف ويتبع سبيل المنصفين؟!.

عدم الاعتراف بالحق من أوصاف أهل الكتاب:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؟! [البقرة: ٤٤].

اذا كنا نطالب الناس بالاتباع ولا نتبع فمن نحن إذن؟، ولقد علمنا أنه لا حياد مع النصوص والمنقول عن السلف، فإما اتباع وإما ابتداع.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ومن أخلاق الذين كفروا ألا يعترفوا بحق أو خير عند عدوهم لمجرد أنه عدو لهم، ولو كان عدوهم على شيء من الحق يعلمونه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فحري بالمؤمن أن يتخلق بخلق القرآن لا بخلق الكفار، ولقد أنصف القرآن الكريم حتى الخمر حيث قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فذكر منافع الخمر مع أنها «أم الخبائث» ثم رجح التحريم فقال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

ألا ما أبعد الذين يناصبون العداء هذا الاسم وأهله، عن خلق القرآن حين يضربون صفحاً عن الحقائق والعلوم التي يختص بها القوم وهي من الإسلام لبابه، وواسطة قلادته، وزبدة محضه. وما ذلك إلا لما غفلوا عن جوانب من شريعة الإسلام وتكاليفه، أو لم يدركوا حقيقة علومهم فظنوها

ضرباً من الكناية أو الاستعارة أو المجاز أو غيرها من علم البديع والبيان والمعاني، وكلا الجهلين مغر بالعداوة كما قال تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ..﴾ [المائدة: ١٤].

مقام الإحسان:

إن الذين يضربون بثلث الإسلام عرض الحائط هم أشد الناس عداء لمن يعتني بهذا الثلث وهو «الإحسان» وهو: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». وهو أحد ثلاثة هي أركان الدين كما في حديث جبريل عليه السلام: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**».

طريق الوصول الى حقيقة الإحسان:

إن المسلم ليتساءل كيف الوصول إلى حقيقة الإحسان؟ ومَنْ مِن علماء المسلمين علم هذه الحقيقة واعتنى بها علماً وتعليماً وطريقاً وحالاً وذوقاً؟! أو تكلم بها وأشار إليها ودندن حولها، وأفنى العمر مجتهداً في الوصول إليها؟!.

علم الأخلاق وتزكية النفوس:

واذا ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة فمن هم الذين اعتنوا بعلم الأخلاق وتزكية النفس ومحاسبتها، وألفوا فيه المؤلفات وحفظوا لنا من هذا العلم ونظرياته ومبادئه ما لم يسبقهم إليه أحد، ثم لم يكن علمهم تجريدياً، ولكنهم تحلوا بأحسن الأخلاق، وأكمل الصفات، وربوا على ذلك أمماً وأجيالاً، وأحدثوا في كل ميدان حلوا فيه ثورة اجتماعية على الأخلاق الفاسدة، وانقلاباً أخلاقياً تحلت به مجتمعات عديدة وأمم وشعوب مختلفة.

التفريق بين المتدين وأخلاقه:

لقد فرَّق النبي صلى الله عليه وسلم بين المتدين وأخلاقه فقال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**» [رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم]. فليس

كل متدين حسن الأخلاق ـ لا والله ـ ولا كل ذي خلق ذا دين.

علم الإخلاص:

وإذا كان الشرك منه ظاهر وخفي، فمن من علماء الأمة دقق ومحص فيما هو أخفى من دبيب النمل؟ في إفساد «الإخلاص»، والانحراف بقلب المؤمن عن مقصده وغايته وهي «إرادة وجه الله عز وجل»، ومن هم العلماء الذين صنفوا في علم «الإخلاص» وصفات المخلَصين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؟ [الكهف: ٢٨].

علم الخشوع:

وإذا كان المؤمن لا يفلح إلا في الصلاة الخاشعة، فمن هم القوم الذين يعتنون بعلم «الخشوع» وكيفية التحقق به، ويحاسبون أنفسهم على الخواطر الشاغلة عن الله عز وجل كما يحاسب الفقهاء على ترك ركن من أركان الصلاة؟ ويبذلون الغالي والرخيص لإقامة ركعة خاشعة لا يحضرون فيها إلا مع الله عز وجل؟

الإكثار من ذكر الله عز وجل:

ثم من هي الطائفة من أمة الإسلام التي اشتهرت بإدامة ذكر الله عز وجل، وعرفت بهذه العبادة الخفيفة على اللسان، الثقيلة في الميزان، الحبيبة إلى الرحمن، والمطلقة عن الزمان والمكان وأحوال الإنسان، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ «كان يذكر الله عز وجل على كل أحيانه»؟.

وما أكثر الحث على الذكر في القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وما أعظم فضله وأجره وخصائصه!

إننا لو ألغينا هذه العلوم وغيرها مما اختص به هؤلاء القوم، وأقوالهم، وما صنفوه فيها، لو ألغيناها من قاموس الإسلام، ورفعناها من المكتبة الإسلامية، لمجرد نسبتها إليهم، فأين البديل عنها في مصنفات الإسلام وتراثه؟!.

ولو ألغينا هؤلاء القوم من حياة المسلمين وتاريخهم وحركاتهم الإصلاحية، ودعواتهم الربانية فبمن نقتدي؟ ومن نتبع في تطبيق ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسنة التي قامت في أشخاصهم وطبقوها في حياتهم فكانوا نصوصاً حية تمشي على الأرض. ترى هل من أحد يهدينا إلى الخلف والبديل؟؟!

وما أصدق قول الشاعر في الذين عذلوا هؤلاء القوم وأسرفوا في عذلهم وملامهم حين قال:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

إن تعطيل ما لا يحصى من نصوص الكتاب والسنة علماً وعملاً بعيد جداً من الاتباع، وإذا كان من المسلمات ألا نقبل إلا ما وافق المنصوص، فإنه ليس من المنصوص أن تعطل النصوص.

قال ابن تيمية: (من جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من النساك والعباد أفضل من طريق الصحابة فهو مخطىء ضال مبتدع، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً، فهو مخطىء ضال مبتدع ا.هـ)[1]

(١) مجموع الفتاوى ١١: ١٥ وهذا المبحث القيم مستفاد من المقدمة الفريدة التي كتبها الأستاذ محمد بشير شقفة لكتاب «عبدالقادر الجيلاني» للدكتور عبدالرزاق الكيلاني.

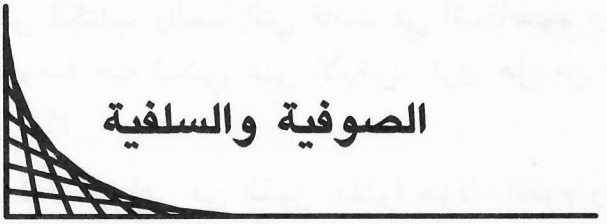

الصوفية والسلفية

الصوفية الحقة لا تخالف السلفية المخلصة، التي تريد تنقية الإسلام من كل البدع والشوائب، التي لحقت به عبر العصور التي مر بها.

فالصوفي يهدف إلى تنقية نفسه وقلبه من كل شوائب الأغيار، حتى تصبح خالصة لله سبحانه وتعالى، والسلفي المخلص يهدف إلى تنقية الإسلام من البدع والدخائل، فلا تناقض بينهما ولا تعارض، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص، ومريد الحق لا بد أن يصل إليه.

فالتصوف الصحيح هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين، استقام سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجه.

هذا هو التصوف الذي كان عليه القوم رضي الله تعالى عنهم. فقد سئل ولي الله شاه نقشبندي: بماذا يصل العبد إلى طريقكم؟ قال: بمتابعة سنة رسول الله ﷺ.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: إن طريقتنا من النوادر، وهي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية، واقتفاء آثار الصحابة الكرام.. ا.هـ.

ومن وصايا الشيخ خالد رحمه الله تعالى إلى بعض مُريديه في العراق.

أما بعد: فأوصيكم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية، والإعراض عن الرسوم الجاهلية، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية. واعلموا أن أحبكم إلي أقلكم اتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا، وأخفكم مؤونة، وأشغلكم بالفقه والحديث.. ا.هـ.

ولنستمع إلى الإمام الرباني، مجدد الألف الثاني، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي، رحمه الله تعالى، وهو يحذر من البدع ويأمر بتركها، فيقول: قال عليه الصلاة والسلام: **(ما أحدث قوم بدعة، إلا رفع مثلها من السنة)** رواه الإمام أحمد في مسنده.

وعن حسان رضي الله عنه، قال: **(ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إلى يوم القيامة)**، بناء عليه، فبعض البدع التي قال العلماء إنها حسنة، إذا تأملتها تجدها رافعة لسنة، مثلاً، قالوا في تكفين الميت: العمامة بدعة حسنة، مع أن هذه البدعة رافعة لسنة، فإن الزيادة على عدد المسنون الذي هو ثلاثة أثواب نسخ، والنسخ عين الرفع، وهكذا.

فهل يريد السلفيون المخلصون أكثر من هذا؟[1]

الكتاب والسنة أولاً وقبل كل شيء:

والجنيد رحمه الله تعالى، سيد القوم وإمامهم - كما وصفه القشيري - قال في هذا الموضوع: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة..» ا.هـ.

وقال أيضاً: «علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ، الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول؟ واتبع سنته ولزم طريقته..» ا.هـ.

---

(١) من كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» للأستاذ عبدالحميد طهماز.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: «مذهبنا هذا مقيد بالأصول: بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقه، لا يقتدى به، انتهى»[1].

وقال الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه: «كشف الغمه» ١: ١٠: «كل طريق لم يمش فيه الشارع ﷺ فهو ظلام، ولا يكون أحد ممن مشى فيه على يقين من السلامة وعدم العطب». وقال رحمه الله تعالى: «دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فلأنه يخطىء، وينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه! وقالوا: إنه حجاب! جهلاً منهم!»[2].

وقال الإمام الغزالي: «قال الجنيد رحمه الله قال لي السري شيخي يوما: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي، قال: نعم، خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين. ثم لما وليت سمعته يقول: «جعلك الله صاحب حديثٍ صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث».

قال الغزالي: «أشار إلى أن من حصل الحديث - أي العلم - ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»[3].

● ● ●

(١) «إغاثة اللهفان» للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ١: ١٢٥.

(٢) نقله ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» في ترجمة الشعراني ٨: ٣٧٤.

(٣) «الإحياء» ١: ٣٧-٣٨.

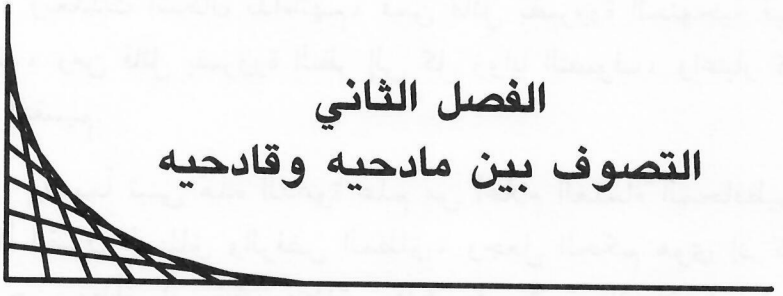

الفصل الثاني
التصوف بين مادحيه وقادحيه

التصوف بين المادحين والقادحين:

«ظلم التصوف الإسلامي في كثير من قراءات الناس له، ربما بسبب المصطلح، وربما بسبب انحراف بعض المنتسبين له مما أشاع عنه، أنه وافد ليست الحياة الإسلامية بحاجة إليه، فضلاً عن أنه مبتدع، تسبب في إبعاد ذويه عن الإسهام الحضاري وعن الارتباط بالأصول الشرعية، وهذه الأسباب وغيرها ـ بصرف النظر عن صحتها أو صحة بعضها أو عدم صحته ـ تقرر حقيقة أن هذا الجزء من تراث المسلمين أصابه قسط كبير من الظلم، لا نغالي إذا قلنا لم يصب بمثله جزء آخر من تراث حضارتنا.

وقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي اتجاهات لنقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح المسار، وبعضها من خارجه.

ذهب أهل هذا الأخير مذاهب، **أحدها**: مَدَح حتى قَبِل الأخطاء، وسوغها بالتأويل، **وثانيها**: غض طرفه عن كل حسن في هذا التراث، فلم ير فيه إلا كل خلل وفساد، وانطلق من حالات فردية إلى حكم عام وموقف شامل، **وثالثها**: توسط لكنه لم يكن على شهرة السابقين.

وقد عانى الفكر الصوفي من المذهبين الأولين (المادح والقادح)، وحجبا جزءاً من الحقيقة عن الناس، الأمر الذي جعل كثيراً من العلماء

والباحثين قديماً وحديثاً ينادون بضرورة التزام منهج وسط بين الرفض المطلق والقبول المطلق.

وتعددت أشكال نداءاتهم، فمن قائل بضرورة المنهجية قبل الحكم والنقد، ومن قائل بضرورة النظر إلى كل زوايا التصوف، واعتبار كل مراحله عند التقسيم.

وقديماً تبنى هذه الدعوة علم من أعلام العلماء المحافظين، فنادى بخطأ القبول المطلق والرفض المطلق، وجعل الحكم هوى إن كان صادراً عن حب مطلق أو بغض مطلق. ذلكم هو شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سار في هذا الأمر على درب سابقين له من العلماء الحنابلة.

وإذا كان هناك اتفاق بين دعوة المعاصرين ودعوة ابن تيمية ومن سبقه، فإن هناك فارقاً أساسياً هو أن المعاصرين لم يقدموا تصوراً كاملاً للمنهج الذي ينبغي أن تكون عليه قراءة التصوف، بل أشاروا إلى بعض النقاط بإيجاز وإجمال، أما ابن تيمية فقد قدم تصوراً أكثر تفصيلاً عن المنهج في نقد التصوف، بل وطبقه في النظر إلى مراحل التصوف، وإلى المصطلح، وإلى رجال التصوف ونحو هذا.

إن هذا التصور عند ابن تيمية مبثوث في شتى كتاباته عن التصوف، وعن السلوك، بل وعن العقيدة أيضاً الأمر الذي لم يجعله شهيراً من الدارسين، وبخاصة أنه أشيع عن عداء شيخ الإسلام للتصوف الكثير وهو مخالف للواقع، كما سيأتي بيانه».

ومن أصحاب الاتجاه السليم والنظرة الموضوعية إلى التصوف فضيلة الدكتور ـ يوسف القرضاوي، فيقول في كتابه «فتاوى معاصرة» ١ : ٧٣٥-٧٤٣ تحت عنوان: **حقيقة الصوفية**.

جاء الإسلام بالتوازن في الحياة، يعطي كل ناحية حقها، ولكن الصوفية ظهروا في وقت غلب على المسلمين فيه الجانب المادي والجانب العقلي.

الجانب المادي، نتج عن الترف الذي أغرق بعض الطبقات، بعد اتساع الفتوحات، وكثرة الأموال، وازدهار الحياة الاقتصادية، مما أورثت غلواً في الجانب المادي. مصحوباً بغلو آخر في الجانب العقلي، أصبح الإيمان عبارة عن «فلسفة» و «علم كلام» و«جدل»، لا يشبع للإنسان نهماً روحياً، حتى الفقه أصبح إنما يعنى بظاهر الدين لا بباطنه، وبأعمال الجوارح، لا بأعمال القلوب وبمادة العبادات لا بروحها.

ومن هنا ظهر هؤلاء، الصوفية ليسدوا ذلك الفراغ، الذى لم يستطع أن يشغله المتكلمون ولا أن يملأه الفقهاء، وصار لدى كثير من الناس جوع روحي، فلم يشبع هذا الجوع إلا الصوفية الذين عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر، وبعلاج أمراض النفوس، وإعطاء الأولية لأعمال القلوب، وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية والأخلاقية، وصرفوا إليها جل تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم. حتى قال بعضهم:

التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف.

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة، وقافين عند حدود الشرع، مطاردين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك.

ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة، وخلفوا وراءهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر، أو متعصب عليهم.

غير أن كثيراً منهم غلوا في بعض الجوانب، وانحرفوا عن الطريق السوي، وعرفت عن بعضهم أفكار غير إسلامية، كقولهم بالحقيقة والشريعة، فمن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم.

وكان لهم كلام في الأذواق والمواجيد تعتبر مصدراً من مصادر الحكم.. أي أن الإنسان يرجع في الحكم إلى ذوقه ووجدانه وقلبه..

وكان بعضهم يعيب على المحدثين، لأنهم يقولون: حدثنا فلان قال وحدثنا فلان... ويقول الصوفي: حدثني قلبي عن ربي..

أو يقول: إنكم تأخذون علمكم ميتاً عن ميت، ونحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت.. أي أنه متصل - بزعمه - بالسماء مباشرة.

فهذا النوع من الغلو، ومثله الغلو في الناحية التربوية غلواً يضعف شخصية المريد كقولهم: إن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله، ومن قال لشيخه: لم؟ لا يفلح. ومن اعترض انطرد.

هذه الاتجاهات قتلت نفسيات كثير من أبناء المسلمين، فسرت فيهم روح جبرية سلبية كاعتقادهم القائل: أقام العباد فيما أراد... دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق..

يعني بذلك أن يكون موقفه سلبياً أمام الانحراف والفساد وأمام الظلم والاستبداد، وهذا أيضاً من الغلو والانحرافات التي ظهرت عند الصوفية.

ولكن كثيراً من أهل السنة والسلف قوَّم علوم الصوفية، بالكتاب، والسنة، كما نبه على ذلك المحققون منهم، ووجدنا رجلا كابن القيم يزن علوم القوم بهذا الميزان الذي لا يختل ولا يجور، ميزان الكتاب والسنة. فكتب عن التصوف كتاباً قيماً، هو كتاب (مدارج السالكين إلى منازل السائرين) ومدارج السالكين عبارة عن شرح لرسالة صوفية صغيرة اسمها: «منازل السائرين إلى مقامات: إياك نعبد وإياك نستعين» لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي الحنبلي.

هذا الكتاب من ثلاث مجلدات، يرجع فيه إلى الكتاب والسنة، ونستطيع أن نقرأه ونستفيد منه باطمئنان كبير..

والحقيقة أن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك، والحكم هو النص المعصوم من كتاب الله ومن سنة رسوله.

فنستطيع أن نأخذ من الصوفية الجوانب المشرقة، كجانب الطاعة للّه، وجانب محبة الناس بعضهم لبعض، ومعرفة عيوب النفس، ومداخل

الشيطان، وعلاجها، واهتمامهم بما يرقق القلوب، ويذكر بالآخرة.

«نستطيع أن نعرف عن هذا الكثير عن طريق بعض الصوفية كالإمام الغزالي مع الحذر من شطحاتهم، وانحرافاتهم وغلوائهم، ووزن ذلك بالكتاب والسنة، وهذا لا يقدر عليه إلا أهل العلم وأهل المعرفة»[1].

وقال أيضاً تحت عنوان:

التصوف بين مادحيه وقادحيه

«كان المسلمون في عصر الصحابة ومن تتلمذ على أيديهم يتعلمون ويعلمون الإسلام كله، في شموله وتوازنه وإيجابيته وعمقه، ولم يكونوا يبرزون جانباً على حساب جانب آخر، ولم يغفلوا ظاهراً لباطن، ولا باطناً لظاهر، بل اهتموا بالعقل والروح والجسم جميعاً، وعنوا بالفرد والمجتمع معاً، ورعوا مصالح الدنيا والآخرة، وكما يقول الفقهاء: مصالح العباد في المعاش والمعاد. فلما تعقدت الحياة وتطورت ـ لعوامل كثيرة داخلية وخارجية ـ وجد في المجتمع الإسلامي من قصر همه على الجانب العقلي وبجوار هؤلاء وأولئك من شغله متاع الحياة الأدنى، وأغرقه ترف المعيشة المادي، كالأمراء والأغنياء ومن سار في ركابهم من طلاب الدنيا. في هذا الوقت ظهر المتصوفة ليعنوا بجانب هام أيضاً هو الجانب الروحي والنفسي في الحياة الإسلامية، ويملأوا الفراغ الذي لم يسده أهل الفقه ولا أهل الكلام، وليستنقذوا الناس من الاستغراق في متاع الدنيا وزخرفها.

كان علماء السلف يأخذون دين الله كله ـ كما قلنا ـ بمراتبه كلها من الإسلام والإيمان والإحسان التي جاءت في حديث جبريل المشهور. ثم صار أهل الفقه أخص بمعرفة الإسلام وأحكامه الظاهرة، وأهل الكلام أخص بالإيمان وما حوله من بحوث.. وجاء أهل التصوف ليقولوا: نحن أخص بمرتبة الإحسان.

---

(١) فتاوى معاصرة ١: ٧٣٥ ـ ٧٣٨.

كان التصوف في أوامره ينزع إلى تحقيق غاية عملية هي النجاة بالنفس من سخط الله وعذاب الآخرة، عن طريق الزهد والتقشف ومجاهدة النفس، وأخذها بأدب الشرع وتقوى الله. ثم ظهر من العلماء والمربين من جسد جانب الخوف والتخويف من الله كالحسن البصري، ثم برز إلى جانب الخوف والخشية ـ عنصر جديد هو الحب الإلهي، ظهر ذلك في شعر رابعة العدوية (ت ١٨٥) وفي أقوال أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)، وذي النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) وأبي يزيد البسطامي وغيرهم، ممن صرحوا بأنهم لا يطيعون الله ويؤدون الواجبات خوفاً من عذاب النار ولا رغبة في نعيم الجنة، ولكن حباً لله، وطلباً لقربه.

ثم تحول التصوف بعد ذلك من طريقة للتربية الخلقية والروحية إلى فلسفة تشتمل على مفاهيم غريبة عن الإسلام، وانحرافات عن تعاليمه الأصيلة، لعل أخطرها هو القول بالحلول ووحدة الوجود.

تعقيب على الاتجاه الصوفي:

ولا شك أن الناس قد اختلفوا في الصوفية بين متعصب لهم يبرز محاسنهم ويتبنى وجهة نظرهم في كل شيء ويحامي عنهم ولو خطأ، بل هو لا يتصور الحكم عليهم بالخطأ أبداً. ومتعصب عليهم يذمهم جميعاً، ويذم ما انفردوا به ولو كان حقاً في نفسه، ويعلن أن التصوف مذهب دخيل على الإسلام، مأخوذ من المسيحية والبوذية والبرهمية وغيرها.

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نقول: إن التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد، وفيه عناصر إسلامية أساسية لا تخفى. نرى ذلك في القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم وأصحابه الزاهدين مثل عمر وعلي وأبي الدرداء، وسلمان وأبي ذر وغيرهم.

ومن يقرأ القرآن والحديث يجد فيهما تحذيراً متكرراً من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها، وتوجيه الهمم إلى الله وإلى الدار الآخرة، وتحريك القلوب بالتشويق إلى الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم،

والتخويف من النار وما فيها من عذاب مادي ومعنوي، كما يجد الحديث عن حب الله تعالى لعباده وحبهم له سبحانه في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ إلخ.

كما جاء في القرآن والأحاديث نصوص غزيرة في الزهد والتوكل والتوبة والشكر والصبر واليقين والتقوى والمراقبة وغيرها من مقامات الدين، ولم يعطها العناية اللائقة بها - من التفسير والتعليل، والتقسيم والتفصيل - غير الصوفية. ولهذا كانوا أعلم طوائف الأمة بعيوب النفس، وأمراض القلوب ومداخل الشيطان، وأكثرهم عناية بأحوال السلوك وتربية السالكين، وكم تاب على أيديهم من عاص وكم أسلم من كافر.

ولكن التصوف لم يقف عند الدور الأول الذي كان يراد به الأخلاق الدينية ومعاني العبادة الخالصة لله، ولكنه انتقل من وصفه علم الأخلاق الإسلامي إلى نظرية في المعرفة تسعى إلى الكشف والفيض الإلهي عن طريق تصفية النفس.. ثم كان من الانحرافات ما كان.

ومن مظاهر الانحراف عند الصوفية هذه الأفكار:

١- اعتبار الذوق أو الوجدان الشخصى أو الإلهام - مقياساً في معرفة الحسن والقبيح وتمييز الصواب من الخطأ، حتى غلا بعضهم في ذلك فقال: «حدثني قلبي عن ربي» في مقابلة ما يقوله علماء السنة: حدثنا فلان عن فلان... عن رسول الله ﷺ.

٢- تفرقتهم بين الشريعة والحقيقة، وقولهم: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم، فهذا يترتب عليه ألا يحارب كافر ولا ينكر على منكر.

٣- تحقيرهم لأمر هذه الحياة، على خلاف نهج القرآن: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ والسنة: «**اللهم أصلح لي ديني**

الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي».

٤- غلبة النزعة الجبرية والسلبية على أكثرهم في العصور المتأخرة، مما أثر في تفكير عامة المسلمين وجعلهم يعتقدون أن الإنسان مسير لا مخير، وأن لا فائدة من مقاومة الفساد ومحاربة الباطل، لأن الله أقام العباد فيما أراد، وشاع بينهم هذا القول: «دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق». وهذا أدى إلى تغليب الروح الانهزامية أو الانسحابية في حياة جمهور المسلمين.

٥- إلغاء شخصية المريد في تربيتهم السلوكية والفكرية، بحيث يفنى في شيخه ولا يناقش فضلاً عن أن يعترض، أو يقول: «لم» فضلاً عن «لا» ومن كلماتهم: «المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل» و«من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح».

وقد نشرت هذه الأفكار في العصور المتأخرة، وتقبلها الكثيرون على أنها من صميم الإسلام. فلما بزغ فجر النهضة الحديثة في بلاد المسلمين ظن كثير من المثقفين أن هذه الأفكار السلبية السائدة هي الإسلام، فأعرضوا عنه - وربما عادوه - جهلاً منهم بحقيقة القيم الإسلامية الأصيلة.

على أن الحق يقتضينا أن نضيف هنا أن الصوفية الأولين المعتدلين حذروا من الشطط والانحراف، وأوجبوا التقيد بنصوص الشريعة وقواعدها التي لا تخطىء ولا تحيف.

ولعل أعدل ما قيل عن الصوفية، هو جواب ابن تيمية حين سئل عنهم فكان من قوله: «تنازع الناس في طريقهم: فطائفة ذمت «الصوفية والتصوف» وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة. ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أجل طاعة الله، ففيهم (السابق المقرب) بحسب اجتهاده، وفيهم (المقتصد) الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو (ظالم لنفسه)، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخروه عن الطريق، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره. ا هـ. والله أعلم»[1].

ويقول الدكتور القرضاوي أيضاً في كتابه «تيسير فقه السلوك إلى الله عز وجل»:

موقفي النظري من التصوف:

«قد بينت موقفي من التصوف في الجزء الأول من كتابي «فتاوى معاصرة» في فتويين من فتاواه، وهو موقف يتميز بالإنصاف، والاعتدال في تقويم التصوف، فلست مع المفرطين في مدحه، ولا من المبالغين في قدحه.

فأحمد الله أن هداني إلى الموقف الوَسَط، الذي لا يطغى في الميزان ولا يخسر الميزان، فالعدل بين الطغيان والإخسار، بين الإفراط والتفريط، فقد ذكرت ما للتصوف وما عليه، ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوفة في الحياة الإسلامية، فكم أسلم على أيديهم من كافر، وكم تاب على أيديهم من عاص، وكم رققوا من القلوب، وزكوا من النفوس، وهذبوا من الأخلاق، فلنذكر هذا لهم، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات، والمتقدمون فيهم ـ بصفة عامة ـ أفضل من المتأخرين».

---

(١) فتاوي معاصرة للقرضاوي ١: ٧٣٩-٧٤٣.

فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية:

ولقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مع صرامته في الالتزام بمنهج السلف، وشدته في مقاومة البدع ـ يقف من التصوف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل، وهذا من إنصافه وسعة علمه، ورحابة أفقه، رضي الله عنه.

وقد نقلت عنه في فتواي الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية، فكان جوابه الذى ذكره في رسالته عن «الفقراء» وهو أعدل ما قيل في القوم.

تقويم ابن القيم للصوفية:

وكذلك أنصف الصوفية الإمام ابن القيم، كما تجلى ذلك في شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروي «منازل السائرين» وقد كان ابن القيم يعظم الهروي ويوقره، لأنه كان حنبلياً، وتوجهه في فهم العقيدة وبيانها توجه سلَفي، ولا عجب أن يُطلق عليه لقب «شيخ الإسلام»، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحاً يُقرِّبه إلى منهج الكتاب والسُنة، وهدي سلَف الأمة، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة، ومع هذا لم يملك في كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه، فالحق أحق أن يتبع، والرجال يُعرفون بالحق، وليس الحق يُعرف بالرجال.

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المنصف المعتدل قوله في شرح ما ذكره الهروي عن منزلة «الرجاء» وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات:

«شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه! وكل مَن عدا المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمأخوذ من قوله ومتروك».

وبعد محاولة ابن القيم لحمل كلام الهروي على أحسن المحامل قال:

«هذا ونحوه من الشطحات التى تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ.

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس. **إحداهما**: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف. فلو كان كل مَن أخطأ أو غلط تُرك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحُسْن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: ـ وهم أهل العدل والإنصاف ـ الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قبلوا ما يُقبل، وردوا ما يُرد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حَذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها، وتبرؤوا منها، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته: أن أبا سليمان الداراني رئي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم.

وقال أبو القاسم: سمعت أبا سعيد الشحام يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام، فقلت له: أيها الشيخ، فقال: دع التشييخ. فقلت: وتلك الأحوال؟ فقال: لم تغن عنا شيئاً، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز.

وذكر عن الجريري: أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته، فقال: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات[1].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» ٢/ ٣٧ ـ ٤٠ طبع السنة المحمدية بمصر.

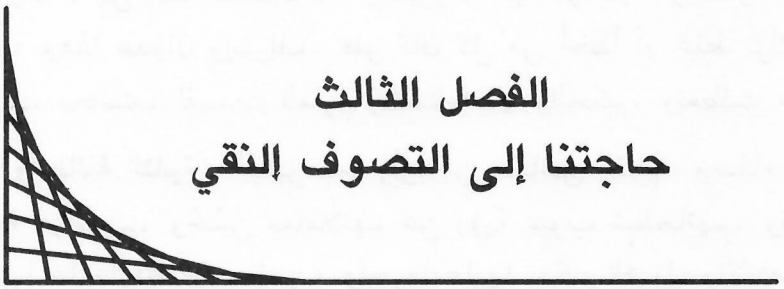

الفصل الثالث
حاجتنا إلى التصوف النقي

نحن في عصر طغت عليه المادية والآلية، حتى أفقدت كثيراً من أناسي هذا العصر معاني إنسانيتهم، وجمدت في نفوسهم مشاعر بشريتهم، أضلوا أنفسهم، وأضاعوا مشاعرهم وعواطفهم، في ضجيج الآلات وحمى الشهوات، وليس من سبيل لإنقاذهم من هذا الطوفان الجامح، إلا بأن يلقوا بأنفسهم وقلوبهم وأرواحهم في بحار النور، حيث الحبور والسرور، والطمأنينة والسكينة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٠] النور العذب الصافي الذي لا تكدره بدعة، ولا تلوثه شطحة، يصدر عن قلوب استنارت بنور الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] أفاض الله عليها هداياه وعطاياه، علوماً وأذواقاً، وأحوالاً وأشواقاً، فهم كما وصفهم الإمام الكلاباذي في التعرف: «سبقت لهم من الله الحسنى، وألزمهم كلمة التقوى، وعزف بنفوسهم عن الدنيا. صدقت مجاهداتهم، فنالوا علوم الدراسة، وخلصت عليها معاملاتهم، فمنحوا علوم الوراثة، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة. ثبتت أقدامهم، وزكت أفهامهم، وأنارت أعلامهم. فهموا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عما سوى الله...»[1] [التعرف لمذهب أهل التصوف].

---

(١) من كتاب «محمد الحامد» لتلميذه الشيخ عبدالحميد طهماز.

التصوُّف النقي سلّم الوصول إلى ثمرات الإيمان:

التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه. فإنَّ المسلم إذا لم يكن قد تشرب حقيقة التصوف. فقد حبس نفسه في معاني الإسلام، ولم يرق صعداً إلى حقيقة الإيمان.

والتصوف ليس كلمات تورث أو تنقل ولا معارف تحفظ، ولكنه حال يتلبس بكيان المسلم يرقى به إلى مستوى شهود الله عز وجل. واذا لم يرتفع المسلم إلى مستوى هذا الشهود، فهيهات أن تكون نصوص الأحكام وحدها، بكل ما يحف بها من مؤيدات الجزاء، حافزاً كافياً للانضباط الحقيقي بمدلولاتها وأوامرها.

إن الالتزام الحقيقي بأوامر الله عز وجل يأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان بالله في القلب، وليس لهذا الإيمان من ثمرات إلا حب الله وتعظيمه والخوف منه، والرضا عنه والثقة به، والاتكال عليه والفناء في ذلك كله عن الأغيار. ومن ازدهار مجموع هذه الثمرات الإيمانية يتحقق معنى شهود العبد للرب. وهذا هو الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه على منهج الآداب والواجبات، إذ هو في كل أحواله وتقلباته، مع الله عز وجل في مراقبته له وذكره إياه وانسياقه في مشاعر الخوف منه والحب له والرضا عنه والثقة به.

وليس للتصوف النقي من معنى إلا أن يأخذ المسلم نفسه بما يوصله إلى مستوى هذا الشهود... أو أن يأخذ نفسه بما يوصله إلى ثمرات الإيمان، أو يوصله إلى حقيقة معنى التوحيد، فهي ألفاظ شتى ولكنها جميعاً ذات دلالة واحدة.

وفي الرسالة القشيرية ما يبرز حقيقة هذا التصوف النقي، وما يكشف عن عميق ارتباطه بنصوص القرآن والسنة[1].

---

(١) من كتاب «هذا والدي» للدكتور البوطي.

التربية الوجدانية:

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية»:

«مما هو معلوم لنا جميعاً، أن الكيان الإنساني ـ إذا أسقطنا منه صورة اللحم والدم، وهي الجسد ـ يتكون من العقل والعاطفة، فبهما تتحقق إنسانية الإنسان.

أما عقله، فهو أداة الإدراك والوعي. وأما عاطفته، فهي تنقسم (من حيث تنوع الدوافع التي تتأثر بها) إلى ثلاثة أقسام رئيسية: عواطف دافعة وهي التي تتأثر بعامل الرغبة والحب، وعواطف رادعة وهي التي تتأثر بالرهبة وأسباب الخوف؛ وعواطف ممجدة، وهي التي تتأثر بصفات العظمة وموجبات الإعجاب.

ومن الثابت أن جميع ما يصدر عن الإنسان من سلوك وتصرفات، فإنما هو بدفع وإيعاز من هاتين الملكتين أو الحقيقتين، على أن دور العقل لا يزيد عن كونه إضاءة للطريق وتبصيراً بالحق؛ أما العاطفة فمحرك ومهيج للسلوك، حسبما تمليه عوامل الرغبة والرهبة والتمجيد، مهما كان نوعها وأياً كان مصدرها.

من أجل هذا يقرر علماء التربية قديماً وحديثاً أن سبيل العاطفة كثيراً ما ينفصل عن العقل، فيندفع الإنسان إلى مسالك لا يقرها الفكر السليم، لا سيما عندما تستبد به الشهوات والأهواء، فإن سائر دوافعه وروادعه إنما تتكون عندئذ من تلك الشهوات والأهواء ونحوها.

ومن هنا فإن المشكلة الكبرى التي يواجهها الإنسان في حياته تتمثل في أن الدوافع السلوكية في حياته، إنما يأتي معظمها من العاطفة، أما نصيب العقل فيها فنذر يسير. فما أكثر الذين يتمتعون بمدارك واعتقادات سليمة؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يلزموا أنفسهم، على صعيد السلوك والتطبيق، إلا بجزء يسير مما تستوجبه قناعاتهم واعتقاداتهم العقلية. وتأمل في المجتمع الذي حولك تره ذاخراً بمظهر هذا الازدواج المتناقض.

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى ما يسمونه (التربية) في سائر المجتمعات الإنسانية على اختلافها.

فهي، مهما تنوعت وتطورت، ليست أكثر من ترويض العاطفة، ابتغاء تطويعها لمقتضيات العقل وأحكامه. وقصارى ما يهدف إليه المربون، أن تتلاقى كلتا القوتين: العقلية والوجدانية في كيان الإنسان على طريق واحد، في تعاون وانسجام، دون أي تناقض.

فإذا علمنا أن الكيان الإنساني مكون من هاتين الحقيقتين (العقلية والوجدانية) وإذا علمنا أن إليهما مرد الحركة الإنسانية الدائبة فوق هذه الأرض، فمما لا شك فيه أن الدين يجب أن يكون مهيمناً على كل من العقل والعاطفة معاً. إذ لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا خضع كيانه الإنساني كله لحقائق الإيمان ومبادئه، وكيانه مؤلف ـ كما قلنا ـ من العقل والعاطفة. فإذا أيقن العقل ولم تتأثر العاطفة، أو تأثرت العاطفة ولم يتوافر اليقين العقلي، فإن صاحب هذا الكيان لا يسمى في الحقيقة مؤمناً.

خاصة وقد علمت أن جل الدوافع السلوكية، في حياة الإنسان، إنما تنبثق من عواطفه ووجدانه فماذا عسى أن يكون للإيمان أو الإسلام من سلطان على الإنسان إذا لم يزد على كونه مجموعة مسائل اعتقادية ركنت في زاوية من العقل، دون أن يتأثر الوجدان منها بموجبات رغبة أو رهبة، أو تعظيم وتمجيد له، حتى انساحت العواطف من جراء ذلك، طليقة، في ساحة الشهوات والأهواء والرغائب النفسية المتنوعة بمعزل عن مشورة العقل وحكمه؟.

لا ريب أن هذا الإنسان يوصف (بموجب موازين القضاء الدنيوي) بأنه مسلم، وتطبق عليه أحكام الإسلام، ولكن الحقيقة التي سيؤول إليها أمره، أن إيمانه العقلاني الأعزل سيذبل ثم يذبل، ثم يزداد ذبولاً. فما هو إلا أن تؤول معتقداته الذهنية إلى شكوك وأوهام.

وهكذا، فإن الإيمان بالله عز وجل لا يستقر ويثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعامتي العقل والعاطفة معاً. فلا بد أن يغرس وجوده في ساحة

العقل وبراهينه أولاً. ثم لا بد أن تغذى أصوله برعاية العواطف والوجدان ثانيا. شأنه كشأن أي شجرة تغرسها. لا بد أن تغرس في تربة صالحة أولاً، ثم لابد أن تتعهد بالرعاية والسقيا ثانيا.

وكما أن الشجرة تذبل ثم تيبس إذا غرستها في أرض صالحة ثم أعرضت عن سقياها ورعايتها، فكذلك الإيمان الذي غرسته في كيانك العقلي قناعة ويقيناً، ثم لم تغذه وتنعشه بمشاعرك الوجدانية، وتركت هذه المشاعر تصبو إلى الرغائب والشهوات النفسية، فإنه يذبل ثم يختنق في أوار تلك الرغائب والشهوات الجانحة.

من أجل هذا ترى البيان الإلهي لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات.

فهو يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

ويقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ويزيد رسول الله ﷺ هذا الأمر بياناً وتأكيداً؛ فيقول فيما يرويه الشيخان: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**».

ويقول فيما يرويه الشيخان أيضاً «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**».

وروى الديلمي بسنده عن رسول الله ﷺ قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى**

يكون هواه تبعا لما جئت به» وهذا هو المعني بالإحسان الذي عرّفه النبي ﷺ؟ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» رواه مسلم.

ويتبين لدى التأمل في تلك الآيات وأمثالها وهذه الأحاديث المبينة والمؤكدة، أن الممارسات العملية لأركان الإسلام وتوابعها لا تفيد صاحبها شيئاً، إلا إذا سرى إليهما شعاع من جذوة الإيمان الذي استقر قناعة ويقيناً في داخل العقل. فعندئذ تحيا تلك الممارسات الفعلية بروح الإيمان، وتتحول من حركات آلية باردة إلى سلوك إيماني نابض بمشاعر الرقابة الإلهية، فإذا أقبل إلى أي عبادة من العبادات، أقبل إليها بمشاعر متيقظة تنبهه في كل لحظة إلى أن الله يراه. وتلك هي رتبة الإحسان في السلوك الإسلامي الذي يندبنا إليها المصطفى؟.

ولكن كيف السبيل لإيصال أشعة الجذوة الإيمانية في العقل، إلى الممارسات الإسلامية على الأعضاء؟ وعن طريق أي سلك يمكن تحقيق هذا الربط؟.

إنه سلك العاطفة والوجدان.. فهو وحده الذي يمكنه أن يمتص القناعة الإيمانية في العقل، ثم يحيلها في بوتقة العاطفة إلى شعلة متوهجة من الحب والخوف والإجلال، ثم يوجهها إلى تلك الأعمال والوظائف الإسلامية من صلاة وصيام وحج وذكر وقراءة قرآن ونحوها، فإذا هي مشاعل سلوكية مضيئة، وإذا هي تنبض بيقظة الإجلال لله عز وجل. وفي هذا المستوى يدرك المسلم بإحساسه أبعاد قوله؟: «.. **وجعلت قرة عيني في الصلاة**» وقوله لبلال: «**أرحنا بها يا بلال**»[1].

أهمية التزكية:

ولكن كيف السبيل إلى استخدام العاطفة في تحقيق هذه الصلة الهامة بين مركز الإيمان في العقل ومظهر الوظائف الإسلامية على الأعضاء؟ كيف

---

(١) الإسلام ملاذ المجتمعات، للبوطي ص ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

السبيل، وإن هذه العاطفة من شأنها أن تكون أسيرة في يد النفس وشهواتها ورعوناتها؟ تلك هي العقبة الكؤود!.. وتلك هي الفتنة التي أقامها الله في حياة الإنسان، ثم ألزمه بالجهاد.. بمجاهدة النفس والهوى، في سبيل اجتياز العقبة، ثم السير لبلوغ مرتبة الإحسان. وتوعد على ذلك ووعد.. فقال جل جلاله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات ٣٧-٤١].

والكلمة القرآنية الجامعة لهذه المجاهدة بجوانبها وفروعها الكثيرة، هي (التزكية) وما أكثر ما يرددها القرآن لافتاً النظر إلى ضرورتها ومدى أهميتها.

فمن ذلك قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس ٩ ـ ١٠].

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى ١٤، ١٥].

وقوله على لسان موسى خطاباً لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات ١٨، ١٩].

إن تزكية النفس واجبة على كل مكلف، وإن الفلاح منوط بهذه التزكية، فتطهير النفوس من العيوب الاختيارية الظاهرة والباطنة فرض، وجهادها حتم، حتى تستقيم على أمر الله سبحانه وتعالى.

وطريق التزكية هو الأخذ بالأوامر، واجتناب المناهي، طبق ما نطق به الكتاب الكريم، وما دلت عليه السنة الشريفة، ولا بد من اجتياز عقبات، وذوق مرارات، واحتمال مكابدات، لأن جهاد النفس أشد جهاد، فهي كلما ظنّ صاحبها بها خيراً، إذا بها تنفلت انفلاتاً، وتشرد شروداً، يتبين منهما أنها ما تزال في الطريق، وأنها لما تصل إلى الغاية بعد، فيجب الاتهام لها حتى تزكو، شأن العارفين بدخائلها والمشرفين على دفائنها، بأعين نقادة بصيرة.

ولا بد من علم لمجاهد نفسه بطريق التزكية، وقد كشف عنها علماء

التربية النفسية العارفون بالله، وأجمع كتاب في هذا العلم هو كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي حجة الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ، إن المرء إذا قرأه مطبقاً لما رسم فيه ـ إلا مواضع قليلة استثناها العلماء منه ـ كان مفلحاً، وكان سالكاً سبيل التصفية المفضية إلى أفضل النتائج.

(والتصوف اسم حادث لمسمى قديم، إذ إن مسماه لا يعدو كونه سعياً إلى تزكية النفس من الأوضار العالقة بها عادة، كالحسد والتكبر وحب الدنيا وحب الجاه، وذلك ابتغاء توجيهها إلى حب الله عز وجل والرضا عنه والتوكل عليه والإخلاص له. فإن النفس ما دامت مثقلة برعوناتها، لن تتفرغ، بل لن تتوجه إلى شيء من هذه الواجبات. ويبقى الإسلام في حياة صاحب هذه النفس مجرد رسوم وطقوس، بل ربما كانت ممارسته لأكثر وظائف الإسلام تغذية وخدمة لرعوناته النفسية، كأن يمارس التكبر على الآخرين والسعي إلى جمع المال وبناء العز والجاه بواسطة ما يقوم به من الأنشطة والوظائف الإسلامية!.

وغني عن البرهان أن إسلام مثل هذا الإنسان ليس أكثر من قشور إسلامية تغطي أسوأ ما جاء الإسلام لإزالته من الأمراض والرعونات النفسية.

وغني عن البرهان أيضاً أن لب الإسلام وجوهره إنما يتمثلان في تزكية النفس من تلك الأوضار، وفيما يتم غرسه بعد ذلك في القلب من معاني الرضا عن الله والتوكل عليه والحب والإخلاص له والخوف منه. إلخ.

وما حقيقة الجهاد الذي تتكرر الدعوة إليه في كتاب الله عز وجل، في مثل قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] إلا مجاهدة النفس في تطهيرها من تلك الأوضار ثم تجميلها وتحليتها بهذه الحقائق. وما الجهاد بالمال وبالنفس في ساحات القتال إلا من فروع شجرة هذا الجهاد الأساسي الذي لا بد منه قبل كل شيء.

وما باطن الإثم الذي تكررت الدعوة الإلهية إلى ضرورة التنزه عنه والترفع عليه، في مثل قوله: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، إلا هذه الطبائع بل الرعونات النفسية التي تحجب القلب عن مشاهدة الحق.

وما الدعوة إلى التزكية المكررة بأساليب شتى في القرآن، إلا دعوة إلى تطهير النفس من تلك الطبائع والرعونات.

وما الإحسان الذي عرفه رسول الله ﷺ ودعا إليه في حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة - وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك - إلا الغاية التي لا يمكن بلوغها إلا من وراء هذه التزكية، ومن وراء ممارسة القلب لمعاني الحب والخوف والتوكل والرضا والإخلاص لله عز وجل.

فهذه الحقائق، لا يرتاب مسلم صادق في إسلامه، في أنها تمثل لب الدين وجوهره. وهو من أبرز ما كان يتحلى ويتميز به السلف الصالح رضوان الله عنهم، وذلك بقطع النظر عن أي تسمية يمكن أن توضع ويصطلح عليها تعبيراً عن هذه الحقائق الثابتة التي لاخلاف في شأنها.

ثم إن السعي إلى هذه التزكية النفسية، وإلى غرس حقائق المعاني الإيمانية في القلب، عمل مبرور ومأمور به ما دام منضبطاً بأحكام الشريعة الإسلامية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه علماء المسلمين. وهو عمل باطل ومنهي عنه إذا جاء مخالفاً لشيء من أحكام الشريعة الثابتة)[1].

إن في الإسلام كنوزاً ينبغي أن تستغل، وطاقات روحية ينبغي أن تستثمر، وضياعها ضياع لعناصر هامة في الدعوة، وقصور في كمال الإسلام، ونقص في تصوره وشموله، ألا وهي التزكية والتربية، والعناية بصفاء الروح ونقائها، ومعرفة دقائق التوحيد، وعلم الإخلاص، وحقيقة اليقين.

وإذا كانت هذه العلوم موجودة في مدرسة التصوف فإن اسمه وما لابسه من بدع وانحرافات، وأهوال وطامات ينبغي ألا يحول بيننا وبينها، وهي من صميم الإسلام ولبابه، فبدلاً من رفضه وما فيه جملة وتفصيلاً،

---

(١) السلفية، للبوطي ص ١٩٠.

نعمل فيه التصفية والتنقيح، والغربلة والتشريح، حتى يعود ماء مصفى، وشراباً مروقاً، ليس فيه إلا ما وافق السنة وأقره الكتاب، وعمل به جماعة السلف وأئمة العلم، وهذا البحث دعوة لإنصاف التصوف وأهله، لكن على أساس من الحق بعيداً عن التعصب له أو عليه.

موقف الناس من التصوف والصوفية:

يقول العلامة الشيخ محمد بشير الشقفة في مقدمته لكتاب «عبدالقادر الجيلاني»:

«معذورون أولئك الذين يرفضون اسم التصوف.

ومتكلفون أولئك الذين يبالغون في البحث عن أصله، واسمه، واشتقاقه.

ومغبونون بل خاسرون أولئك الذين يرفضون كل ما فيه عصبية دونما تمحيص أو ترو.

وظالمون أولئك الذين يرفضون كل من تسمى بهذا الاسم دون التعرف على أحوالهم، وأعمالهم واعتقادهم.

وجاهلون أولئك الذين يعممون حكم الواحد على الكل، أو حكم القليل على الكثير، أو حكم المجموعة على الجماعة، أو حكم الفرد على سائر الناس، أو حكم الجاني على سائر أهل بلده».

الميزان الذي نتحاكم إليه:

لقد أجمعت أمة الإسلام على أن الأساس والميزان والحكم والعمل إنما يكون في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، لذا فإن كل مسلم يلتزم بهذا الأساس ويعتز به ويطالب نفسه وغيره بالتزامه ويزن الأمور بميزانه. وهذا الأساس يشكل الوحدة الفكرية والعلمية والعملية عند المسلمين بأسرهم لا يختلف في ذلك اثنان.

من أسباب الاختلاف:

فالهدف إذن واحد، ولكن الخلاف إنما ينشأ عن الاختلاف في فهم النصوص وتأويلها، أو في صحتها وثبوتها، أو ناسخها ومنسوخها. وأشده إنما يكون عند غفلة بعضهم عن جوانب من تكاليف الإسلام، وإهمال بعض من أحكامه، قال تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

أما عذر أولئك الذين يرفضون كل ما لم يرد في الكتاب والسنة فمقبول، وهذا المبدأ لا ترتاح فطرة المسلم التي فطر عليها إلا إليه، فما لم يرد في هذين المصدرين الكريمين من أسماء وأفكار، ونظم ومبادىء، وعقائد وقواعد، واصطلاحات وقوانين وتشريعات فإن فطرة المسلم تمجه وترفضه، وتنأى عنه وتمقته، وتشعر أنه من قبيل الرجس، اللهم إلا ما كان من قبيل العلوم التي تعين على فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما وتقريب فهمهما إلى الناس لتحقيق البلاغ والبيان.

شروط قبول العمل:

فينبغي ألا يخطر على بال مسلم أنه يمكن أن يرفع له عمل، أو تقبل له عبادة ما لم تكن مشروعة، قيل للفضيل بن عياض: (ما معنى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه، والخالص: ما كان لله تعالى، والصواب: ما كان على السنة. فإذا كان العمل خالصاً ولم يكن على السنة فلا يقبل، وإذا كان على السنة ولم يكن خالصاً فلا يقبل، وإنما يقبل العمل الخالص لوجه الله تعالى إذا كان على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) [مجموع الفتاوى ١١: ٥٨٤].

والاتباع ينبغي أن يكون في كل شيء من حياة المسلم بدءاً من العقيدة والنية والإخلاص والهم والتمني، إلى القول والذكر والعبادة والعمل، ولا تتحقق المحبوبية إلا بهذا.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وبعد هذا فلينظر ما يشير إليه اسم (التصوف) في اصطلاح القوم من حقائق وما يختص به من علوم ومعارف، ورياضات ومجاهدات، وزهادة وعبادة، وذكر وفكر، ما كان منها من صميم الإسلام ولبه، وأحكامه وتكاليفه، وليسم بما يناسب ذلك، فإنه أرضى للرب عز وجل، وأدعى للقبول في قلوب المؤمنين، وآنس لأرواحهم، وأسلم لمنطقهم، وأبلغ في الدلالة على المقصد، والإشارة إلى الغاية والهدف، والتعريف بالمراد والمطلب، فإن أول فوائد الاسم الدلالة على المسمى.

● ● ●

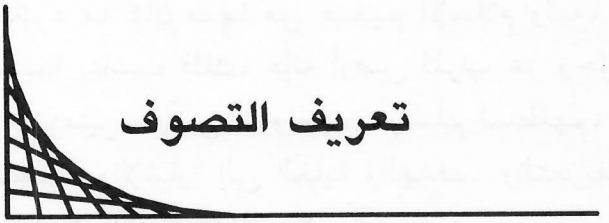

تعريف التصوف

قال الكلاباذي رحمه الله تعالى في كتاب «التعرف»:

«لم سميت الصوفية صوفية؟ قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته.

وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقال قوم: إنما سمّوا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وقال قوم: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف... ا.هـ».

وقال الشيخ ابن تيمية: «وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم (صوفي)، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال»[1].

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية ص ٢٥.

وقال العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر في كتابه «رسائل الإصلاح» ص ١٩٠ ـ ١٩١: اختلفوا في أصل كلمة الصوفية، وذهبوا فيه مذاهب: أصحها أنها مأخوذة من الصوف، لأن الزهّاد كانوا يعمدون إلى لبس الصوف بعداً وتجنباً للبس الفاخر من الثياب.

وهناك آراء ضعيفة، منها: أن الصوفية كانوا يقيمون بمسجد رسول الله ﷺ عابدين متفقهين لا يفارقونه إلا لجهاد عدو. وهذا الوجه لا يوافق قاعدة النسب في اللغة، فإن القاعدة تقضي أن يقال في النسب إلى صفة: صفية، لا صوفية.

ومنها: أن الصوفية نسبة إلى آل صوفة، تشبهاً لهؤلاء الزهاد بآل صوفة، وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويتنسكون، ويبعد هذا الوجه أن آل صوفة قد ذهبوا بذهاب عصر الجاهلية. وقد تسمى هؤلاء العباد والزهاد في الإسلام باسم الصوفية، وقبلوا هذا الاسم، ولا أحسبهم يرضون بنسبتهم ولو على وجه التشبيه إلى طائفة كانت في الجاهلية على غير هدى.

ومنها: أنها نسبة إلى الصوف على معنى أنهم آثروا الانكسار فكانوا كالصوفة المرمية، وهذا وجه سخيف لا يلتفت إليه.

ومنها: أن الصوفية نسبة إلى الصف، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى. وقاعدة النسب لا تساعد على هذا الوجه، كما أنها لا تساعد على أن يكون مأخوذاً من الصفاء، لصفاء نفوسهم وخلوص قلوبهم من شوائب الأهواء، وسيئات الأخلاق.

وهذا الاسم حدث بعد عهد السلف، قال السهروردي في كتاب «عوارف المعارف»: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة، وذكر ابن تيمية جماعة من الزهاد منهم الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧. وقال: في عصرهم حدث اسم التصوف. وقال القشيري في الرسالة: واشتهر هذا الاسم، يعني التصوف، قبل المائتين من الهجرة، وذكر حسن صديق في كتاب «أبجد العلوم»: أن أول من دعي بهذا الاسم أبو هاشم

الصوفي، وقد توفي أبو هاشم هذا سنة ١٥٠.

والتصوف: رياضة النفس ومجاهدة الطبع، برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة ابتغاء السعادة. وهذه الرياضة والمجاهدة تكون بالعكوف على العبادة والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال أو جاه[1]. انتهى.

فهذا الاسم لم يكن شائعاً في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد كان القوم عباداً زهاداً، لم يختص فريق منهم بشعار ولا نحلة، يمتازون بها عن البقية، بل كان الجميع على محجة الهدى الواضحة، يحيون ما أحياه القرآن والسنة، تقيدوا بنصوصهما وأوامرهما فاتبعوهما، وحملوا أنفسهم على لزوم الاتباع، والميل عن الابتداع، فكان عصرهم أرقى العصور وأزهاها، بيد أنه لما تطاول الزمن بعد عصر الصحابة، وفتحت الدنيا على الناس، فمالت بهم، ومالوا بها، وظهرت بوادر الفساد، بقي فريق من الناس متبعين خطة السلف، ناهجين نهجهم، عاملين على إحياء السنن وإماتة البدع، صرفوا قلوبهم عن الدنيا وزخرفها، وزهدوا فيها زهداً حقيقياً، فإن حازوا على شيء منها، فهو بأيديهم لا بقلوبهم.

عرفت هذه الفئة من الناس بالصوفية، وهو اسم محدث كما علمت، والأقرب إنما سموا به، لأن شعارهم كان لبس الصوف.

فالتصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية، وتعمير القلب بذكر الله تعالى، ومراقبته وخشيته ورجائه، والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة، وخلافاً للبدعة السيئة التي يحظر الإسلام التلبس بها.

وقال العلامة محمد بن الحسن الحجوي في «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» ٢: ٥١:

---

(١) رسائل الإصلاح ص ١٩٠ ـ ١٩١.

«التصوف: هو العلم بتجريد القلب لله وخلوه مما سواه بمعنى تصفية النفس من رعوناتها، والقيام بالورع في الدين، وترك ما يريب إلى ما لا يريب، مع الإكثار من العبادات والذكر، وعدم الغفلة عن الله، وصون الوقت أن يذهب إلا فيما يفيد، ومحاسبة النفس على الأنفاس، ومدار المقصود منه التخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام.

قال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى لُقب الصوفي

فهو زبدة العمل بالشريعة إذا خلا عن حظوظ النفس» انتهى.

ثم قال: والأصل فيه حديث جبريل في سؤاله عن الإحسان الذي هو إتقان الإيمان والإسلام، فالتصوف عملي رياضي أكثر منه علمي، قال محمد بن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة، فاستقامت.

هذا أساس التصوف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والغاية منه إتقان العبادة، وإحسانها بالإخلاص فيها، وتخليص النفس من رعونات النقائص، وتحليتها بالكمالات، وفهم أسرار العقائد والعبادات ودقائقها كما ينبغي، وبذلك يصل العارف إلى ربه، ومعناه أن يكون دائم الحضور لا تحصل له غفلة حتى لا يخرق سياج الشريعة، ولا يخرج عن دائرة الامتثال كما قيل:

تركت للذات البهائم أهلها وهمت بما يعني به عالم المعنى

ثم هذه المجاهدة تنتج ذوقاً في فهم كلام الله سبحانه، لكن بعد تحصيل الأدوات، وملازمة الخلوات، وتطهير القلب من الآفات، كما تنتج أيضاً مشاهدة وكشفاً عن عوالم غائبة، وذلك ما يعبرون عنه بالعلم اللدني أو علم الأذواق، أما إن لم تكن تقوى ولا اتباع طريق السنة والمجاهدة فإنما

هي واردات ظلمانية، وشقائق شيطانية[1]. انتهى.

بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

يقول العلامة الشيخ محمد بشير الشقفة:

«مهما قلبنا النظر في المعنى اللغوي لكلمة (التصوف) وبحثنا في أصلها واشتقاقها لا نجدها تدل على الحقيقة الاصطلاحية التي ينطوي عليها من قريب ولا من بعيد، علاوة على أن هذا الاسم لم يكن مشهوراً عند السلف ولا متداولاً بينهم.

ولكن حين نعجز عن محاكمة التاريخ الذي اصطلح عبر قرون عديدة على تسمية القوم بهذا الاسم حتى أوصله إلينا.

وحين نعجز أيضاً عن إيقاف استمرار هذا الاصطلاح بأصواتنا الضعيفة وكلماتنا المعدودة، حتى إننا لنرى أنه سوف يتجاوزنا ويمر عبر قرون تأتي، فإننا نريد أن نسجل للعلم والإنصاف: أن التعصب لاسم (التصوف) والحرص على الاحتفاظ به ليس له ما يبرره، خصوصاً إذا ما ثبت أنه سبقتنا بالتسمي به متصوفة الرهبان من النصارى والبوذيين وغيرهم من أهل ملل الكفر.

كما أن إنكار ورفض ما ينطوي عليه من حقائق إيمانية، وأخلاق مثالية - لمجرد التسمي بهذا الاسم - ظلم له ولأهله، وخسارة أيما خسارة لمن حكم عليه هذا الحكم الجائر، لأنه ظلم نفسه إذ تعدى مرتين، مرة ظلم العلم، ومرة ظلم أهله، وهل علومهم إلا: (علم الإحسان)، أو تقول: (علم الإخلاص)، أو تقول: (علم العبودية)، أو تقول: (علم التزكية)، وهل أهله إلا: (الربانيون)، أو تقول (أهل الله)، أو تقول: (العلماء بالله)، أو تقول: (أهل الذكر)، أو تقول (العارفون بالله). قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) الفكر السامي للحجوي ٢: ٥١ و ٥٨.

فبأي اسم سميته أو سميت أهله مما مر فإنك تجده في كتاب أو سنة، وهو يدل على القوم واختصاصهم بلا لبس ولا غموض.

وتبقى كلمة (التصوف) كلمة تراثية تدل على حقائق إيمانية، فلا ينبغي أن نهملها لما تدل عليه، كما لا ينبغي أن نتعصب لها كأنها نص في سنة أو كتاب، كما لا يرغب المسلم أن يسمى بها بعد أن سماه الله عز وجل (مسلما) فقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

١- التصوف النقي:

وقال العلامة حسنين محمد مخلوف في تقديمه لكتاب (رسالة المسترشدين) للمحاسبي:

«التصوف الإسلامي تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج لأمراض القلوب، وغرس للفضائل، واقتلاع للرذائل، وقمع للشهوات، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات.

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتروكها، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات وهواجس الخطرات، وانقطاع عما يعوق السالك في سيره إلى الله، وزهادة في كل ما يلهي عن ذكر الله ويعلق بالقلوب سواه.

وهو معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبد بشريعته، وتعرض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرماً.

وجملة القول فيه قبل تدوينه كفن إسلامي وبعده: أنه علم وحكمة، وتبصرة وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقوى واستقامة، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.

وقد أشار إلى طرف من ذلك أبو محمد الجريري بقوله في وصفه: إنه

الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني. وقوله: التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب.

والأدب ـ كما أشار إليه القشيري في «الرسالة» ـ: جماع خصال الخير. وحاصلها: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عز وجل من حقوق.

وعن أبي نصر السراج: الناس في الأدب على ثلاث طبقات:

أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم والمنظوم.

وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود (التي بين العبد وربه)، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب. انتهى.

فالتصوف كما ترى: لب الشريعة وروحها، وثمرتها وحكمتها. وقد قال سيد الطائفة الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقد اختص هذا النوع من العلم الشرعي في عصر التدوين ـ كما أشار إليه ابن خلدون في «مقدمته» ـ باسم (التصوف أو علم الحقيقة)، كما اختص النوع الآخر منه الخاص بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفقه أو علم الشريعة).

وقال بعض الصوفية في بيان ترابط هذين العلمين وتعاونهما في تكوين شخصية المسلم الكامل ظاهراً وباطناً، حساً ومعنى، مادة وروحاً: «حقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة». فهما للمسلم كجناحي الطائر لا يستقل بأحدهما دون الآخر.

ذلك هو التصوف النقي من الشوائب، الذي لم يخالطه زيغ ولا شطط ولا جهل ولا ابتداع. وهو تصوف العلماء والنساك العارفين بالله، القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته.

هذا هو التصوف الصادق الذي ملأ سمع الدنيا وأعينها قبل عصر التدوين وبعده، وهؤلاء هم الصوفية حقاً، الصادقون قولاً وفعلاً.

٢- التصوف المنتحل المبتدع:

وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فئام من الناس، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، وتدثروا بدثار الصوفية، اجتذاباً للعامة، وتغريراً وخداعاً وتلبيساً، ودسوا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالاً للمسلمين، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء، وينكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابهم، ويحسبونهم أدعياء في نسبه مزورين، وزنادقة ملحدين.

وقد كشف خبأهم، وفنّد مزاعمهم، وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم رضي الله عنهما.

٣- التصوف المنحرف المزوَّر:

وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زوراً، واتخذوها سمة وحرفة، وتوارثوا فيما بينهم بدعاً وشعارات زائفة، وتقاليد منكرة يبرأ منها التصوف وأعلامه من أولي العلم واليقين.

وهؤلاء كذلك أدعياء في التصوف، دخلاء في الصوفية، مبتدعون آثمون.

وإحقاقاً للحق، وإنصافاً للصادقين: يجب أن لا يحملوا أوزار أولئك الأدعياء المبطلين، وأن لا يطلق القول في ذم التصوف والصوفية، بل يعطى

كل فريق حقه من المدح أو الذم، ومن الترغيب أو التحذير، دون تعصب أو تحيف» (انتهى)[1].

● ● ●

(١) تقريظ العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف لرسالة المسترشدين بتحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله تعالى ص ٢٣ ـ ٢٨ باختصار.

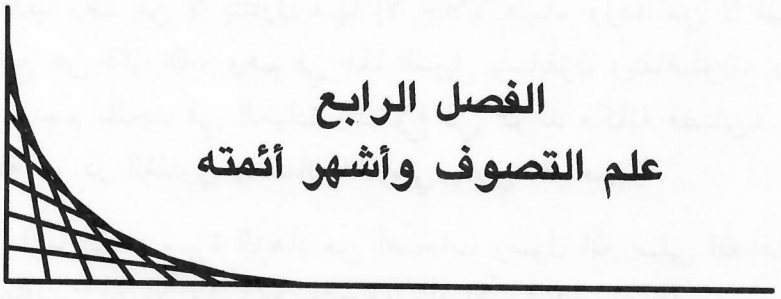

الفصل الرابع
علم التصوف وأشهر أئمته

إن التصوف في الأصل سلوك طريقة الزهد والانقطاع إلى العبادة، ومحاسبة النفس على الأفعال والتروك. وليس لهذه المجاهدة في عهد السلف تعاليم خاصة، لأنها لا تزيد على العمل بما يرشد إليه الكتاب والسنة من أحكام، ويدعوان إليه من مكارم الأخلاق وسني الآداب[1].

ولقد عنى الإسلام بتصفية النفوس من طبائعها الرديئة، وتخليصها من شهواتها الطاغية، ثم عطف على الأجسام فخلى سبيلها لأن تتمتع من نعيم هذه الحياة وزهرتها باعتدال، فبقدر ما يدرك الإنسان من صفاء النفس وسلامة الضمير وبقدر ما يكون له من السلطان على شهواته فلا تتعدى حدود الاعتدال يصعد في مراقي الفلاح، ويدنو من مقام الكرامة والوجاهة عند الله.

عهد الصحابة:

روي أن فريقاً من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا وقرروا فيما بينهم أن يسردوا الصيام ويعكفوا على العبادة ولا يقربوا النساء والطيب، وأن يرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم فنهاهم في خطبة جامعة، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ

(١) من كتاب «رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر.

مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

كان أصحاب رسول الله ﷺ يجدون في العمل ما استطاعوا، ويزهدون في الدنيا زهد من لا يتناول منها إلا حلالاً طيباً، وزهد من لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم في هذا السبيل يتسابقون ويتفاضلون، وقد اشتهر كثير منهم بالجد في العبادة والبلوغ في الزهد مكانة فضلى، ومن هذه الطائفة أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي رضي الله عنهما.

لقد كانت سيرة الزهاد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومواعظهم: أعمالاً مشروعة خالصة، وأقوالاً رشيدة واضحة.

عهد التابعين:

وفي عهد التابعين أقبلت طائفة من فضلائهم يتحدثون في أحوال النفس من حيث صفاؤها وصلتها بالخالق جل شأنه، وزهدها في زخرف هذه الحياة، واشتدت عنايتهم بالحديث في هذه الآداب، وكانوا يأخذون بها أنفسهم، ويرشدون إليها غيرهم، ويلقبون في ذلك العهد الزهاد والوعاظ.

الحسن البصري:

ومن أشهر هذه الطائفة الحسن البصري، وكان صاحب حديث وفقه وبيان وعلم بالقرآن، فصحبه طوائف من الناس شتى. فمنهم من صحبه ليأخذ القرآن، ومنهم من صحبه ليستفيد منه البلاغة والبيان وعلم القرآن، ومنهم من صحبه ليتلقى عنه الفقه والأحكام، وهو مع هذا يتكلم في محاسبة النفس والمراقبة والإخلاص والمحبة واليقين والشغف بذكر الله.

وكان يعقد للحديث في هذا السبيل مجلساً في منزله لا يشهده إلا طائفة يتوسم فيهم الكفاية لأن يفهموا، والقوة لأن يعملوا. وكان لا يتحدث في هذا المجلس إلا في هذا الباب من العلم. قال أبو سعيد بن الأعرابي: لم يبلغنا أن أحداً ممن تكلم في هذا المذهب (يعني أحوال النفس) ودعا إليها وزاد في بيانها وترتيبها وصفات أهلها، مثل الحسن البصري.

كان هؤلاء الفضلاء يصرفون همهم إلى تزكية النفوس من نقائصها وإسلام القلوب إلى ربها، يشهد بهذا كلمهم الطيب، ومواعظهم الحسنة.

وأخذ بعض الناس في عهد التابعين ينحو نحو الغلو في الزهد، وكان الحسن البصري نفسه ممن يحارب هذا الغلو الذي لا يرتضيه الإسلام ومما نقرؤه في تاريخ هؤلاء أن رجلاً قال: أنا لا آكل الخبيص لأني لا أقوم بشكره، فقال الحسن البصري: هذا رجل أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد!

فزهد الحسن البصري وأمثاله من فضلاء التابعين لا يحيد عن منهج الشريعة يميناً ولا يساراً.

وتخرج في مجلس الحسن البصري وغيره طبقة عالمة زاكية منهم: مالك بن دينار، وحبيب العجمي، وعبد الواحد بن زيد، وبقي هؤلاء الذين يلقبون بالزهاد والوعاظ لا يمتازون عن جمهور الناس إلا بكثرة ما يعملون من صالح، وبشدة ما يحملون من خشية الله والعزة به والاعتماد عليه، وبانصراف هممهم عن التعلق بما في هذه الحياة من شهوات أو حطام.

وفى خلال القرن الثاني صار الزهاد والوعاظ يسمون بالصوفية.

أخذ الزهاد والوعاظ لقب الصوفية، وما برحت طريقتهم قائمة على قواعد الدين ورعاية آدابه، وممن استقاموا من رجال القرن الفضيل بن عياض، وداود الطائي، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم.

وظهر في عهد هؤلاء نفر كانوا يتشبهون بهم على جهالة، ويظهرون للناس بغير ما كانوا يسرون، وهم الذين يقول فيهم الإمام الشافعي:

ودع الـذيـن إذا أتـوك تـنـسـكـوا وإذا خـلـوا فـهـم ذئـاب خـفـاف

وجعل الصوفية يتحدثون عما يرد عليهم من الخواطر وما يجدونه من الأذواق، ويعبرون عن هذه الخواطر والأذواق بكلمات إما مألوفة، وإما غير مألوفة، حتى أصبح التصوف في القرن الثالث مذهباً ذا قواعد واصطلاحات.

التصوف في القرن الثالث:

يصف لنا التاريخ صوفية القرن الثالث، فنرى كثيراً منهم على طريق سلمان الفارسي والحسن البصري، مثل أبي القاسم الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، ويحيى بن معاذ الرازي، وذي النون المصري، وبشر الحافي، وسري السقطي، وأبي يزيد البسطامي.

ونرى بجانبهم قوماً آخرين خلطوا التصوف بشيء من أصول الفلسفة الإشراقية، وشاع يومئذ الغلو في الزهد، وراج ما توهمه بعضهم من أن التوكل نزع اليد من الأسباب جملة، وأخذ بعض المنتمين إلى التصوف في ذلك العهد ينطقون بعبارات خارجة عن حدود الشريعة، كالكلمات التي هي ظاهرة في معنى الحلول والاتحاد مثل ما قال الحلاج (الحسين بن منصور المقتول سنة ٣٠٩) «أنا الحق» وقال: «ما في الجبة إلا الله» ويعبرون عن مثل هذه الأقوال في اصطلاحهم بالشطحات.

ودخل في التصوف من الباطل في ذلك العهد ما يزعمه بعضهم من أن السالك للطريق تسقط عنه أحكام الشريعة من أوامر ونواه، ومن عبارات هؤلاء: «الاشتغال بالأوراد عن المورود انقطاع عن الغاية».

وأنشد أحد شعرائهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ومنهم من يقول: تسقط الأوامر والنواهي عمن شهد الحقيقة، ووصل إلى مقام الفناء فيها. ويقول قائل من هؤلاء: العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر. ويقولون: العارف لا يستقبح قبيحة ولا يستحسن حسنة.

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن هذه الطائفة فقال: الذي يسرق ويزني، أحسن حالاً ممن يزعم هذا!.

قال الغزالي: لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالاً أسقطت عنه الصلاة وأحلت له شرب الخمر وأكل مال السلطان، كما زعم بعض من ادعى

التصوف، فلا شك في وجوب قتله، وإن كان في خلوده في النار نظر، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر، لأن ضرره أكثر! ا. هـ.

وشعر يومئذ بعض المستقيمين من الصوفية بنحو هذا الانحراف وما يماثله من الانسلاخ عن عقائد الدين أو أحكامه العملية فقاوموه بالإنكار والتنبيه على أنه ضلالة وجهالة.

قال الجنيد: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. ويقول: الطريق كلها مسدودة على الخلق إلا المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة:

١- الاقتداء بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال.

٢- أكل الحلال.

٣- إخلاص النية في جميع الأعمال.

وقال أبو عثمان الحيري: أسلم الطرق من الاغترار، طريق السلف ولزوم الشريعة.

وفى ذلك العهد ظهر القول بأن العلوم لا تنال إلا من طريق مجاهدة النفس وقطع العلائق بينها وبين البدن، والإقبال على الله بالكلية علماً دائماً وعملاً مستمراً، حتى تكشف له الغيوب، ويرى الملائكة، ويطلع على أرواح الأنبياء ويسمع كلامهم حتى ينتهي إلى مشاهدة الله جل جلاله.

ونسب أبو بكر بن العربي هذا القول إلى الحارث بن أسد المحاسبي وإلى طائفة أتت بعده من الصوفية.

والحق أن المكلف لا يحتاج في إيمانه الصادق ولا في إقامة الأعمال الصالحة إلى أن تنكشف له الغيوب أو يطلع على العوالم الروحانية فإن ما في عالم الشهادة، وما هدى إليه القرآن المجيد، كافيان في إشراق القلب بالإيمان الساطع، والسير على النهج الموصل إلى السعادة في الدارين. (انتهى)

وقال العلامة الحجوي في «الفكر السامي» ٢/ ٥٧: «والذي يمعن النظر في تاريخ الفقه والتصوف يرى أن الناس في القرن الثالث قد تضلعوا في الفقه واشتغلوا بالكماليات وهي التصوف كما هو شأن الأشياء التي تصل إلى عنفوان العمر الطبيعي، كالدول التي تدخل في طور الرفه واتساع الحال».

التصوف في القرن الرابع:

وكذلك استمر حال المنتمين إلى مذهب التصوف في القرن الرابع فما بعده. فمنهم المستقيمون على السنة ومنهم الظاهرون في ثوب الزهد وهم يراؤون ويبتدعون. ثم إن الصوفية أخذوا يتحدثون بما يعرض لهم أثناء المجاهدة من أحوال وخواطر، وبما يتنقلون فيه من مقامات، وصاروا يعبرون عن تلك المعاني بألفاظ جرت مجرى المصطلحات العلمية.

ومن هذه الناحية وجد بعض الجاهلين أو المضلين منفذاً لأن يضيفوا إلى التصوف معاني باطلة، وشروحاً لتلك المصطلحات غير صالحة كالكلمات الظاهرة في الحلول والاتحاد.

وحصل مما يتحدث به الصوفية من إلهام وأحوال ومنازل ومعان ومصطلحات، مضافة إلى آداب القوم من نحو الزهد والورع والشكر والذكر والتوكل والتواضع والعزة، وأصبح مجموع ذلك علماً مستقلاً، يسمى «علم التصوف».

أشهر أعلام التصوف:

«اشتهر عدد كبير من علماء الأمة بالتصوف، وكانوا على هدى واستقامة من أمثال أبي سعيد الحسن البصري، المتوفى سنة ١١٠، وأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي، المتوفى سنة ١١٦، وأبي سليمان داود بن نصير الطائي، المتوفى سنة ١٦٥، وأبي علي الفضيل بن عياض الخراساني، المتوفى بمكة سنة ١٨٧، وأبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، المتوفى ببغداد سنة ٢٠١.

وأمثال أبي نصر بشر بن الحارث الحافي المروزي، ثم البغدادي، المتوفى سنة ٢٢٧، وأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، المتوفى سنة ٢٤٣، وأبي الفيض ذي النون المصري، المتوفى سنة ٢٤٥، وأبي الحسن سري بن المغلس السقطي، المتوفى سنة ٢٥٧، وأبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨، وأبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز البغدادي، المتوفى سنة ٢٧٧، وأبي محمد سهل بن عبدالله التستري، المتوفى سنة ٢٨٣، وأبي القاسم الجنيد البغدادي شيخ الطائفة المقدم، المتوفى سنة ٢٩٧.

وأمثال أبي محمد رويم بن أحمد البغدادي، المتوفى سنة ٣٠٣، وأبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، المتوفى سنة ٣٠٩، وأبي محمد أحمد بن محمد الجريري، المتوفى سنة ٣١١، وأبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري صاحب «الرسالة» المشهورة، المتوفى سنة ٤٦٥، وحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، صاحب «الإحياء» المتوفى ٥٠٥.

وأمثال أبي محمد عبدالقادر الجيلاني، المتوفى سنة ٥٦١، وأبي حفص عمر بن محمد السهروردي، صاحب «عوارف المعارف» المتوفى سنة ٦٣٢، والإمام أبي الحسن الشاذلي علي بن عبدالله، المتوفى سنة ٦٥٦، وأبي العباس أحمد بن عمر المرسي، المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦، وأبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الإسكندري، المتوفى سنة ٧٠٩، والإمام ابن القيم، المتوفى سنة ٧٥١.

وأمثال السيد عبدالله بن علوي الحداد الحضرمي، المتوفى بحضرموت سنة ١١٣٢، وشمس الدين الإمام محمد بن سالم الحنفي، المتوفى بمصر سنة ١١٨١، وأبي البركات أحمد الدردير العدوي المالكي، المتوفى بمصر سنة ١٢٠١، وغيرهم ممن لا يحصيهم العد، من المتقدمين والمتأخرين من أعلام أئمة التصوف العارفين، في مختلف العصور رضي الله عنهم أجمعين.

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلام جيد رصين، وحكم شافية، ومؤلفات قيمة في الأصول والفروع، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتها، وأخطارها وعلاجها، وفي الآداب والأذواق والمواجيد، والأحوال النفسية والمجاهدات، على تشدد من بعضهم في السلوك وتفاوت حسب تفاوت أقدارهم في العلم والذوق والعرفان.

وجميعهم إنما يصدرون في ذلك عن كتاب الله وهدي النبوة، وما روي عن السلف من أئمة الإسلام من أقوال وأحوال وأعمال»[1].

وهذه تراجم موجزة لجملة من أشهر من تدور أسماؤهم في كتب التصوف، سواء أكانوا ممن اتفق الناس على صلاحهم أم ممن وقع الطعن فيهم، واخترنا أن نوردهم على حسب ترتيب وفياتهم. ونذكر أسماءهم مع التعرض لبعض النواحى من حياتهم، أو شيء من أقوالهم[2].

أويس القرني:

أويس بن عامر القرني: معدود من سادات التابعين، روى له مسلم أشياء من كلامه، وقد شهد صفين مع الإمام علي، وقتل يومئذ.

وروى عمر مرفوعاً: «**إنَّ خير التابعين رجل يقال له: أويس وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم**»[3]. وكان عمر يلتمس منه الدعاء.

أبو مسلم الخراساني:

أبو مسلم عبدالله بن ثوب، وقيل اسمه يعقوب بن عوف، يروي عن عمر بن الخطاب ومعاذ قال مالك بن دينار: أبو مسلم حكيم هذه الأمة، توفي سنة ٦٢هـ.

---

(١) مقدمة رسالة المسترشدين لمخلوف ص ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) والتراجم التي ذكرتها هنا مختصرة من كتابي «الفكر السامي» و «رسائل الإصلاح».
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٤٢).

الحسن البصري:

الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري: معدود من سادات التابعين، وهو الذي قال لابن هبيرة عندما سأله عن الأمر يأتيه من يزيد بن معاوية أفينفذه ويقلده ما تقلده من ذلك: «يابن هبيرة! خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله». ومن كلامه: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت» توفي سنة ١١٠هـ.

مالك بن دينار:

مالك بن دينار: روى عن أنس وسعيد بن جبير وعطاء، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، يكتب المصاحف بالأجرة. توفي سنة ١٣٠هـ.

رابعة العدوية:

رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك: توفيت سنة ١٣٥ ومن كلامها «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم». وهي القائلة: استغفارنا يحتاج إلى استغفار. والقائلة: إلهي لا تحرق بالنار قلباً يحبّك. توفيت سنة (١٣٥) أو (١٨٥).

إبراهيم بن أدهم:

إبراهيم بن أدهم بن منصور: صاحب سفيان الثوري، وجمع بين الزهد ورواية الحديث، ويروي عنه الثوري والأوزاعي. وكان لا يأكل إلا من عمل يده: كالحصاد، وحراسة البساتين. توفي سنة ١٦١ هـ.

ومن كلامه: «لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف»، ومن دعائه: «اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك».

داود الطائي:

داود بن نصير أبو سليمان الطائي الكوفي: درس الفقه، وكان يختلف

إلى الإمام أبي حنيفة، ثم اختار العزلة وتخلى للعبادة. توفي سنة ١٦٥.

ومن كلامه: «صم عن الدنيا، واجعل إفطارك فيها الموت، وفر من الناس فرارك من السبع، وصاحب أهل التقوى إن صحبت، فإنهم أخف مؤونة وأحسن معونة، ولا تدع الجماعة».

الفضيل بن عياض:

الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، ولد بخراسان، وقدم الكوفة وسمع بها الحديث، ثم انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن توفي سنة ١٨٧.

ومن كلامه: «ترك العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشرك» وقال: «لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام صالح لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد».

معروف الكرخي:

معروف بن فيروز الكرخي: كان نصرانياً، فأسلم على يد علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، ولهذا عُدَّ من مواليه، وهو أستاذ السري السقطي، وهو القائل: «التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس» توفي سنة ٢٠٠ أو ٢٠١.

أبو سليمان الداراني:

عبدالرحمن بن أحمد بن عطية الداراني، توفي سنة ٢٠٥. ومن كلامه: «تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة».

بشر الحافي:

بشر بن الحارث بن عبدالرحمن المعروف بالحافي. قال الحريري: ما أخرجت بغداد أتم عقلاً، ولا أحفظ للسان من بشر، روى بشر عن مالك والفضيل بن عياض. وتوفي سنة ٢٢٧ ومن كلامه «من طلب الدنيا فليتهيأ

للذل، وكان يقول لأصحاب الحديث أدوا زكاة هذا الحديث، قالوا: وما زكاته؟ قال: اعملوا من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث».

المحاسبي:

الحارث بن أسد المحاسبي: روى عن الإمام الجنيد وغيره، وله تصانيف في الرد على المعتزلة والرافضة وغيرهم. توفي سنة ٢٤٣، ومن كلامه: «فقدنا ثلاثة أشياء: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء». وألف في التصوف التواليف العجيبة والكتب المشهورة، كالرعاية، التي نَسَجَ على منوالها الغزالي وغيره.

ذو النون المصري:

ثوبان بن إبراهيم، أبو الفيض المصري المعروف بذي النون: أوحد أهل زمانه علماً وورعاً وأدباً وحالاً، شيخ الديار المصرية وواعظهم، وهو عبد نوبي من مصر، وله مناقب ومقالات، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء، معدود فيمن روى الموطأ عن مالك بن أنس، وسعى به لدى المتوكل فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه فرق لوعظه ورده مكرماً، وعنه أخذ سهل بن عبدالله التستري. توفي سنة ٢٤٥.

أبو تراب النقشبي :

عسكر بن الحصين النقشبي ، شيخ عصره بلا مدافعة، الذي روى كثيراً من الحديث والفقه، ثم تزهَّد وساح، وله مقامات وكرامات وأحوال ظاهرة. توفي سنة ٢٤٥.

سري السقطي:

سري بن المغلس السقطي: خال الإمام الجنيد وأستاذه، توفي سنة ٢٥٥، ومن كلامه: «المتصوف اسم لثلاث معان: هو الذي لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب،

ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله تعالى».

يحيى بن معاذ:

أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي: توفي بنيسابور سنة ٢٥٨. ومن كلامه: «من خان الله في السر هتكه في العلانية» وقال: «عمل كالسراب وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرملِ والتراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب! هيهات! أنت سكران بغير شراب، ما أكملك لو بادرت أملك! ما أجلك لو بادرت أجلك! ما أقواك لو خالفت هواك!».

أبو يزيد البسطامي:

طيفور بن عيسى البسطامي: توفي سنة ٢٦١ أو ٢٦٤. ومن كلامه: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والشريعة؟».

سهل التستري:

سهل بن عبدالله التستري البصري القائل: أصولنا التمسُّك بالقرآن والاقتداء بالسنة وأكل الحلال، وكف الأذى والتوبة وأداء الحقوق. وهو القائل: «إنما سمي الزنديق زنديقاً لأنه وزن دق الكلام بمخبول عقله». توفي سنة ٢٨٣.

أبو سعيد الخراز:

أحمد بن عيسى البغدادي الخراز، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء. توفي سنة ٢٨٦.

حمدون القصار:

شيخ الملامتية بنيسابور، وعنه اشتهر مذهبهم، توفي سنة ٢٩١.

أبو القاسم الجنيد:

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد، شيخ الطريقة وإمامها، أصله من نهاوند. مولده ومنشؤه العراق، تفقه على أبي ثور، وقيل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري، وصحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهما، وكان ورده كل يوم ثلاثين ألف تسبيحة وثلاثمائة ركعة، وما نزع ثيابه للفراش أربعين سنة، ويأكل مرة في الأسبوع قيل له يوماً: ممن استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي ربي ثلاثين سنة، وهو القائل: (العارف من نطق عن سرك وأنت ساكت)، وكان يقول: (مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنة)، ورئي يوماً في يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة فقال: طريق وصلت بها إلى ربي لا أفارقها.

قال السبكي في «جمع الجوامع» ونرى أن طريق الجنيد سيد الصوفية علماً وعملاً وصحبة طريق مقوم، فإنه خال من البدع، دائر على التسليم والتفويض والتبرؤ من النفس.

ومن كلامه: (الطريق إلى الله مسدود على الخلق إلا على المقتفين آثار الرسول).

ومن كلامه: (أقرب ما تقرب به المتقربون عمل خفي بميزان وفي). وقد رماهم في جملة الصوفية بالزندقة عند خليفة السلطان حتى أمر بضرب أعناقهم فأمسكوا إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب أبي ثور شيخه، وبسط لهم النطع، فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري للسياف، فقال له: لم تقدمت؟ فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة فبهت وأنهى الخبر للخليفة، فردهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية، فأجابه عنها، ثم قال: وبعد فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا لله، واذا نطقوا نطقوا بالله... إلخ فبكى القاضي، وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم، فخلي سبيلهم. توفي الجنيد سنة ٢٩٧[1].

---

(١) الفكر السامي للحجوي ص ٥٤ ـ ٥٥.

الدقاق:

أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق، من أقران الجنيد وأكابر مشايخ مصر. ومن كلامه: «كل حقيقة لا تتبع الشريعة فهي كفر» وأراد بالحقيقة ما يسمى «الخاطر».

أبو طالب المكي:

أبو طالب محمد بن عطية الحارثي المكي، سكن مكة فنسب إليها، وقدم بغداد فوعظ الناس، ونسبت إليه عبارات ينكرها الشرع، فبدعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام، وهو صاحب كتاب «قوت القلوب». توفي سنة ٣٨٩.

أبو القاسم القشيري:

أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري: تلقى العلوم عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفرائيني وأبي علي الدقاق، وهو صاحب الرسالة القشيرية في رجال الطريق. توفي سنة ٤٦٥.

ابن الفارض:

عمر بن علي بن المرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار، يقول الشعر الظاهر في الغزل على أنه ينحو به نحو معان صوفية، وديوانه معروف، وقد أنكر عليه جماعة من علماء الشريعة هذا المسلك الذي لا يعرف في عهد السلف، وحكى المقريزي أن الشيخ محيي الدين بعث إلى ابن الفارض يستأذنه في شرح التائية، فقال له: كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها. توفي سنة ٦٣٢.

عبدالقادر الجيلاني:

سيد الوعاظ أبي محمد عبدالقادر بن أبي صالح بن ابن جنكي دوست الجيلاني الحنبلي شيخ العراق، قال فيه عز الدين بن عبدالسلام: ما نعرف

ما نعرف أحداً كراماته متواترة مثله توفي سنة ٥٦١. ومن كلام الجيلاني هذا: «كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والولي من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون موافقاً له». نقله ابن تيمية في رسالته إلى نصر المنبجي، وجميع الطرق الموجودة في وقتنا هذا ترجع إليه أو إلى الشيخ الإمام أبي الحسن علي الشاذلي المغربي ثم المصري الإسكندري الضرير الزاهد الكبير المقدار تلميذ الإمام ابن مشيش وغيره، صاحب الأحزاب العجيبة في التوحيد والفناء وذو الكرامات والفضائل العديدة المتوفى سنة ٦٥٦، أو إلى الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند محمد بن محمد البخاري الذي ترجع إليه السلسلة النقشبندية المنتشرة بالمشرق والروم وما وراء النهر المتوفى سنة ١٩٧[1].

محيي الدين بن عربي:

قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية (من بلاد الأندلس). وتلقى العلم، ومال إلى الأدب، وتولى الكتابة لبعض ولاة الأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجاً فأدى الفريضة ولم يعد إلى الأندلس، وأخذ الحديث عن شيوخ، منهم أبو طاهر السلفي، وأبو الحسن بن نصر، وممن أجازه ابن عساكر وأبو الفرج بن الجوزي، ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدة، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم، وصحب جماعة من الصوفية، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦ أو سنة ٦٥٨.

وكان الشيخ على مذهب الظاهرية في العبادات، وقد اختلف الناس فيه، فمنهم من يشهد له بالمنزلة الكبرى في الصلاح والولاية، ومنهم من ينسبه إلى الإلحاد، ذلك أن بعض مؤلفاته تشتمل على عبارات إذا عرضت على أصول الشريعة لم تلتق معها بوجه من وجود الدلالات المعروفة في العربية، وقد سلك مريدوه بهذه العبارات مسلك التأويل ولو على وجوه فيها

---

(١) الفكر السامي ص ٥٩.

غموض، ولم ير آخرون للشيخ عذراً في هذا المسلك، فحكموا عليه بما يجب أن يحكموا به على غيره ممن لم ينسب إلى صلاح، ورأي الإمام العراقي في هذا، أنه لا يحكم على ابن العربي بشيء، ولكنه يضع يده على العبارات المنكرة في الفصوص أو الفتوحات ويقول: هذا كفر، وهؤلاء لا يؤولون المتشابه إلا إذا ورد في كلام الشارع. ولكن أجود الكلام هو قول العلماء بتحريف هذه الكتب، ولهذا يمنع العامة من قراءتها فلا قدرة لهم على التأويل فيحصل لهم ضرر من ذلك.

أبو الحسن الشاذلي:

قال الزرقاني في شرح المواهب ٥: ٢٩٧: «الشيخ أبو الحسن الشاذلي، الشريف علي بن عبدالله بن عبدالجبار العلوي الهاشمي من ذرية محمد بن الحنفية. قال ابن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله منه. وقال ابن عطاء الله: نشأ بالمغرب الأقصى ومبدأ ظهوره بشاذلة، وله السباحات الكثيرة والمنازلات الجليلة والعلوم الكثيرة، لم يدخل في طريق الله حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة، ذو علوم جمة، جاء في هذا الطريق بالعجب العجاب، وشرح من علم الحقيقة بالإطناب، ووسَّع للسالكين الركاب، وكان العز بن عبدالسلام يحضر مجلسه، ويسمع كلامه. مات سنة ٦٥٦ هـ». انتهى.

أحمد زروق:

أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الشهير بزروق، قرأ الفقه قراءة بحث وتحقيق، ودرس الحديث والتوحيد والتصوف، ومن شيوخه الشيخ عبدالرحمن الثعالبي، والشيخ السنوسي، وله مؤلفات في التصوف، منها كتاب القواعد في التصوف، وهو من رجال التصوف القائم على السنة، الخالص من البدعة، توفي بتكرين من عمل طرابلس الغرب سنة ٨٩٩ هـ

● ● ●

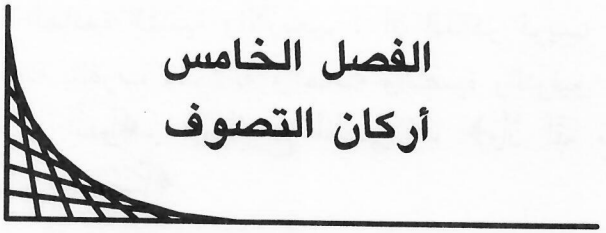

يقوم التصوف على ركنين أساسيين: أولهما الذكر، وثانيهما الشيخ المرشد.

أولا ـ الذكر

حقيقة الذكر: قال الكلاباذي ـ رحمه الله تعالى ـ: «حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] يعني إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله.

وقال النبي ﷺ: «سبق المفردون، قيل: ومن المفردون يا رسول الله فقال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»، والمفرد: الذي ليس له معه غيره. وقال بعضهم: الذكر طرد الغفلة. فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر وإن سكت.

فوائد الذكر:

ففي الذكر من الفوائد والخصوصيات ما لا يحصى، وقد عد ابن القيم في (الوابل الصيب) للذكر أكثر من مائة فائدة ذكر منها في الفائدة العاشرة: (أنه يورث الذاكر المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله تعالى كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت..) ا.هـ.

كما ذكر في الفائدة الثانية عشرة والثالثة عشرة: أنه يورث القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه، ويفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد معرفة.

وذكر في الفائدة الثانية والأربعين: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وللذاكر مع هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**» وفي أثر آخر: «**أهلي أهل ذكري وأهل مجالستي**..» إلخ.

قال: والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة، وإنما تعلم بالذوق، وهي مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود.. ا.هـ.

قوة الذكر وبركته عند الإمام ابن تيمية

وقال الشيخ ابن القيم في: «الوابل الصيب» ص ١٠٨، وهو يتحدث عن فوائد الذكر لله تعالى ويُعددها: «الحادية والستون من فوائد الذكر: أنه يعطي الذاكر قُوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يُظن فعلُه بدونه.

وقد شاهدتُ من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية، في سننه، وكلامه، وإقدامه، وكتابته: أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخُ في جُمُعة أو أكثر، وقد شاهد العسكرُ من قوته في الحرب أمراً عظيماً».

وقال فيه أيضاً في ص ٥٨-٥٩: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى رُوحه يقول: الذكرُ للقلب مثلُ الماء للسمك، فكيف يكون حالُ السمك إذا فارق الماء؟.

وحضرته مرةً: صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي - أى فطوري - ولم أتغد، ولو لم أتغد هذا الغداء سقطت قُوتي، أو كلاماً قريباً من هذا وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلاّ بنية إجمام نفسي وإراحتها، لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه».

فالذكر هو الركن المكين الذي يأوون إليه في سلوكهم، وهو أساس المقامات كلها والأحوال والأذواق والمواجيد، والزهد والإخلاص والمراقبة والمشاهدة والمعرفة والولاية والكرامة والخصوصية، وهو الذي يشعل جمرة الحب في القلوب ويوقد نار المحبة، ويولد حرارة الاتباع، والصحبة أساس فيه، وبالصحبة يتعلم استثمار الذكر وكيفية السير به إلى المذكور سبحانه وتعالى.

قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات..».

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

شمول ذكر الله تعالى لأنواع كثيرة:

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٣: ٢٣: «لا يتعين للذكر شيء مخصوص لا يجزىء غيره، بل كل ما صدق عليه ذكر أجزأ، ويدخل في ذكر الله تعالى: تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبوي الشريف، والاشتغال بالعلم الشرعي».

أنواع الذكر عند رسول الله ﷺ:

قال الشيخ ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه «زاد المعاد» في فصل: في هديه صلى الله عليه وسلم في الذكر) ٢: ٣٧.

«وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم أكمل الخلق ذكراً لله عزّ وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله تعالى. وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده: ذكراً منه لله تعالى. وثناؤه عليه بآلائه وتمجيدُه وحمدُه وتسبيحه: ذكراً منه لله تعالى. وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته: ذكراً منه لله تعالى. وكان سكوته وصمته: ذكراً منه لله تعالى بقلبه.

فكان ذاكراً لله تعالى في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفى مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته».

انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

مجالس الذكر هي مجالس العلم والفقه:

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في «شرح حديث العلم» ص١٧-٢١: وفى الحديث المعروف عن النبى صلّى الله عليه وسلّم: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»**.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث قال: أما إني لا أعني القصاص، ولكن حلق الفقه.

ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُكب في حلق الذكر.

ويعني بحلق الذكر هنا: حلق العلم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال عطاء الخراساني: في مجالس الذكر مجالسُ الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحجُ، وأشباه هذا.

وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون فيها العلم، ومعهم فتى شابّ فقال لهم: سبحان الله والحمد لله، فغضب أبو السوار وقال: ويحك في أي شيء كنا إذاً؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» ص ٣١٦-٣١٧.

وروى الدارمي في «سننه» في (باب فضل العلم والعالم) ١: ٩٥ عن وهب بن منبه قال: مجلس يتنازع فيه العلم أحب إلي من قدر صلاة، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره.

ومن مجالس الذكر أيضاً: مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير القرآن وتروى فيها سنة رسول الله ﷺ، ويعلّم فيها الفقه في الدين.

ومجالسه أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير، لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض[1].

الذكر وسيلة لا غاية:

والذكر عند الصوفية وسيلة لا غاية، وسيلة إلى الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى، ولا يلتفتون إلى العدد في الذكر إذا تحقق الذاكر بالحضور، لأن العدد وسيلة عندهم إلى هذه الغاية الشريفة.

والذكر بعدد معين ليس غاية، بل وسيلة ليعتاد قلب الذاكر على الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى.

شروط ذكر اللسان:

والذكر جائز بكل اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، وأسماء الله سبحانه توقيفية، فلا يجوز لنا مجاوزتها إلى غيرها مما لم يقف عليها بنص

---

(١) من تعليقات العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ على «رسالة المسترشدين» ص ١٠٩ ـ ١١١.

صحيح، ويجوز جهراً وسراً، وانفراداً واجتماعاً، بشرط أن لا يكون في رفع الصوت أذى للآخرين وتشويشاً عليهم. وينبغي عدم اتباع بعض الأوراد المطبوعة اليوم والتي تحتوي أسماء أعجمية سريانية أو غيرها لعدم معرفة معناه للذاكر.

الذكر المشروع والذكر الممنوع:

«هذا وذكر الله تعالى باللسان، سراً وجهراً بانفراد أو جماعة مشروع بشروطه وآدابه، ولكن الذكر الذي يقوم به بعضُ الناس، بحركات موزونة مرتبة، وترنيمات متصنعة بأصوات مُطربة، وقفز ووثب، ونط وجذب، وانحناء للأمام ورفع، والتفات عنيف ودفع، ودوران بالحلقات، وضرب للأقدام على إيقاع الكف والنغمات، فالفطرة السليمة تنبو عنه، والقلبُ الخاشعُ يتبرأ منه، لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحُه، كما قاله الإمام التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه وأشدُّ من هذا نُكراً: أنهم يذكرون اسم (الله) سبحانه، في أول دوران حلقاتهم بلفظ هادئ مفهوم، ثم يُسرعون ويُسرعون بالذكر والخلع والوثب، حتى لا يُفهم عنهم ما يقولون! فما هي إلا أصوات تنخفض وترتفع، وأنفاس مبهورة تشتد وتندفع، وهمهمة تتردد، وحركات تتجدد، ويعُدون ذلك ذكراً لله! فإنا لله ـ من قلة الأدب مع الله ـ وإنا إليه راجعون.

جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فسأله عن قراءة القرآن بالتلحين، فمنعه وقال له: لا يجوز، فقال الرجل: ولم لا يجوز؟ فقال له الإمام أحمد: ما اسمُك؟ قال: محمد، قال له: أيعجبك أن يقال لك: يامُوحامد! ذكره الإمام ابن الهمام في «فتح القدير» ١: ١٧٣ في (باب الأذان).

فالذكر لله تعالى يقومُ على تعظيم المذكور سبحانه، وعلى توقير اسمه وإجلاله، وإكباره وإعظامه، ولا يهولنك كثرةُ الفاعلين لهذا! فهم من العوام في فقه الدين، والأدب مع رب العالمين. فانظر إلى أحدهم كيف يكره (التلحين) في اسمه، ولا يكرهه في اسم الله تعالى وكلامه سبحانه!!.

وما عُهد فعلُه من السلف في القرون المشهود لها بالخير. وما يقال في تعليل تلك الحركات والوثبات أنها لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى، فهو مردود بما عُرف من حال السلف، فقد كانوا أحرص منا على حفظ خواطرهم وقلوبهم وجعلها مع الله ولم يكونوا يفعلونه، بل ذُكر لهم فأنكروه أشد الإنكار، وهم الأئمة المقتدى بهم، والمرجوعُ إليهم.

وإليك جملة يسيرة من كلامهم في ذلك، مما نقله عنهم الأئمة الأعلام:

الحافظ ابن حجر ينكر الذكر الممنوع:

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري» ٢:٣٦٨ «قال القرطبي ـ هو المحدّث أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي صاحب التفسير ـ قولُها: ليستا بمُغنيتين، أي ليستا ممن يعرفُ الغناء كما يعرفه المغنيات المعروفات بذلك. وهذا من عائشة رضي الله عنها تحرز عن الغناء المعتاد عند العرب المشتهرين به، وهو الذي يُحركُ الساكن، ويبعثُ الكامن. وهذا النوعُ إذا كان في شعر فيه وصفُ محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة: لا يُختلفُ في تحريمه.

قال: وأما ما ابتدعتهُ الصوفية في ذلك، فمن قبيل ما لا يُختلفُ في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن يُنسبُ إلى الخير، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلاتُ المجانين والصبيان، حتى رقصُوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقحُ بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القُرب وصالح الأعمال، وأن ذلك يُثمرُ سني الأحوال. وهذا على التحقيق: من آثار الزندقة، وقول أهل المخرقة، والله المستعان». انتهى.

قال الحافظ ابن حجر عقبة: «وينبغي أن يُعكس مُرادُهم، ويُقرأ: (يثمر سيىء الأحوال عوض سني الأحوال)». انتهى.

وقال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام مالك

رضي الله عنه في «ترتيب المدارك» ٢: ٥٤ «قال التنيسي: كنا عند مالك، وأصحابهُ حوله، فقال رجل من أهل نصيبين: عندنا قوم يقال لهم: الضوفية، يأكلون كثيراً، ثم يأخذون في القصائد، ثم يقومون فيرقُصون؟ فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا، قال: أمجانين هم؟ قال: لا، هم قوم مشايخ، وغيرُ ذلك، عقلاء، فقال مالك: ما سمعتُ أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا!

فقال له الرجل: بل يأكلون، ثم يقومون ويرقصون دوائب، ويلطم بعضهم رأسه، وبعضُهم وجهه، فضحك مالك ثم قام فدخل منزله. فقال أصحابُ مالك للرجل: لقد كنت يا هذا شؤماً على صاحبنا، لقد جالسناه نيّفاً وثلاثين سنة، ما رأيناه ضحك إلا في هذا اليوم!» انتهى.

إنكار المفسر القرطبي الذكر الممنوع:

وقال القرطبي المفسر الصوفي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ٧: ٣٦٥، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. قال رحمه الله تعالى: «وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره، وذلك لقوة إيمانهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه.

ونظير هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. فهذا يرجعُ إلى كمال المعرفة، وثقة القلب. والوجلُ: الفزعُ من عذاب الله، فلا تناقُض.

وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. أي تسكُنُ نفوسُهم من حيث اليقين إلى الله، وإن كانوا يخافون الله.

فهذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله

جُهال العوام والمبتدعة الطغام، من الزعيق والزئير - أي الصياح الشديد - ومن النهاق الذي يشبهُ نُهاق الحمير فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم، ولا على طريقتهم. فمن كان مستناً فليستن بهم. ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون.

وروى مسلم عن أنس بن مالك، أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه- أي أكثروا عليه - في المسألة فخرج ذات يوم، فصعد المنبر فقال: **«سلُوني، لا تسألوني عن شئ إلا بينته لكم ما دُمتُ في مقامي هذا»**. فلما سمع ذلك القوم أرموا - أي أمسكوا - ورهبُوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفتُ يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي! وذكر الحديث.

وروى الترمذى وصححه عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زعقنا، ولا رقصنا، ولا زفنا- أي ضربنا الأرض بأرجلنا كما يفعل الراقص - ولا قُمنا». انتهى.

بيان الإمام الشاطبي لمنكرات الذكر الممنوع:

وقد وقع السؤال قديماً في القرن الثامن، عن هذه المسألة بالذات: (مسألة الذكر الجهري مع التحلق من الذاكرين، وسماع الإنشاد الملحن، والقفز والدوران المقنن)، فذكر السؤال والجواب: الإمامُ الفقيهُ الأصولي،

المحدث المفسر الصوفي المحقق البصير الذكي: أبو إسحاق الشاطبى المتقدم ذكره رحمه الله تعالى، في كتابه العظيم: «الاعتصام» في أكثر من عشرين صفحة ١: ٢٦٤-٢٨٥، في (الباب الرابع في مأخذ أهل البدع بالاستدلال)، وأشبعها بحثاً ودرساً، وكشف ما فيها من محظور بالدليل والتعليل.

«فليت أولئك الذاكرين - وهم يقولون: إن هذه الحركات الموزونة... مباحة أو لاتخرج عن المباح- فليتهم إن لم يخضعوا لأقوال الأئمة الناهية المحرمة لتلك الحركات... اعتبروا أقوالهم في النهي عنها والتحريم لها: تقوم بها شُبهة في حل فعلها والتلبس بها، فتركوها تنزهاً وابتعاداً عما قال العلماء فيها حرام، فالصوفي كما عرفوه: من يتوقى الشبُهات، ويترُكُ بعض المباحات خشية الوقوع في المكروهات، فضلاً عن المحرمات، والله الهادي لمن استهداه[1].

تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى:

ويشترط أيضاً في الجهر أن لا يكون تحريف في أسماء الله الحسنى، كما يشترط ألا ترافقه حركات جماعية منتظمة تشبه حركات الرقاصين كما سبق بيانه.

قال العلامة الشيخ محمد الحامد: «والذي نراه من بعض متصوفة عصرنا من الحركات الزائدة حال الذكر، إن كانت من وجد صحيح وارد قوي، أفقد صاحبه التماسك حتى غدت حركاته كحركات المرتعش، فلا إثم عليه ولا لوم ولا محذور، وإنه في حال غالبة، وما لم يكن كذلك، فإن لم تشبه حركاته حركات المخنثين فلا، أيضاً. أما إن أشبهتها وكانت حركات جماعية بخفض ورفع على مقدار معلوم، لا يزيد أحدهم ولا ينقص عن الآخرين شيئا ولو يسيراً، وكان شبيهاً بالرقص، فإن الشرع يمنع من هذا

---

(١) تعليقات العلامة الشيخ عبدالفتاح أبوغدة - رحمه الله تعالى - على رسالة المسترشدين ص ١١٣ - ١١٦.

ويلزم الوقوف عند الأدب الشرعي الإسلامي، والذكر المحرف ممنوع، والواجب النطق باسم الله الكريم كما أنزله إلينا دون تغيير، والإنشاد مسموح فيه إن لم يكن حاوياً معاني غير صحيحة كالقول بالحلول وما إليه... ا.هـ.

وقال أيضا: «إن الغيرة على اسم الله المجيد، تحمل صاحبها على النصح بالتزام تصحيح حروفه والنطق به تاماً كاملاً، فإنه أكرم الأسماء وأمجدها. وإن المرء ليغضب إذا نودي باسمه الشخصي محرفاً، فكيف باسم الله المجيد! وهو سبحانه أحب إلى المؤمن من نفسه، ومن كان كذلك ذاق حلاوة الإيمان على ما جاء في الحديث النبوي الشريف.

وأما الذكر بلفظ «آه» طياً لما في القلب من اسم «الله» وحبساً للنفس بالهمزة منه، ثم تصريفاً له بالهاء الصاعدة من القلب للتفريج عن قلوب المنتهين، ولتحريك قلوب المبتدئين، وللاستعانة على سرعة الاستحضار، فأمر متوقف على ورود الشرع بأن لفظ «آه» من أسمائه تعالى، التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل، نعم ينسب إلى بعض الصوفية أنهم يثبتونه اسماً له تعالى، وليتهم بينوا دليل هذه التسمية من دليل سمعي - كتاب أو سنة - فإن الأمر من حيث هو متوقف عليهما. وبعد: فما الذي يضر إخواننا الذاكرين لله تعالى أن يدعوا ما فيه شبهة، إلى ما ليس فيه شبهة وقد قال فقهاؤنا رضي الله تعالى عنهم: إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أو سنة، فتركه لازم.. ا.هـ. وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكام لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية، على احترامنا لهم.

وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه سيدنا أمير المؤمنين الحسن ابن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنهما وكرم وجهيهما، عن سيدنا جده المصطفى عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أنه قال: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. هذه النصيحة أملاها علي النصح للإخوة في الدين، والله ولي المؤمنين. ا.هـ»[1].

---

(١) من كتاب «العلامة المجاهد محمد الحامد» للأستاذ عبدالحميد طهماز.

وقال الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في تعليقه على «رسالة المسترشدين» ص ١١٦:

بقي شيء آخر أرى التنبيه عليه، وهو شائع اليوم في كثير من حلق الذكر في زمننا! وذلك أنهم يقولون: الله الله الله..، ويكررونها هكذا، فتكون كلمة الجلالة في أول ذكرهم مفهومة، ثم يسرعون بالنطق بها سرعة بالغة متلاحقة، ثم يسرعون بها جداً، حتى تتداخل اللفظة في اللفظة مع اقتطاع بعض حروفها، فتصير كلمة الجلالة المعظّمة صوتاً مبهماً، يتردد في الفم بسرعة قصوى، لا يفهم منه شيء فهو ذكر محظور، فإنا لله وإنا إليه راجعون، من هؤلاء الذاكرين لله!.

ورحم الله تعالى الإمام أبا عبدالله بن الطوبي الصقلي، القائل: -

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاءك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خائفا لله ذا ندم ... على ذنوبك طول الدهر محزونا[1]

● ● ●

(١) رسالة المسترشدين ص ١١٦.

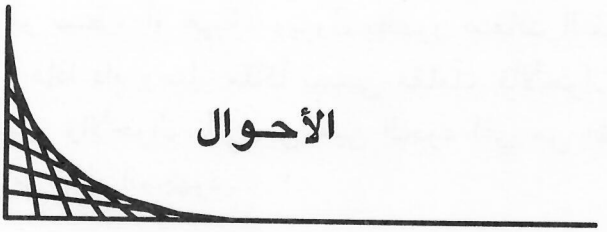

الأحوال

الأحوال من ثمرات الاستغراق في ذكر الله سبحانه وتعالى، يخلقها الله سبحانه وتعالى في قلوب الذاكرين، وسميت أحوالاً لأنها تتحول ولا تدوم، وقد تسمى وجداً لوجودها في القلب، وإذا قويت قد تفيض عن القلب، فتظهر على الجوارح حركات اضطرارية أو بكاءً أو صراخا. وأكثر ما تظهر على جوارح المبتدئين، أما المتمكنون فإنهم يصرعون أحوالهم ويمنعونها من الظهور.

قال الكلاباذي في «التعرف»: التواجد ظهور ما يجده في باطنه على ظاهره، ومن قوي تمكن فسكن. قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالتصوف حال أكثر منه قالاً، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق ما ذاقوه، إن شاء الله تعالى له ذلك، ولا يظهر أصحاب الأحوال أحوالهم، إلا عند الاضطرار الشديد، الذي يفقد معه التماسك والتثبت، على أن الإكثار من الصلاة والسلام على حضرة سيدنا رسول الله ﷺ له أثره في تهدئة الحال، لذلك التصوف سلوك وعمل وليس مصطلحات وشطحات.

التمكن في الحال يوصل إلى المقام

وإذا جاهد صاحب الحال نفسه وقاومها، فقد يتمكن من حاله ويملكه، وعند ذلك يدوم له حاله، ويسمى في هذه الحالة مقاماً.

قال الجرجاني في كتاب (التعريف): «الحال عند أهل الحق، معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب: من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أولاً، فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود (أي من الله تعالى)، والمقامات تحصل من بذل المجهود...».

الأحوال عند الصحابة.

وهذا يفسر لنا لِمَ لمْ يكن أصحاب الرسول ﷺ مصابين بالأحوال التي أصابت من بعدهم، فالقوم رضي الله عنهم جاهدوا أحوالهم وتمكنوا منها، فصرعوها ولم تصرعهم، وكانوا جبالاً راسية في التمكن والثبات، ذوي مقامات عالية لم يصل إليها كل من أتى بعدهم. ولقد ساعدهم على هذا التمكن صحبتهم للنبي ﷺ، ولو لم يكونوا في مقامات التمكن العالية، كيف يكون شأنهم وهم يشهدون ويسمعون حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ، وتسبيح الحصى في كفه الشريف، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وغيرها من المعجزات الحسية التي أكرم الله بها نبيه ﷺ.

بل كيف يكون حالهم، لو لم يكونوا في مقامات التمكن، وهم يسمعون القرآن الكريم من فمه الشريف صلى الله عليه وسلم، فتجتمع لهم أنوار التنزيل الكريم، وأنوار النبي العظيم، وجلال الوحي الأمين؟!.

ولعل سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أشار إلى هذا المدد الروحي العظيم بقوله:

«لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب - وإنا لفي دفنه - حتى أنكرنا قلوبنا».

صاحب الحال لا يقلد أثناء غلبة الحال عليه.

هذا ولا بد من التنبيه إلى أن بعض المتصوفة قد تغلبهم أحوالهم، ويصدر عنهم أثناء ذلك ما يخالف الشرع، فلا يجوز تقليدهم في هذا الذي يصدر عنهم في حالة الغلبة، كما نبه على هذا كبار العلماء رحمهم الله تعالى.

قال الإمام الرباني السرهندي ـ رحمه الله تعالى ـ: «علامة الوصول إلى حقيقة اليقين، مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها، وما دامت المخالفة موجودة، ولو بأدنى شعرة؛ فذلك دليل عدم الوصول، وكل خلاف واقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة، فهو مبني على سكر الوقت، وهو لا يكون إلا في أثناء الطريق، والمنتهون إلى النهاية كلهم في الصحو، والوقت مغلوب لهم، والحال والمقام تابع لكمالهم، فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة...»

وما أجمل ما قاله مولانا خالد ـ رحمة الله عليه ـ في هذا الموضوع:

«الولي يعذر في نطقه بغير المشروع لسكره ومحوه، ولا يجوز تقليد غيره له بشعوره وصحوه، ولا يسقط التكليف إلا عمن سقط عنه شرعاً. وأيضاً الخطأ الكشفي كالخطأ الاجتهادي يعذر صاحبه ولا يقلد فيه، ومن لم يجوز الخطأ على الأولياء، لم يفرق بين النبي والولي تماماً».

كما أن الكشف غير ملزم إذا خالف الكتاب والسنة وهو للرأي وليس لسواه.

القبض على ناصية الحال:

لا بد للشيخ المرشد أن يكون قابضاً على ناصية حاله، متمكناً منه، فلا يخرج عن السنة إلى البدعة، ولا عبرة بالفيض والمدد ما لم يكن مترسماً بسير النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه، فإن لم يحكم هذا إحكاماً صحيحاً، كان مستدرجاً ممكوراً به، وعند هذا فلا يسمى هذا فيضاً ولا مدداً، والعياذ بالله تعالى.

والكلمة السائدة عند أهل التزكية وأرباب السير إلى الله تعالى: «لو رأيتم رجلاً أعطي من الكرامة، حتى تربع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل..». وكثيراً ما يلبس عليهم اليوم بين الكرامة وبين السحر فينسبون الولاية لغير الولي فالمعيار هو الشريعة والاستقامة.

الأحوال والأعمال:

ولا يظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط، بل لا بد من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبدنا الله بها، قال الكلاباذي ـ رحمه الله تعالى ـ: «اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها؛ وهي علوم الأحكام الشرعية...» فالوجد الشرعي ثمرة الاتباع للكتاب والسنة.

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: «لا يغرنك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنك: لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم». ولله دره من قائل.

الشطح والتحذير منه.

وقد يغتر بعض المبتدئين بحاله، وتغلب عليه نفسه، فيتلفظ بألفاظ مخالفة للشرع، وقد أطلقوا على هذه الحالة اسم (الشطح) وحذروا منه ومن الأقوال الناتجة عنها أشد تحذير، ولقد دخل إلى التصوف عن هذا الطريق دخائل كثيرة، والعلماء الصالحون يحذرون منها، وينبهون عليها، وينصحون المبتدئين بألا يقرؤوا كتب القوم حتى لا يقعوا على أمثالها. وإن كثيراً منها مدسوس عليهم، وقد يتكلمون بكلمات لا يفهم حقيقة معناها إلا من كان مثلهم وبلغ رتبتهم. فيجب الامتناع من مطالعة تلك الكتب حرصاً على سلامة الاعتقاد، وإبقاءً على حسن الظن بالقوم رحمهم الله تعالى.

والاشتغال بالتفسير والحديث والفقه، أجدى علينا وعلى الأمة من

الاشتغال بهذه الدقائق، التي قل أن يخرج المشتغل بها سليماً، إن كان من المبتدئين، وقد قال العلماء: «طعام الكبار يضر الصغار».

ومن وصايا مولانا خالد النقشبندي ـ رحمه الله تعالى ـ: «أما بعد: فأوصيكم، وآمركم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية، والإعراض عن الرسوم الجاهلية، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية..»[1].

شطحات الصوفية:

ويقول الدكتور البوطي في كتابه (هذا والدي): ص ١٠٨-١١١.

هذه المسألة هي المعضلة الكبرى، التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو ـ أي جملة وتفصيلاً ـ على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها، وتتقبل العبارات الموهمة بل الباطلة على أساس الثقة بقائليها أو بمن نسبت إليهم.

وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق، متورط في حيف وظلم كبيرين.

أما الأول منهما فمتورط في ظلم التصوف، والجنوح عن الحق في حكمه الجائر عليه، وأما الثاني فمتورط في ظلم الشريعة والدين، إذ مضى يحملها أوزار كلمات وعبارات ما هي منها في شيء... على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من ترددهم لهذه العبارات إلى أي فهم لمعانيها، وإنما يبتلعونها ابتلاعاً بسائق من الثقة المجردة كما هي.. تماماً كما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ.

فنحن نستنكر العبارات التي لا تتفق معانيها المتبادرة منها، مع القرآن والسنة وما يجب الإيمان به من مبادىء العقيدة الإسلامية ولا نرى ترددها وقراءتها.

---

(١) من كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» للشيخ عبدالحميد طهماز.

فالشطحات التي تقرأها في الفتوحات المكية لابن عربي[1]، والتي تخالف في ظاهر مدلولها أصول العقيدة ومبادئها، فإنه لا يجوز قراءتها فضلاً عن تبنيها والإيمان بها، ولو على سبيل الإغماض والتسليم.

ونقرر ما قرره من قبلُ الإمام ابن حجر الهيتمي في فتاويه الحديثية، من حرمة قراءة الفتوحات، وما شابهه كفصوص الحكم.. لا اتهاماً للمؤلف، ولكن سداً لذريعة التشويش أو الافتتان بظاهر ما تدل عليه تلك الشطحات من الكفريات.

وكذلك بقية الذين فاهوا أو نقل عنهم بعض الشطحات، كأبي يزيد البسطامي الذي نقل عنه قوله: ما في الجبة إلا الله، وقوله: سبحاني ما أجل شأني، وكابن الفارض في بعض ما جاء على لسانه في تائيته الكبرى، فإننا ننأى عن شطحاتهم هذه ونركن إلى الاستفادة من بقية شؤونهم والاستشهاد ببقية كلماتهم وأقوالهم التي لا غبار عليها.

ومن قال ببعض تلك الشطحات فإنما قال ذلك في حالة فناء انتابته وعرضت له، غاب فيها عن شهود ذاته، فاستغرق في شهود الحق وحده. ففاه بتلك الكلمات وهو تحت سلطان ذلك الفناء عن الذات، وفي غيبوبة عن قرار العقل ويقينه، ولذا فإن كلاً منهم كان يعود عن تلك الشطحات ويبرأ منها ويؤكد نقيضها، بمجرد أن تنقشع تلك الحال[2].

● ● ●

(١) وقد اتفق كل من ترجم للشيخ ابن عربي، أنه قد دسّ عليه في كتابه الفتوحات وغيره، دسّ عليه الباطنيون ماشاؤوا أن يدسوا. أكد ذلك ابن المقري في نفح الطيب، وابن العماد في شذرات الذهب، والشعراني في اليواقيت والجواهر. وحاجي خليفة في كشف الظنون، وهذا من أهم ما يقتضي الإعراض عن الفتوحات ونحوه. ورحم الله من قال: خذ ما صفا ودع ما كدر.

(٢) ذكر ابن تيمية رحمه الله قريباً من هذا الكلام في تأويل شطحات أبي يزيد البسطامي الذي كان يمدحه ويقدسه. انظر مجموع الفتاوى: ١٠/٣٣٧، وينظر كتاب السلفية للبوطي: ص ٢٠٤ فما بعد.

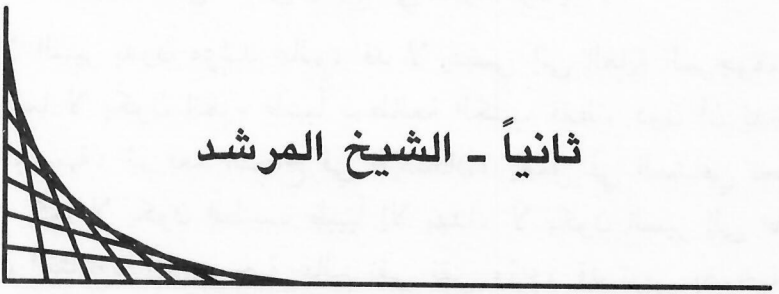

ثانياً ـ الشيخ المرشد

وهو الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح التصوف، ولا بد لكل من أراد سلوك الطريق من شيخ يدله عليه ويرشده إليه، يضع له العلامات وينبهه إلى المزالق والمخاطر، يبين له الدسم ويبعده عن السم، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله.

ومن حيث إن الإنسان جاهل إلا من علمه الله تعالى، كان الشيخ المرشد العارف بالله تعالى، والبصير بطريق الوصول إليه، أصلاً في الطريق لا يهمل، ولا يتغاضى عنه كدليل مرافق، ورفيق موافق، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل. وليس للشيخ إلا الدلالة بالقول والفعل، وبالحال الصالحة التي تسري بالتوجه السليم والدعاء للمريد السالك في الطريق، ولا نكران لسريان الحال، فإنا نرى الحماسة والحزن والفرح، نرى كل هذه وأمثالها، تسري من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب، فهذا التعليم بالحال والأفعال وليس الكلام.

وليست الطريقة إلا العمل بالإسلام على قدم الجد والصبر، وأركانها هي: الذكر، والبعد عن الناس قدر الإمكان، والصمت إلا عن خير، وعدم الإمعان في الشبع، وقيام شيء من الليل، وصحبة الشيخ المرشد الكامل، جسداً وروحاً، وإن افترقت الأبدان فالصحبة الروحية قائمة..

ضرورة صحبة المرشد.

صحبة المرشد الكامل ـ وهو أندر من الكبريت الأحمر في هذا الزمان

- مصححة للتصورات والأعمال، ومطهرة للقلب من الرعونات والأوضار، وملحقة للقاصر بالكامل، حتى يدرج في دائرة الولاية..

إن السير بدون مرشد عالم، قد لا يفضي إلى الغاية المرجوة، فلا بد منه، وكما لا يكون المرء طبيباً بمطالعة الكتب فقط، دون أن يدخل دور الطب الرسمية، ثم بعد النجاح في الامتحان، يعمل في المشافي تحت نظر الأطباء، كما لا يكون الطبيب طبيباً إلا بهذا، لا يكون السير إلى الله تعالى مضمون النتائج، إلا بصحبة عالم تقي نقي ورّع، قد تربى بصحبة غيره. وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم، حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم..

تعريف المرشد الكامل:

والمرشد الكامل، هو العالم العامل، ذو الحال الصالحة القوية، التي إذا توجه بالدعاء إلى مريده، نقله من حال إلى حال بإذن الله، ورقى به من مقام إلى مقام بإذن الله، مع الاستعانة بالصبر والصلاة والذكر والفكر، والمجاهدة والمكابدة..

شروط المرشد:

١ - **الإجازة بالإرشاد**: وهذا المرشد، شرطه أن يكون تربى على يد مرشد مثله، حتى نضج علماً وحالاً وكمالاً وقوة إفاضة، فأجازه بالإرشاد، وهكذا حتى تتصل الطريق بإجازة شيخ عن شيخ إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولا بد لهذا المرشد، من أن يكون قد اجتاز العقبات، وتخلص من العيوب عيباً فعيباً، وارتقى مقاماً فمقاماً، حتى قعد مقعد الكمال، فهو بصير بما يعتري السالك وله من قوة توجهه القلبي ما يدرأ به عنه الأخطار إن شاء الله تبارك وتعالى. من ظفر بهذا المرشد، فليشد يده عليه، وليكن له سامعاً مطيعاً، فإنه الطبيب النفسي الذي تجب الرحلة إليه، والجلوس بين يديه. وآية معرفته الاستقامة على الكتاب

والسنة فإن رأيت منه خلاف ذلك ففر منه فرارك من الأسد.

٢ ـ **العلم الواسع والعمل بالعلم**: أن يكون عالماً واسع العلم، لئلا يميل في السير إلى غير الاستقامة، فيميل المريد بميله، فيكون ضالاً مضلاً، ومن كان كذلك، فهو بعيد عن الإرشاد كل البعد. والعلم الديني يعم علم العقائد، وعلم الأحكام في العبادات والمعاملات، وعلم أحوال القلب وأمراضه المعنوية، والسبيل إلى تخليصه منها بمعالجته بالإضافة الروحية الصحيحة والتوجه القلبي القوي. ويشترط مع علمه الجم الغزير، أن يكون عاملاً به، فإن القدوة بالعامل أكثر منها بالعالم عند الجماهير، وعند المبتدئين من المريدين أيضاً، وليكن عمله متجلياً طبق الشريعة، فلا يأذن للحال التي تغشاه ومريديه بأن تتأمر عليه وعليهم إن كانت مخالفة لقواعد الشريعة، أو لركائز الأعمال.

٣ ـ **الترفع عن مال المريد**: ويتأكد عليه الترفع عن مال المريد، فإن أكل الدنيا بالدين حرام، إلا إذا كان إهداء عن طيب نفس، وخلوص نية، وبعد عن الاغترار. فإن رأيت شيخاً على خلاف ذلك فهذا شيخ الدرهم والدينار.

٤ ـ **المرشد ليس معصوماً**: ومع كل هذا، فالمرشد ليس معصوماً، لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة، لمن لم يرزق الاستسلام له، وقد قص الله تعالى علينا من نبأ موسى والخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، ما فيه إشارة إلى هذا.

وليكن على بال المريد أن المرشد ليس نبياً معصوماً، فقد يجري عليه ما يجري على غيره من القضاء والقدر، لكنه سريع الأوبة، وشيك التوبة، وإنها لتغسل الحوبة.

وقد وقع بعض الشيوخ فيما صورته المخالفة، وكان ذلك امتحاناً منه لمريديه، فتغير بعضهم وثبت غيره، فقال للذي ثبت: لِمَ لَمْ تتغير

كما تغير أصحابك؟ فقال: ما صحبتك على أنك معصوم، ولكن صحبتك على أنك أعرف بطريق الله مني..

ولعل الشيخ خالد ـ رحمه الله تعالى ـ قصد إلى هذا المعنى بقوله: «وكما يجب التحرز عن إنكار الأولياء، يجب التحرز عن الغلو في الاعتقاد بهم، بحيث يؤدي إلى خلل في فرض العقيدة، وهذا كثير من المفرطين في حسن الظن بالأولياء، والشيطان ذو مكر ومكيدة، وإذا أراد الله بأحد أن يأخذ حظاً من فيض شيخ، يظهر عليه كمال ذلك الشيخ فوق ما هو فيه.. ا.هـ»

٥ ـ **الإخلاص**: ولقد لخص السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ أهم صفات الشيخ المرشد بقوله: «كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دين! والرجل من جمع الناس على الله لا على نفسه، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه، وبقي قلبه عنهم بمعزل، وهو ذاك الفارس البطل» ا.هـ.

فقد أوضح الشيخ أمراً مهماً من الموازين التي نقيّم بها الشيخ، ومنها نهيه لمريديه عن الإفراط فيه، وتبجيله بما ليس فيه.

قلة المرشدين:

يرى الغزالي أن التصوف غير موجود، وذلك لعدم وجود من يسلك الطريق، وإذا وجد السالكون، فهم غير منضبطين مع ما يتطلبه الطريق من سلوك. يقول:

«والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت، إلا التصوف، فإنه قد انمحق بالكلية وبطل، لأن العلوم لم تندرس بعد، والعالم ـ وإن كان عالم سوء ـ فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم. وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل» (الإحياء ٢ / ٢٥٠).

ويوضح أن المشايخ الذين يقتدى بهم لا وجود لهم فيقول:

«وقد خلت البلاد الآن عن شيخ يقتدى به في علمه وسيرته» (الإحياء ٢/ ٢٥٠).

ويبين لنا سبب هذا الفقدان للمتصوفة فيقول:

«.. إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله.. ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيبا حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب، وأنكر مرضها» (الإحياء ٣/ ٦٣).

وإذا كان الشيخ المربي مفقوداً، والسالك غير موجود، حل مكانهما المنتفعون واللصقاء.

لذلك لا بد اليوم الحذر من السالك فإذا كان هذا الحال في زمن الغزالي فلا بد أن زمننا أشد وبالاً ولا نجاة إلا في مدى تمسك الشيخ بالكتاب والسنة والاستقامة، وإلا عدم صحبة أحد منهم أولى.

المرشد الكامل نادر في هذا الزمن:

إن المرشد الكامل الذي تتوافر فيه هذه الشروط، قد ندر في هذا الزمان، حتى إنه: لأندر من الكبريت الأحمر. وفى هذه الحالة ينصح بتلقي الذكر عن (شيخ بركة).

فالمرشد: إما أن يكون كاملاً، ذا مدد روحي عظيم، ومعرفة قلبية بمراحل الطريقة، وهذا من شرطه: العلم الواسع، والتحقيق العميق، والمعرفة الغزيرة.

وإما أن يكون شيخ بركة، يلقن الذكر كما تلقنه من شيخه، وهذا

يصار إليه حتى الظفر بالمرشد الكامل، لكن من شرطه أيضاً، أن يكون على علم واطلاع، حتى لا يضل مريده، فينعكس المشروع، وينقلب الموضوع. أما الأمي الجاهل، فلا يسوغ له مطلقاً دعوى الشيخوخة في الطريق، لأن ما يفسده أكثر بكثير مما يصلحه.. ولا يسلم له أمر خلاف الشرع.

الصلاة على النبي تقوم مقام المرشد عند فقده:

وخير ما يحسن في هذا الزمان إن لم يكن ظفر بالمرشد الكامل، هو الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وآله وصحبه، ثم هبة الثواب له وللمؤمنين عموماً، إن هذه الصلاة ذكر لله سبحانه صحيح، مقبول، تعيد على صاحبها بركات الرسول، فإنه عليه وآله الصلاة والسلام ما زال مربياً لمن يحبه من أمته حباً صادقاً امتثالياً، وتزكيته للمؤمنين مستمرة إلى ما شاء الله، إلى نهاية هذه الدنيا، فإنه الكامل المكمل، وإن الأصفياء يحسون آثار هذه التربية تمام الإحساس، وقد ذكر علماء التصفية: أن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم موصلة إلى الله تعالى عند فقد المرشد الكامل.. فالإكثار من الصلاة عليه ﷺ وآله، برد وسلام على القلب، وإنها لتقود إلى محاسن الأخلاق، ومكارم الشيم، وتعود بأجل البركات. ولتكن بأعداد كثيرة، صلوات الله تعالى وتسليماته عليه وعلى آله.

مع الالتزام بالأذكار الواردة في الكتاب والسنة مثل الأذكار للنووي.

تزكية النفس لا يتوقف على شيخ وبيعة:

إننا على تأكيدنا على ندرة العلماء الربانيين والأئمة الهادين المرشدين، وعلى الرغم من أهمية المرشد المربي، فإننا نذكر هنا أن الاهتداء إلى الله تعالى وصلاح النفس وتزكيتها لا يتوقف على التزام (شيخ وبيعة) وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذي أمر الله به، وتضمنهُ الكتابُ والسنة وسلوكُ سلف الأمة.

فأي إنسان مسترشد عمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين، والسلف الصالحين على منهج العلم فقد سلك طريق الهُدى،

وتوجه إلى الله تعالى راشداً مهدياً، إذ القرآنُ والسنة في ذاتهما هاديان إلى الله تعالى، ومزكيان للرُوح والنفس أيما تزكية. وقد جاءت بذلك الآيات والأحاديث الكثيرة.

فمن الآيات قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

وتزكية الرسول للناس قائمة مستمرة إلى الأبد: بأقواله وأفعاله وتقريراته. وأقوالُه وأفعالُه ﷺ هى الهادية المعلمة من قبل ومن بعد، ولا تزال بحمد الله مدونة محفوظة، ومن الأحاديث الشريفة قولُ الرسول صلى الله عليه وسلم: **(عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)**، وقولُه ﷺ: **(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسُنتى)**، وقوله ﷺ: **(فمن رغب عن سُنتي فليس مني)**.

فقول بعضهم: «يخطئ من يظن أنه يستطيع بنفسه أن يعالج أمراضه القلبية بمجرد قراءة القرآن الكريم، والاطلاع على أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم، ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله أن يُطببوا أنفسهم بمجرّد قراءة القرآن...» افتئات بحت على الله ورسوله، وتعطيل وإلغاء لكلام الله وكلام رسوله.

وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدّث النظار أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحبُ كتاب «الموافقات» و«الاعتصام» وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة، المتوفى سنة ٧٩٠، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة ٧٩٢ رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة، واختلفت فيها أنظارُ العلماء وكثر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ ـ لزاماً شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون

سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد ـ رحمه الله تعالى ـ كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته: كما في كتابه «الرسائل الصغرى» ص١٠٦ «الشيخُ المرجوعُ إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخُ تعليم وتربية، وشيخُ تعليم بلا تربية.

فشيخُ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاءُ نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيُده به من باب الأولى.

وأما شيخُ التعليم فهو لازم لكل سالك. ويدخل في شيوخ التعليم العلماء من محدثين ومفسرين وفقهاء.

أما كونُ شيخ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حُجُب أنفسهم كثيفة جداً، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلاّ الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مُزمنة، وأدواء مُعضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدمُ لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يُغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخُ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخافُ عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصدهُ من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتمادُ شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتمادُ شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدمُ ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة ـ أي المسلوكة ـ التي انتهجها أكثر السالكين، وهى أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم يُنقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالُهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض، ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعُباد.

وأما كتب أهل التصوف فهي راجعة إلى شيخ التعليم، لأن الاستفادة منها لا تصح إلا باعتقاد الناظر فيها أن مؤلفها من أهل العلم والمعرفة، وممن يصح الاقتداء به.

ولا يحصل هذا الاعتقاد إلّا من قبل شيخ معتمد عليه عنده أو من طريق يثق به، فإن كان ما يستفيده منها بيناً موافقاً لظاهر الشرع موافقةً بينةً اكتفى بذلك، وإلا فلا بد له من مراجعة شيخ ـ أي من شيوخ التعليم ـ يبينه له، فالشيخ لا بد منه» انتهى.

فأفاد كلامُه انتفاء لزوم شيخ التربية والبيعة له، وإثبات لزوم شيخ التعليم.

● ● ●

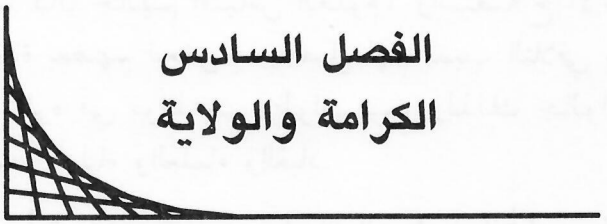

الفصل السادس
الكرامة والولاية

الكرامة: أمر خارق للعادة، غير مقرونة بدعوى النبوة، ولا هي مقدمة لها، ولا يشترط فيها التحدي كالمعجزة.

وهي عبارة عن إكرام الله لولي من أوليائه الصالحين، من أتباع الرسل الملتزمين بأحكام الشرع، بما يظهره الله على يديه من أمور.

ولا يشترط فيها دائماً أن تكون خارقة لنواميس الكون، أو خارجة عما يألفه الناس، وليس لها صورة أو كيفية معينة.

وهي ثابتة بأصل الكتاب والسنة، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى في قصة مريم:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقصة أصحاب الكهف، وغيرها ممّا ورد في كتاب الله، أو في سنة رسوله ﷺ أو في سير الصحابة رضوان الله عليهم.

وكرامات الصحابة كثيرة، مثل ما كان لأسيد بن حضير، ورجل من الأنصار، عندما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، وفي يد كل منهما عصاً، فأضاء لهما عصا أحدهما، حتى مشيا في ضوئها، فلمّا افترقا،

أضاءت عصا الآخر، فمشى كل منهما في ضوء عصاه)[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة، التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات. كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة)[2].

ومفهوم الصّوفيَّة للكرامة لا يختلف عن هذا المعنى.

يقول الكلاباذي: (أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء، أو كلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته)[3].

ويقول: (كرامة الولي بإجابة دعوة، وتمام حال، وقوة على فعل، وكفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها، وهي ممّا تخرج عن العادات)[4].

ويقول القشيري: (واعلم أنَّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات)[5].

ويقول سهل بن عبد الله حين سئل عن الكرامات: (وما الآيات وما الكرامات شيء تنقضي لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود)[6].

والولي صاحب الكرامة لا يستأنس بهذه الكرامة، بل يتضاعف خوفه وخشيته من الله، فيزداد له تذلّلاً، وخضوعاً، وطاعة، وشكراً له، مخافة أن

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ٧: ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٣) المصدر السابق ص ٩٠.
(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٩٠.
(٥) الرسالة القشيرية ص ١٦٠.
(٦) اللمع، للطوسي ص ٤٠٠.

تكون من قبيل الاستدراج. وهذا ما عناه الكلاباذي في قوله: (وأمّا الأولياء فإنَّهم إذا أظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذللاً وخضوعاً وخشيةً واستكانةً وإزراءً لنفوسهم وإيجاباً لحق الله عليهم، فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم، وقوة على مجاهداتهم، وشكراً لله تعالى على ما أعطاهم)[1].

ومن خلال مفهوم الصّوفيَّة لمعنى الكرامة، فهم يقسمونها إلى قسمين: كرامة حسية، وكرامة معنوية.

والكرامة الحسية: هي المشتهرة بين عامة الناس، والمتمثلة في خرق العوائد في الأمور المادية.

أمّا الكرامة المعنوية: فهي لأهل الخصوص من عباد الله، والمتمثلة في التوفيق إلى حفظ آداب الشريعة، والاستقامة مع الله ظاهراً وباطناً، والتزام مكارم الأخلاق وغيرها من الأمور المعنوية[2].

والكرامة المعنوية هي الأفضل عند أهل الطريق، وذلك لأنها لا يداخلها استدراج ولا مكر، ولا يشاركهم في صورتها فاسق ولا عاص. بخلاف الكرامات الحسية المعروفة لدى العامة، والتي قد يلتبس بها المكر والاستدراج.

ويذهب معظم الصّوفيَّة إلى استحباب ستر الكرامة، إلاَّ إذا كانت لغرض صحيح، كنصرة دين الله، أو تحقيق مصلحة، وغير ذلك. أمّا إظهارها دون سبب موجب فهو مذموم عندهم، لأنَّ فيها شيئاً من حظ النفس والعجب والمفاخرة.

يقول الشعراني: (إن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلاَّ إن كانت لنصرة دين، أو جلب مصلحة، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم)[3].

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٩.

(٢) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٠٢.

(٣) اليواقيت والجواهر ٢/ ١٠٤.

وحتى لا تكون الكرامة مشاعاً لكل دعي، فقد ذكر الصّوفيَّة لها شروطاً خاصة تميزها عن غيرها من صور التحايل والخداع.

وأهم شروطها: أن تظهر على يد المتصف بالاستقامة واتباع التكاليف الشرعية، المقبل على الطاعات بصدق نية، وإخلاص قلب، وزهد في متاع الدنيا.

يقول القشيري: (ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف، ظاهراً على موصوف بالولاية)[1].

ويقول الشعراني: (الكرامة لا تقع إلاَّ على يد من بالغ في الاتباع للشريعة حتى بلغ الغاية)[2].

وتبقى الكرامة أولاً وأخيراً منحة إلهية وهبة رحمانيَّة، لا تكتسب بكثرة الطاعات، والاجتهاد في العبادات، بل الفضل لله يؤتيه من يشاء[3].

الأولياء والشريعة:

يقول الشيخ الصوفي الكبير إبراهيم الخليل الشاذلي في كتابه «المرجع» ص ٥٧ ـ ٥٩:

(أولياء الله تعالى الصالحون، كلهم على خير عظيم وفضل واسع، وهم إنما بلغوا هذه الدرجة بطاعة الله، والتفاني في اتباع رسوله ﷺ كما تدل عليه سيرهم وأخبارهم الصحيحة، لأن الوليَّ هو من والى طاعة الله، فأولاه الله وتولاه، إذ يستحيل استحالة كلية، أن الله يتولى العاصي أو الجاهل، ولو اصطفى الجاهل لأفاض عليه وعلمه ما لم يكن يعلم، كما هو شأن الكثيرين من خواص الرجال).

وكل ما ينقل عن الأولياء من الأعمال والأقوال التي لا تتفق مع الشرع، فهي إما مكذوبة عليهم، وإما حصلت منهم في حالة الغيبوبة

---

(١) الرسالة القشيرية ١٥٨.

(٢) اليواقيت والجواهر ٢/ ١٠٢.

(٣) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٠٦-٢٠٧.

والفناء، فلا يجوز أن تكون حجة في الدين، إلا لمن غاب عن نفسه غيبتهم، فيرتفع عنه التكليف (كما ارتفع عنهم) أما ما دام واعياً فهو مؤاخذ بما يعمل وما يقول (شرعاً وقانوناً وعرفاً).

ففى الصحيح عنه ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهة، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام**».

الشعوذة والتدجيل:

بعض المنتسبين بالباطل إلى التصوف يأتون بأمور خارجة عن الشرع والعقل والأدب والكرامة، فيأكلون الزجاج والصبار والثعابين، ويلحسون النار، ويدفعون الدبابيس والمسامير في جسومهم، أمام جمهرة الناس، وهذا كله نصب ودجل وكذب ومنكر، لم يكن من فعل نبي ولا ولي بالمرة، ولم يكن في كتب الدين الصحيحة ولا الكاذبة دليل واحد يجوزها، فهي ليست كرامة ولكنها صناعة حقيرة محرمة. وتدجيل وغش ورجس (أعمال الحواة) وخوارق كثيرة من هذا القبيل، وكلها من استخدام الشياطين ومصاحبتهم وهو حرام، إذ لو كان فيه خير لنفعوا به أنفسهم وأغنوها عن التسول والسؤال.

وليس هذا من الكرامات، فالكرامات لا تكون إلا عند الضرورات، والولي الكامل مخفي الكرامة، إذ قد أجمع الصوفيون على أن ظهورها من الرعونة والطيش، (والالتفات عن الله إلى الخلق إذا كانت بطلب من الولي).

وأجمعوا على أن الولي الثابت يكتفي بالإشارة الخفيفة، والكلمة اللطيفة، والتلويح بدل التصريح عند اللزوم (إذا فتح الله عليه بلحظة كشف قلبي أو نحوه).

ويلحق بذلك ما يعمله بعضهم من الإخبار بما في نفس الزائر، وهي حالة لا تخلو إما أن تكون من وسوسة الشيطان، وهذا علم (سفلني) معروف عند بعضهم.

وأما عن قراءة الأفكار وهو علم ثابت يمكن لكائن من كان أن يزاوله من النصارى والمسلمين.

أما أنه كشف إلهي فليس الكشف هزواً ولا تجارة، ولا تظاهراً، ولا هو تحت طلب أي ولي، بل هو منحة إلهية في أوقات معينة وأحوال معينة، لا يملكها العباد.

إن النبي ﷺ علي عظيم كشفه قال: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فهل من هؤلاء الدجاجلة من تفوق منزلتهم في الكشف منزلة رسول الله الأعظم؟ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومن هذا النوع هؤلاء الذين يدقون الطار والدف، والذين يستحضرون (العمل والسحر) فيسقط من أعلى أمام صاحبه أو يجدونه في وعاء مغطى أو نحو ذلك، وهذه كلها حيل وصناعات شيطانية، وليس على ذلك دليل أكثر من أنك تجد من يصنع هذا من المجموعات الجاهلة والمجاهرة بالمعاصي والمتاجرة بالتمويه والإفساد (والمصابة بالفقر العلمي والديني والخلقي والحسي والمعنوي).

ولو كان يستطيع عمل شيء لأغنى نفسه وترفع عما هو فيه كما قدمنا.

ومن شر هؤلاء من يستخدم الشياطين ليستحضر للعامة ما يظنون أنه (السحر) الذي عمل لهم، ولهم في ذلك أساليب مختلفة، كلها من عمل الشيطان، وليست لها حقيقة فعلية، بدليل أنه بعد استخراج (العمل) كما يزعمون تظل الحال على ما هي عليه، إلا في الحالات النفسانية التي تتأثر بالإيحاء ونحوه، وليس للسحر فيها تأثير.

فليس أعجب من أن يتصدى أمثال هؤلاء للمشيخة والإرشاد إلى طريق الشيطان ولا نعرف ماذا يكون حالهم «**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**». ا.هـ

موقف ابن تيمية من الولاية والأولياء:

(كثير من القضايا التي يطلقها الناس تحتاج إلى تحقيق وتمحيص فهم ينسبون إلى أحد العلماء رأياً ويطلقونه على أنه قضية مسلمة، فإذا ذهبت تستقرئ آثار الرجل وجدت شيئاً آخر، ومن هذا القبيل ما يقال عن ابن تيمية والصوفية).

رأي ابن تيمية في الولاية والأولياء[1]:

المتبادر إلى الأذهان أن ابن تيمية عدو الصوفية الأول، والمنكر عليهم في كتبه ورسائله والخصم الشديد الشكيمة لآرائهم ومعتقداتهم، ولكن الحقيقة التي تطل من كتاباته غير ذلك تماماً، فابن تيمية يحارب الدخلاء على التصوف والمفسدين لجوهره النقي، والملبسين على الناس الحق بالباطل، والمتخذين من اسم الصوفية والانتساب إليها وسيلة يتحللون بها من الواجبات الدينية، وقواعد الأخلاق، وأسس السلوك المستقيم، وقد حارب هؤلاء حرباً لا هوادة فيها، لأن زمن ابن تيمية قد غلب عليه أصحاب الدعاوى، وصاروا يكونون جماعات تستهوي عقول العامة بما يأتون من أفعال بهلوانية، ويسيئون إلى حقائق التصوف العالي، وطريقته السامية، بما درجوا عليه من تحلل من مبادئ الدين، وتفسخ في الأخلاق، وانحراف في السلوك، متسترين تحت شعارات رفعها الأوائل ليمضي على هداها الصادقون في هدوء ودعة، فجاء هؤلاء المنحرفون يرددون ما قال الأوائل ويتسترون به مدلفين إلى مخازيهم وقبائحهم التي أفسدوا بها المجتمع، ولوثوا سمعة الطائفة، وزيفوا على الناس الحقائق حينما ألبسوا الحق بالباطل. ولهذا كان رد ابن تيمية عنيفاً صارماً وحربه لهم حرباً لا هوادة فيها، وكان يرى جهادهم واجباً دينياً كمدافعة التتار عن أرض المسلمين، كما صرّح بذلك في بعض كلماته، ودفعه إدراكه للخطر الداهم على عامة الناس من سلوك هؤلاء المخربين بأباطيلهم ومخاريقهم، أن يتشدد في سدّ

---

(١) مجلة الأزهر، السنة ٥٣، الجزء ٩، مقالة للدكتور محمد إبراهيم الجيوشي.

كل ما يمكن أن ينفذوا منه إلى عقول العامة ووجدانهم، ورفع لهذا الغرض شعار التزام الكتاب والسنة، وهذا في حقيقة الأمر هو الذي دعا ونادى به شيوخ الصوفية القدامى ورؤساؤهم المشار إليهم بالبنان، في كتبهم ووصاياهم.

وسيكشف لنا استعراضنا لآراء ابن تيمية في الموضوع أنه لن يبعد كثيراً عما نادى به المتقدمون من الشيوخ، وأن ما ذهب إليه قد قال به من قبله شيوخ ينتسبون إلى الصوفية ويدعون إلى طريقها، وليس معنى هذا أنه وافق كل ما قالوا، بل إن الأصول المسلَّم بها قد قبلها وقررها.

ومن جهة أخرى قد ساعد على أن يقف ابن تيمية هذا الموقف الصارم أن أصحاب الدعاوى الكاذبة قد كثروا في زمانه، وأتته الكتب من مختلف الجهات تستفتيه وتسأله أن يبين حقائق الشرع وحكمه في هذه الأمور التي تجري على ألسنة الناس في زمانه.

من هو الولي؟:

يرى الشيخ ابن تيمية أن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما جاء بذلك القرآن الكريم، ويرى كذلك أن الأولياء قسمان:

المقتصدون أصحاب اليمين، والمقربون السابقون، وولي الله ضد عدو الله، ويستشهد لما ذهب إليه بالآيات الكريمة، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ويروي كذلك الحديث القدسي:

«من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة».

وولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته، ولا يشترط في الأولياء أن يكونوا معصومين من الخطيئة ولا من الصغائر، وليس من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي

تعقبه التوبة، ولأن القرآن وصفهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وأما من يقول من الشيعة بعصمة الأئمة الاثنى عشر من الخطايا والذنوب فإنه غلو أشبه بغلو النصارى في المسيح والأحبار والرهبان[1].

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الحفظ الذي يقول به الصوفية بالنسبة للأولياء إنما يقصد به الحفظ من وساوس النفس وإلقائها فيما يرد على قلب الولي من الإلهام والتحديث والفراسة، وليس المقصود به الحفظ من المعصية، لأن اثنين من كبار الصوفية هما: أبو القاسم الجنيد والحكيم الترمذي يريان أن الولي غير معصوم من ارتكاب المعاصي، وكلمة الجنيد مشهورة في الرد على من سأله: أيزني العارف يا أبا القاسم؟ فأطرق ملياً، ثم قال ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وقد تحدث الحكيم الترمذي في كتابه «ختم الأولياء» عن مدى الخوف الذي يعتري الولي إذا ما وقع في خطيئة من الخطايا، أما العصمة التي ادعاها له وتابعه عليها جمهور المشايخ فهي العصمة من وسوسة النفس وإلقاء الشيطان فيما يرد على القلب من الخطاب أو الإلهام أو الحديث أو الفراسة.

أما الأسماء التي تدور على ألسنة الصوفية بالنسبة للأولياء كالغوث والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة فإن ابن تيمية يرى أنها لم ترد في كتاب الله ولا في حديث النبي ﷺ، ولم ترد في كلام السلف على هذا الترتيب الذي أوردوه، وهي لم ترد كذلك عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، ورأيه أن هذا النوع من العلم ليس باطلاً كله ولا حقاً كله، وقد التبس فيه الحق بالباطل، والذي يؤخذ من كلام ابن تيمية أن اعتراضه ينصب على العدد والترتيب الذي قدره الصوفية

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٤٣ ـ ٤٤.

في أمكنة وأزمنة معينة، وعلى هذا يدور اعتراضه فقط لأنه حكم لا دليل عليه، ولكنه لا يمانع في وجود هذه الأنواع من الأولياء بشرط أن يكون لها دليل من الكتاب والسنة[1].

ولا يرى ابن تيمية تسمية أي من البشر باسم الغوث، لأن هذا اللفظ لا يستحقه إلاّ الله سبحانه، فهو غياث المستغيثين، ولا يجوز لأحد الاستعانة بغيره، لا بملك مقرب ولا نبيّ مرسل، ويرى أن من يقول: أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث يرى أن القائل بذلك ضال مشرك كالمشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

ويرى أن هذا التوزيع الذي قالوا به على النحو السابق ينافي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

ويعتقد أنهم تأثروا في رأيهم هذا بما يعتقده الرافضة في الإمام المعصوم، وكذلك الإسماعيلية والنصيرية وغيرهم في قولهم: السابق والتالي، والناطق، والأساس.

ولا يمانع أن يكون هناك من الأولياء من يطلق عليهم الوتد الذي يثبت به من الدين والإيمان في قلوب بهديهم كما تثبت الأرض بأوتادها إلا أنه يعارض قصرهم على أربعة، ويرى أن ذلك أشبه بقول المنجمين في أوتاد الأرض.

كذلك يحمل الأمر في معنى القطب الذي عليه مدار الأمر في دائرة عمله سواء كان في أمور الدنيا أو الدين، ويمكن أن يطلق على من له أثر

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٤٦.

في هذا الشأن المتحدث عنه إلا أن تقييد ذلك بعدد محدد إنما هو تقييد لفضل الله في عباده.

ويمضي على هذه الوتيرة فيرفض ما يقال أن الأبدال أربعون، وأنهم كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه آخر، وما يقال في أن الغوث هو الذي يغيث الله به أهل الأرض، ويرفض ادعاء من يقول إن الناس إنما يرزقون وينصرون بهؤلاء الأربعين ويقول: إن هذا ادعاء باطل لأن للرزق والنصر أسباباً معروفة من أوكدها دعاء المسلمين وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر، وقد يكون ذلك بسبب الضعفاء كما ورد في حديث سعد بن أبي وقاص لما قال له النبي ﷺ: **«يا سعد وهل ترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وإخلاصهم وصلاتهم؟»**.

وللرزق والنصر أسباب أخرى لأن الكفار الفجار ينصرون ويرزقون.

ويرفض ما يقال أن الأبدال رجال الغيب مختفون في جبل لبنان، ويرى أنه يستحيل أن يظل شخص طول عمره غائباً كذلك، وهذا من جنس قول من قال: إن علياً في السحاب، وأن محمداً بن الحنفية في جبل رضوى، ومحمد بن الحسن في سرداب سامرا، والحاكم في جبل مصر.

أما أن تخرق العادة في حق شخص فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه، وإما لأمر آخر فإن هذا أمر ممكن، وهذا يعني أن ابن تيمية يُجَوِّزُ وقوع الكرامات للأولياء، ويفسر ابن تيمية أهل الغيب هنا تفسيراً لطيفاً فيقول: (نعم، يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن الناس، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس فهذا هو الواقع، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، وأكثر الناس لا يعلمون)[1].

ختم الأولياء:

ويرفض ابن تيمية فكرة ختم الأولياء التي جاء بها الحكيم الترمذي

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٥١.

ويقول: إن ما قاله الحكيم دعا كثيرين أن ينتحلوا لأنفسهم هذا اللقب، يدّعي كل منهم أنه ختم الأولياء كابن سبعين وابن عربي وغيرهما، ويرى أن فكرة ختم الأولياء فكرة خاطئة لأن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ ثم الذين يلونهم، ورأيه أن ختم الأولياء هو آخر مؤمن تقي يكون في الناس، وهو ليس بخير الأولياء ولا أفضلهم، بل أفضلهم أبو بكر ثم عمر اللذان ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منهما بعد النبيين[1].

ولا يرى بأساً من أن يكون في الأولياء صديقون ومحدَّثون، ولكن من غير تحديد في عدد بذاته، لأن ذكر عدد معين لم يرد في الكتاب أو السنة، أما لفظ الصديق والمحدَّث فقد جاء كل منهما في القرآن الكريم وفى الحديث النبوي الشريف، ويرى أن الصديق أفضل من المحدَّث لأن عمر أفضل المحدَّثين وأولهم، وأفضل منه أبو بكر وهو صدِّيق، والصديق يأخذ من مشكاة النبوة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً، وأما المحدَّث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة يميزان صوابه من خطئه.

ووجَّه ابن تيمية نقداً شديداً في كتابه «الرد على الاتحاديين» إلى فكرة ختم الولاية التي قال بها الحكيم الترمذي، وعلى الرغم من أنه يكنُّ احتراماً وتقديراً للحكيم كواحد من شيوخ الصوفية الكبار إلا أنه يراه قد أخطأ في فكرة ختم الولاية وتناقض في بعض مسائلها حينما أجاز أن يكون في المتأخرين من هو أفضل من أبي بكر وعمر، وعنى به ختم الأولياء، ويرى أن الحكيم قد ناقض نفسه لأنه لما أخذ في الرد على من يدعي أن الولي محجوب مستور لا تعرف ولايته استشهد في رده بحالي أبي بكر وعمر، وقال في إبطال دعوى هؤلاء: أن مقتضى كلامهم أن هذا الولي الذي يقولون إنه مجهول هو خير من أبي بكر وعمر وهذا باطل[2].

---

(١) الرسائل والمسائل ١: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) الرسائل والمسائل ١: ٥٩ ـ ٦٠.

ويوجه ابن تيمية اتهاماً خطيراً إلى هؤلاء الذين انتحلوا لأنفسهم مرتبة ختم الولاية، ويراه قد كفر بسبب ما قرره في شأن ختم الأولياء، هذا لأنه يفضله في بعض حالاته على المرسلين، ويرى أن النبيين يأخذون من مشكاته في بعض الحالات وهذا كما يقول ابن تيمية كفر صريح». انتهى

● ● ●

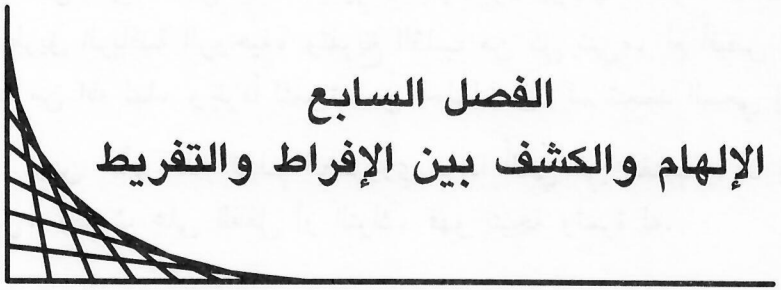

الفصل السابع
الإلهام والكشف بين الإفراط والتفريط

الإلهام هل هو حُجَّة في الأحكام الشرعية؟

هذا موضوع[1] يهتم به علماء العقيدة والتوحيد، لأنه يتصل بطرائق العلم التي يتوصل بها إلى المعرفة بالحقائق الكبرى من الألوهية والنبوة والمعاد.

وكذلك يهتم به علماء الأصول، لأنه يتعلق بتحديد مصادر المعرفة الشرعية، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسنة، وما دلاّ عليه من الإجماع والقياس؟

ويهتم به أيضاً علماء التصوف، بل هو أخص شيء بهم، وهم أصحابه، وهم الذين يُنقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدراً للتحسين والتقبيح؟

ولذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية، حتى لا تضيع الحقيقة بين طرفي النفي والغُلاة في الإثبات، كأكثر الأمور في عالم الفكر، يفرِط ويُفَرِّط فيها آخرون.

وكثيراً ما يعبر الصوفية عن الإلهام أو الكشف بإلقاء معنى أو فكرة أو

---

(١) بتصرف واختصار من كتاب «موقف الإسلام من الإلهام والكشف» للدكتور القرضاوي ص ١٤ ـ ١١١.

خبر أو حقيقة، في النفس أو القلب بطريق الفيض، بمعنى أن يخلق الله فيه علماً ضرورياً لا يملك دفعه. أي ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهود، بل هو يُفاض على النفس فيضاً، بغير اختيارها ولا إرادتها، سواء سعت إليه سعياً عن طريق الرياضة الروحية، وتفريغ القلب من كل شيء، أم أُفيض ذلك عليها كرامة من الله لها، وخرقاً للعوائد من أجلها، وإن لم تتعمد السعي إليه.

ومن شأن هذا العلم الضروري ـ إذا أُلقي في القلب ـ أن يُحرك إلى العمل، ويبعث على الفعل أو الترك، فهو نتيجة وثمرة له.

مواقف العلماء من الإلهام:

وإذا عرفنا حقيقة الإلهام، بقي علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين من الإلهام، ومدى الثقة بما يأتي عن طريقه من معارف وأفكار. ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة:

١- موقف النفاة الرافضين للإلهام.

٢- موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام.

٣- موقف المتوسطين بين الفريقين.

موقف النفاة المنكرين للإلهام:

ومن الإنصاف أن نقول أنه لا يوجد أحد ـ من العلماء المعتبرين لدى الأمة ـ من ينفي الإلهام نفياً كلياً وينكره إنكاراً مطلقاً.

بل النفي منصب على الاعتداد به أصلاً ودليلاً شرعياً، واعتباره حجة مستقلة، بحيث يُستدل به على الحق والصواب في باب المعارف والاعتقادات، وعلى مشروعية الفعل أو الترك في باب التعبدات والمعاملات.

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للإلهام هنا، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا في إثبات الإلهام، وزعموا أن له حجية ثابتة، ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية، فنفى ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسُّنَّة، وأنكروه.

المغالون في إثبات الإلهام وحجيته واعتباره:

أما الفئة الثانية فهي التي غلت في إثبات الإلهام، وفيما له من حجية شرعية: علمية وعملية، بحيث يُستدل به على سلامة الاعتقاد، وسداد القول، وصحة العمل، واستقامة المنهج.

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف أو أدعيائه على الحقيقة، وليس كل الصوفية معهم في ذلك، فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسنة، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصنوا بمحكمات الشرع، فمالت بهم رياح البدع القولية والعملية يميناً وشمالاً، فاعتمدوا على المتشابهات، وأعرضوا عن المحكمات، وهذا أصل الزيغ والغلو.

الإلهام ليس بحُجَّة شرعية:

وهؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحُجَّة، سواء في باب المعارف والاعتقادات، أم باب الأعمال والتعبدات، وتظاهر على ذلك علماء أصول الدين وعلماء أصول الفقه، وردوا على من زعم أنه حُجَّة ودليل شرعي، وأبطلوا كل ما استدلوا به.

أما في باب المعرفة والاعتقاد فيذكر «النسفي» في «عقائده» المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية، وهي من الكتب التي كانت - ولا تزال - تُدَرَّس بالأزهر: أن أسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والعقل، والخبر الصادق، ومنه خبر الرسول المؤيَّد بالمعجزة.

وبعد أن حصر أسباب العلم اليقيني في هذه الثلاثة قال: (والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق)[1].

---

(١) العقائد النسفية مع شرحها ص ٤١.

موقف الربانيين المعتدلين من علماء السنة:

إن الربانيين من دعاة «الوسطية الإسلامية» هم الذين جمعوا بين النورين: نور العقل ونور القلب، نور العلم ونور الإيمان، نور الفطرة ونور النبوة، واهتدوا بصحيح المنقول وصريح المعقول، ووفقوا بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وردوا الفروع إلى الأصول، والمتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، فأثبتوا الإلهام والكشف والتحديث والفراسة والرؤى الصادقة بشروطها وفي حدودها، وأقاموا الوزن بالقسط ولم يُخسروا الميزان، ولم يطغوا فيه، وبهذا أووا من العلم إلى ركن شديد، واعتصموا من الدين بحبل متين: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

إن موقف أهل التوسط والاعتدال من محققي علماء السنة، هو الذي يُعبر بحق عن وسطية المنهج الإسلامي، ووسطية الأمة الإسلامية.

فهم لا يغلقون باباً من أبواب المعرفة والوعي، فتحه الله لبعض الناس، في بعض الأوقات، بجوار البابين الآخرين، من أبواب المعرفة، وهما اللذان لهما صفة العموم والدوام.

وهما: باب الحواس، وخصوصاً السمع والبصر، وباب العقل، وقد يُعبر عنه في القرآن الكريم بالفؤاد أو القلب.

لم يقل العلماء المعتدلون الذين اهتدوا بالكتاب والسنة بسد باب الإلهام والكشف ونور البصيرة، وإنما أرادوا أن يُقيدوه بالأصول والضوابط التي تمنع دخول الوهم والكذب والغلو فيه.

واذا كان العقليون من قديم حاولوا أن يضبطوا إنتاج العقل بقواعد «المنطق» الذي عرفوه بأنه «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر»، وبهذا يمكن الرجوع إلى هذه القواعد عند الخلاف.

---

(١) آل عمران: ١٠١.

وإذا كان الشرعيون قد وفقّهم الله لوضع علم «أصول الفقه» لضبط الاستدلال فيما فيه نص، وفيما لا نص فيه، وأسسوا بذلك علماً عظيماً لم يُعرف مثله في حضارة من الحضارات، وغدا مفخرة من مفاخر التراث الفكري الاسلامي.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يُترك الأمر فوضى في موضوع الكشف والإلهام، وندع الباب مفتوحاً على مصراعيه، لكل من هبَّ ودَبَّ، ممن تخيَّل فخال، أو من لا يميز بين إلهام الملك ونفث الشيطان، أو من ادعى الوصول ولم يرع الأصول، من كل دجال يشتري الدنيا بالدين، ويتبع غير سبيل المؤمنين؟.

هذا ما يراه الربانيون من علماء السنة، فهم لا ينكرون أن يقذف الله في قلب عبد من عباده نوراً يكشف له بعض المستورات والحقائق، ويهديه إلى الصواب في بعض المواقف والمضايق، بدون اكتساب ولا استدلال، بل هبة من الله تعالى، وإلهاماً منه.

ومن آمن بقدرة الله تعالى على كل شيء، وآمن بالطاقة الروحية الهائلة في الإنسان، وآمن بأثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في تفجير هذه الطاقة الكامنة، لم يستبعد أن يقع الكشف والإلهام من الله لبعض عباده المؤمنين الصادقين، في بعض الأحوال والأوقات، تفضلاً منه وكرماً.

تحرير موضع النزاع:

فما هو إذن موضع الخلاف بينهم وبين من ذكرنا من المتصوفة أصحاب الكشف والإلهام، هنا يلزمنا تحرير موضع النزاع بين الفريقين لنستبين، ما هو متفق عليه، وما هو مختلف فيه.

أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام:

لا نزاع في أن الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس، لها

أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من اضطراب الشك إلى ثبات اليقين.

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم، وأنوار المعرفة، في فهم كتابه أو سنة نبيه، بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني، ما يلهث كثيرون ليحصلوا عليه بالمذاكرة والتحصيل، فلا يظفرون بما يدانيه، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم.

وهذا ما جعل كثيراً من كبار العلماء المؤلفين في التفسير والحديث والفقه وغيرهما، يجعلون في عناوين كتبهم كلمات مثل: الفتح، والفيض... ونحوهما[1].

ولا نزاع كذلك في أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه، أو كلمة يسمعها منه، أو يقرأ أفكاره، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه.

وهي موهبة فطرية لدى بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة، وتنميها تقوى الله تعالى، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة، حتى إن المؤمن لتصدق فراسته، كأنما ينظر بنور الله، وينطق بلسان القدر، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق.

ابن تيمية لا ينكر الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى:

ومن الناس من يظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية يجحد كل أثر للإيمان والتقوى والمجاهدة الروحية في نفس الإنسان المسلم، فلا تفيده نوراً يبصر

---

(١) مثل «فتح الباري» لابن حجر، و «فتح القدير» لابن الهمام في الفقه، و «فتح القدير» للشوكاني في التفسير، و «فتح العزيز» للرافعي، و «فتح الملك العلام» لصديق حسن خان، و «فيض القدير» للمناوي، و «فيض الباري» للكشميري وغيرها.

به في الظلمات، ولا فرقاناً يميز به بين المتشابهات، ولا هداية تنحل بها العقد والمشكلات، وأن شأن المؤمن العابد التقي المحاسب لنفسه، المراقب لربه، المخلص في علمه ونيته، كشأن العاصي المسرف على نفسه، أو الغافل عن ذكر ربه، الناسي لأمر آخرته، إذا استويا في الذكاء والتحصيل!

وربما يؤيد هذا الظن ما قد يلحظه بعضهم من جمود وتزمت في فريق من أدعياء السلفية الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى مدرسة ابن تيمية السلَفية.

وكيف يتصور من هذا الإمام الذي قضى عمره كله في رحاب كتاب الله تعالى، وفى ظلال سُنَّة رسول الله ﷺ، ومع هَدْي خير قرون هذه الأمة، وأفضل أجيالها علماً وعملاً وإيماناً وتقوى، وإخلاصاً وجهاداً في الله، أن يجحد أثر الإيمان والعبادة والمجاهدة في هداية الإنسان المؤمن التقي إلى الحق والسداد، وهو يجد بين يديه الآيات والأحاديث والآثار تنطق بهذا المعنى بكل بيان وجلاء؟!

وكيف يجحد ذلك أو يجهله وهو في حياته وسلوكه يجسد صورة مشرقة للعالم الرباني الذي جعل علمه وعمله، وصلاته، ونُسكُه ومحياه ومماته لله ربِّ العالَمين، ففاضت الحكمة من قلبه على لسانه وقلمه، ومنحه الله من النور والفرقان ما لم يُمنح إلا للصفوة من أولياء الله تعالى؟

وكثيراً ما ظُلم شيخ الإسلام وأصحابُه، ونُسب إليهم من الأفكار والمفاهيم والاتجاهات ما لم يقولوا به، وما يُكذِّبه تراثهم وسيرتهم العلمية والعملية، وما ظلموا إلا بسبب هؤلاء المحجوبين المطموسين اليابسين، من زوامل النقل وأسارى الرسم والشكل، الذين شغلوا بالظاهر عن الباطن، وبالصور عن الحقائق، الذين حُرموا عمق الحاسة الروحية، ولم يوجهوا عنايتهم لأعمال القلوب، ومقامات الإيمان والإحسان، وتزكية الأنفس، ومجاهدتها في الله، حتى يهديها سُبُله، ويذيقها حلاوة الإيمان.

وليس أدل على منهج ابن تيمية وموقفه في هذه القضية من نقل كلامه نفسه بنصّه رحمه الله تعالى.

يقول فيما نُقل في مجموع فتاواه ورسائله:

«القلب المعمور بالتقوى إذا رجَّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي. قال: فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى للّه ورسوله، كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجَّح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة، التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف وأصول الفقه.

وقد قال عمر بن الخطاب: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تنجلى لهم أمور صادقة. وحديث مكحول المرفوع: «**ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى اللّه الحكمة على قلبه، وأنطق بها لسانه**». وفى رواية: «**إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**». وقال أبو سليمان الداراني: إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت، ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

وقد قال النبى ﷺ: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**» ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية، فإنه يعرف ذلك معرفة تامة، لأنه قاصد العمل بها، فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة اللّه ورسوله، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً:

والعين تعرف من عيني محدَّثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى ... وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

وفى الحديث الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده**

التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

ومَن كان توفيق اللَّه له كذلك فيكف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعَّالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان، فكيف حال مَن اللَّه سمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: الإثم حوّاز القلوب.

وقد قدَّمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

وأيضاً فإن اللَّه فطر عباده على الحق، فإذا لم تستَحل الفطرة، شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها، وعرفت معروفها. قال عمر: الحق أبلج، لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منوَّرة بنور القرآن، تجلَّت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها[1]. ا.هـ.

وما قاله شيخ الإسلام هنا، أكده وأيَّده تلميذه المحقق الإمام ابن القيم ـ رحمهما اللَّه ـ في عدد من كتبه، وخصوصاً في كتابه الشهير «مدارج السالكين».

شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا:

كما لا نزاع في أن الإلهام والكشف في باب الكرامات والخوارق التي يُكرم اللَّه به بعض أوليائه المتقين، فيُقرِّب لهم البعيد، أو يُكثِّر على أيديهم القليل، أو يكشف لهم بعض المستور من غيوب المستقبل، أو مكنونات الصدور، أو خفايا الأمور، أو يذلِّل لهم بعض الصعاب، بغير الطريق المعتاد، إلى غير ذلك مما كثرت فيه الحكايات، وتناقلته الروايات، مما لا يخلو بعضه من صحة وثبوت، وما لا يسلم بعضه أيضاً من مبالغة أو اختلاق.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢/ ٤٢ ـ ٤٧.

ولكن المبدأ مُسلَّم به وبنتائجه بشرطه، وهو ألا يخرم قاعدة دينية ثابتة، ولا حكماً شرعياً متفقاً عليه.

وهو ما بيَّنه وفصَّله بأدلته وأمثلته الإمام الشاطبي في كتاب المقاصد من «الموافقات».

فقد بيَّن أن ما يخرم قاعدة شرعية، أو حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه بل هو إما خيال، أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، وقد يخالطه ما هو حق وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصلح اعتباره، من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع، فإن التشريع الذي جاء به رسول الله ﷺ عام لا خاص، لا ينخرم أصله، ولا ينكسر له اطراد، ولا يُستثنى من الدخول تحت حكمه مُكلَّف.

وإذا كان كذلك فكل ما جاء من هذا القبيل الذي نحن بصدده مضاداً لما تمهد في الشريعة، فهو فاسد باطل.

قال الشاطبي: (ومن أمثلة ذلك مسألة سئل عنها ابن رشد في حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في أمر، فرأى الحاكم في منامه أن النبي ﷺ قال له: (لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطل)، فمثل هذا من الرؤيا لا معتبر بها في أمر ولا نهي، ولا بشارة، ولا نذارة، لأنها تخرم قاعدة من قواعد الشريعة، وكذلك سائر ما يأتي من هذا النوع.وما روي (أن أبا بكر رضي الله عنه أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا رؤيت)، فهي قضية عَيْن لا تقدح في القواعد الكلية لاحتمالها، فلعل الورثة رضوا بذلك، فلا يلزم منها خرم أصل.

وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء المعيَّن مغصوب أو نجس، أو أن هذا الشاهد كاذب، أو أن المال لزيد وقد تحصَّل بالحُجَّة لعمرو، أو ما أشبه ذلك، فلا يصح له العمل على وفق ذلك ما لم يتعين سبب ظاهر، فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، ولا ترك قبول الشاهد، ولا الشهادة بالمال لزيد على حال. فإن الظواهر قد تعيَّن فيها بحكم الشريعة أمر آخر، فلا يتركها اعتماداً على مجرد المكاشفة أو الفراسة، كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية، ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها، وإن ترتبت في

الظاهر موجباتها، وهذا غير صحيح بحال. فكذا ما نحن فيه.

وقد جاء في الصحيح: («**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض، فأحكم له على نحو ما أسمع منه**»..

الحديث، فقيَّد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك. وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق وباطل، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم، وهو أصل في منع الحاكم أن يحكم بعلمه). ا.هـ.

وقد كان ﷺ يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم، ولكنه لم يعاملهم وفقاً لما كشف اللَّه له من بواطنهم، بل عاملهم حسب ظواهرهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومنحهم حقوق المسلمين في الحياة وبعد الممات.

وبهذا رد على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين، فقال ﷺ: «**أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»!

وهكذا أمرنا أن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس.

● ● ●

في هذه الأُمور يتحدد النزاع:

إذا كانت المدرسة السَلَفية ـ وعلى رأسها شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم ـ لا ترفض الكشف الصحيح، والفراسة الصادقة، والرؤيا الصالحة، وكان هذا موقف الربانيين الراسخين من علماء الأُمة كالشاطبي وغيره، فأين يكون موضع النزاع بين المتصوفة وغيرهم؟.

نستطيع أن نحدد مواضع النزاع في ستة أُمور[1]:

---

(١) موقف الإسلام من الإلهام والكشف، للقرضاوي ص ٣٨ باختصار.

١ - زعمهم أن إلهامهم أو كشفهم دليل شرعي يؤخذ منه الحكم بالحل أو الحُرمْة أو الكراهة أو الوجوب، أو الاستحباب.

بل قد يجعلون إلهامهم حُجَّة على الشرع نفسه، فإذا حرَّم الشرع، وحلَّل إلهامهم أو العكس، فإن إلهامهم هو الحُجَّة المعتمدة، والدليل المرجح.

٢ - ومعنى هذا أنهم يُضفون على إلهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة، فهي الصواب الذي لا يحتمل الخطأ بحال، على خلاف أقوال الأئمة المجتهدين التي تحتمل الخطأ والصواب.

٣ - تحقيرهم للعلم الشرعي، علم الكتاب والحديث، والفقه، وغيرها، الذي اعتبر طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وادعاؤهم أنهم لا حاجة لهم إلى أخذ العلم من أسبابه ووسائطه النقلية، فهم يأخذونه مباشرة عن الله تعالى: (حدَّثني قلبي عن ربي).

٤ - تفرقتهم بين «الشريعة» و «الحقيقة»، أو بين «العلم» الذي يأتي به «النص» و «المعرفة» التي يأتي بها «الكشف»، واعتبار الأولى من نصيب العوام والأخرى من حظ الخواص.

٥ - اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التي يسعون إليها، ويحرصون عليها كأنما أصبحت عبادتهم ومجاهدتهم، ابتغاء الكشف لا ابتغاء وجه الله.

٦ - اتخاذهم إلى هذا الكشف طرقاً مبتدعة لم يجئ بها كتاب ولا سنَّةً، ولا عمل بها سَلَف الأُمة.

ويمكن إدماج الأمرين الخامس والسادس، فتكون المواضع خمسة.

وسنوجز القول في بعض هذه الأمور - في المباحث التالية، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب الدكتور القرضاوي: «موقف الإسلام من الإلهام والكشف».

١ ـ ادعاء العصمة لما جاء عن طريق الكشف والإلهام

من النقاط الأساسية التي خطَّأ فيها المحققون من علماء السنة الطائفة التي غلت في إثبات الإلهام وحجيته: هي إضفاؤهم على ما جاءهم عن طريق الإلهام والكشف لوناً من القداسة والعصمة، بدعوى أنه من الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق لا يدخله باطل.

وإذا كانت أقوال الأئمة المجتهدين منذ عصر الصحابة فمن بعدهم قابلة للصواب والخطأ، وهم مأجورون على الخطأ أجراً واحداً، لإخلاصهم واستفراغهم الوسع في تحري الصواب وتحصيله، فإن خواطر الصوفية وإلهاماتها لا تقبل الخطأ في زعمهم.

وهي مجرد دعاوى عريضة من غير برهان، وما قاله هؤلاء وأمثالهم في حجية الإلهام والكشف عند الصوفية شبيه بما قاله الشيعة في أئمتهم، وهو ما أنكره أهل السنة عليهم.

فقد انتهى قول الشيعة الاثنا عشرية بإلهام أئمتهم الاثنى عشر، إلى القول بعصمتهم، فما يُلهمونه لا يتطرق إليه احتمال خطأ، لأنه ليس ناشئاً عن اجتهاد، كسائر الأئمة، يحتمل الصواب والخطأ، ويؤجر فيه المُصيب مرتين، والمُخطىء مرة واحدة، إنما هو إلهام من الله للإمام يكشف له به ما غاب عن غيره، فهو الصواب حتماً، سواء أكان خبراً أم حكماً. فإن كان خبراً فهو الصدق ولا بد، وإن كان حكماً فهو العدل لا مراء!.

وبهذا أثبتوا عصمة لغير رسول الله ﷺ، وأوجبوا طاعة لغير الله ورسوله، على خلاف ما قررته محكمات القرآن الكريم، وبينات الحديث الشريف.

بل لقد بلغ الاعتداد بالإلهام الذي يُمنح لبعض الناس في بعض المواقف أو القضايا: أن قال من قال من الغلاة والمنحرفين: إن باب النبوة لم يُغلق، وإن الوحي الذي نزل على محمد ﷺ لم يكن هو الوحي الأخير، بل يمكن أن ينزل على غيره!

لا عصمة لغير الكتاب والسُّنَّة:

ومن الواجب أن نقرر هنا بكل وضوح ويقين لا يعتريه ريب:

أنه لا عصمة لغير ما ثبت عن الله ورسوله. وكل أحد بعد ذلك يُؤخَذ من كلامه ويُرد عليه، والله سبحانه أمرنا أن نرجع في معرفة أحكام شرعه إلى كتابه عز وجل وسنة نبيه ﷺ، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴿٥٩﴾﴾[1].

فلم يأمرنا أن نرجع إلى قلوبنا وأذواقنا أو خواطرنا وما يُكشف لنا، فإن شيئاً من ذلك لا عصمة له، وقد يصح مرة ولا يصح أخرى.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قد ضُمِنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تُضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام[2].

ولهذا كان أول المُحدثين المُلهمين في هذه الأمة ـ وهو عمر بن الخطاب كما ثبت في الصحيحين ـ يرجع إلى القرآن والسنة ويُحكمهما في كل ما يعرض له.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كان عمر بن الخطاب وقَّافاً عند كتاب الله، وكان أبو بكر الصديق يُبين له أشياء تخالف ما يقع له، كما بيّن له يوم الحديبية، ويوم موت النبي ﷺ ويوم قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك.

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة، فتارة يرجع إليهم، وتارة يرجعون إليه، وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله، وتبين له الحق، فيرجع إليها، ويدع قوله.

وربما يرى رأياً فيُذكر له حديث عن النبي ﷺ فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه، مجموع الفتاوى: ٢/ ٩١.

القول، فيقال له: أحسنت، فيقول: والله ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأ!.

فإذا كان هذا إمام المُحدَّثين، فكل ذي قلب يُحدثه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر، فليس فيهم معصوم، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، وإن كانت طائفة تدعي أن الولي محفوظ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة ـ والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا ـ فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ وإن كانوا متفاضلين في الهدى، والنور والإصابة.

ولهذا كان الصِّدِّيق أفضل من المُحدَّث، لأن الصِّدِّيق يأخذ من مشكاة النبوة، فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً. أما المُحدَّث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة، فما وافق آثار الرسول ﷺ فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم، ويغفر لهم خطأهم.

ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية، فهو أعظم إيماناً وتقوى)[1]. ا.هـ

٢ ـ ضلالة ازدراء العلم الشرعي

ومن ضلالات المعظمين للكشف والإلهام، والقائلين بحجيته، المؤمنين بقدسيته، ازدراؤهم للعلم الشرعي: علم القرآن والسنة والفقه والأصول، وما تفرع عنها، وتحقير أولئك الذين يذيبون أعمارهم في طلبه وتحصيله، والتعمق فيه، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعي لتلقي العلم من أهله، جاهلين أو متجاهلين: أن الأنبياء لم يُورِثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَثوا أُممهم العلم، وأن «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، كما

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢/٢٢٦، ٢٢٧.

نطق بذلك حديث المعصوم، وكما أجمعت عليه الأمة.

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة، الذي به يُعرف الله سبحانه، ويعرف الطريق إليه، ويُعرف ما يحبه وما يكرهه، ولا طريق لذلك إلا معرفة الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ. وبها يعرف المسلم دينه ويصحح عقيدته وعبادته ويضبط سلوكه.

فالعلم بشرع الله تعالى، كما نزل به وحيه إلى رسوله ﷺ في كتابه وسُنته، هو الدليل المعصوم الذي لا يخطىء ولا ينسى.

الصوفية الأوَّلون ملتزمون باتباع الشريعة:

ولا غرو أن وجدنا من سادات الصوفية من أنكر على المنحرفين هذه الدعاوى العريضة التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُنَّة.

ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» عن المعتدلين من أكابر شيوخهم:

«قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه اللَّه: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: مَن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسنَّة.

وقال: مذهبنا هذا مُقيَّد بأُصول الكتاب والسُنَّة.

وقال أبو حفص ـ رحمه اللَّه ـ: مَن لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُنَّة، ولم يتهم خواطره، فلا يعُد في ديوان الرجال.

وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسُنَّة.

وقال أبو زيد: عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئاً أشد عليّ من العلم ومتابعته..

وقال مرة لخادمه: قم بنا إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالصلاح لنزوره، فلما دخلا عليه المسجد تنخع، ثم رمى بها نحو القبلة، فرجع فلم يُسلِّم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه؟

وقال: لقد هممت أن أسأل اللَّه تعالى أن يكفيني مؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل اللَّه هذا، ولم يسأله رسول اللَّه ﷺ؟ ولم أسأله، ثم إن اللَّه كفاني مؤنة النساء، حتى لا أبالي استقبلني امرأة أو حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات إلى أن يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة!.

وقال: ابن أبي الحواري رحمه اللَّه ـ: مَن عمل عملاً بلا اتباع سُنَّة، فباطل عمله.

قال ابن القيم: (وأما الكلمات التى تُروى عن بعضهم: من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه، كقول مَن قال: (نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت)!

وقول الآخر ـ وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبدالرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق، مَن يسمع من الخلاق؟!

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين اللَّه عَزَّ وجَلَّ!

وقول الآخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ «أخبرنا» و «حدَّثنا» فاغسل يدك منه!

وقول الآخر: لنا علم الحرق، ولكم علم الورق.

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، أو شاطحاً معترَفاً بشطحه، وإلا فلولا عبدالرزاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و «حدَّثنا» لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومَن أحالك على غير «أخبرنا» و «حدّثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدَّثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومَن فارق الدليل، ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى اللَّه والجنة، سوى الكتاب والسُنَّة. وكل طرق لم يصحبها دليل القرآن والسُنَّة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم).

● ● ●

العلم اللدُنِّي:

أما العلم اللدُنّي الذي طنطن به بعضهم، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبي، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في «منازل السائرين».

«العلم اللدُنّي» هو العلم الذي يقذفه اللَّه في القلب بلا سبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سمي لدنيا. قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، ولكن هذا العلم أخص من غيره، ولذلك أضافه إليه سبحانه، كبيته وناقته وبلده وعبده، ونحو ذلك. فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدُنّي، الحاصل بلا سبب ولا استدلال، هذا مضمون كلامه يعني الهروي صاحب «المنازل».

قال ابن القيم: (ونحن نقول: إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة، هو العلم الحقيقي، وأما ما يُدَّعى حصوله بغير شاهد ولا دليل، فلا وثوق به (وليس بعلم). نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعايَن، وعلم اليقين كعين اليقين، فيكون الأمر شعوراً أولاً، ثم تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً، ثم معرفة، ثم علم يقين، ثم حق يقين، ثم عَيْن يقين، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها، فهذا حق.

وأما دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال، فليس

بصحيح، فإن اللَّه سبحانه ربط التعريفات بأسبابها، كما ربط الكائنات بأسبابها، ولا يحصل لبَشر علم إلا بدليل يدله عليه، وقد أيَّد اللَّه سبحانه رسله بأنواع الأدلة والبراهين التي دلَّتهم على أن ما جاؤوا به هو من عند اللَّه ودلَّت أممهم على ذلك. وكان معهم أعظم الأدلة والبراهين على أن ما جاءهم هو من عند اللَّه، وكانت براهينهم أدلة وشواهد لهم وللأُمم. فالأدلة والشواهد التي كانت لهم، ومعهم: أعظم الشواهد والأدلة، واللَّه تعالى شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشواهد، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها، وحكم لا برهان عند قائله. وما كان كذلك لم يكن علماً، فضلاً عن أن يكون لَدُنيّاً.

فالعلم اللدُنّي: ما قام الدليل الصحيح عليه، أنه جاء من عند الله على لسان رسله، وما عداه فلدَنّي من لَدُن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود.

وقد انبثق سد العلم اللدُنّي، ورخص سعره، حتى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنّي. وصار مَن تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويُلقيه شيطانه في قلبه، يزعم أنَّ علمه لدُنّي!

فملاحدة الاتحادية، وزنادقة المنتمين إلى السلوك يقولون: إن علمهم لدُنّي وقد صنَّف في العلم اللدُنّي متهوكو المتكلمين، وزنادقة المتصوفين، وجهلة المتفلسفين، وكل يزعم أن علمه لدُنّي ! وصدقوا وكذبوا، فإن «اللدُنّي» منسوب إلى «لَدُن» بمعنى «عند» فكأنهم قالوا: العلم العندي، ولكن الشأن فيمن هذا العلم من عنده ومن لَدُنه، وقد ذمَّ اللَّه تعالى بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ

---

(١) البقرة: ٧٩.

(٢) الأنعام: ٩٣.

﴿إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[1]، فكل من قال: هذا العلم من عند الله ـ هو كاذب في هذه النسبة ـ فله نصيب وافر من هذا الذم. وهذا في القرآن كثير، يذم الله سبحانه من أضاف إليه ما لا علم به، ومن قال عليه ما لا يعلم ولهذا رتب سبحانه المحرَّمات أربع مراتب، وجعل أشدها القول عليه بلا علم، فجعله آخر مراتب المحرَّمات التي لا تُباح بحال، بل هى محرَّمة في كل ملَّة، وعلى لسان كل رسول، فالقائل: إن هذا «علم لَدُنيٌّ» لما لا يعلم به من عند اللَّه، ولا قام عليه برهان من اللَّه أنه من عنده: كاذب مفتر على اللَّه، وهو من أظلم الظالمين، وأكذب الكاذبين»[2].

على أن كثيراً من الصوفية المتأخرين رفضوا حجية الإلهام.

قال العلامة الآلوسي في تفسيره عند قصة الخضر من سورة الكهف:

(وممن صرَّح بأن الإلهام ليس بحُجَّة من الصوفية: الإمام الشعراني، وقال: قد زلَّ في هذا الباب خلق فضَلُّوا وأضلُّوا، ولنا في ذلك مؤلَّف سميته: «حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام» وهو مجلد لطيف)[3]. ا.هـ.

فمن احتج بالإلهام على حكم شرعي فاحتجاجه مردود عليه.

٣ ـ التفرقة بين الشريعة والحقيقة:

إن اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم، وما يعرض لهم من إلهام وكشف، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الإلهامات والخواطر، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع في ضلالات عدة.

فمنها: تفرقتهم بين «الشريعة» التي يجيء بها النص، و «الحقيقة» التي يجيء بها الكشف، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام، والثانية من حظ

---

(١) الأعراف: ٣٣.

(٢) مدارج السالكين: ٣ / ٤٣١ ـ ٤٣٣.

(٣) روح المعاني، للألوسى: ١٦/ ١٧.

الخواص، ومما يقولونه في ذلك: مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم!

قصة موسى والخضر:

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر، التي ذكرها الله في سورة الكهف. فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة فأنكر خرق السفينة، وقتل الغلام بغير جناية، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة.

وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة، ولهذا بيَّن لموسى ما وراء كل فعلة من هذه الفعلات من أسرار وغيوب، فسلَّم موسى للخضر، لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر، علم الشريعة، والخضر معه علم الباطن، وهو علم الحقيقة.

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلم ولا اكتساب، إنما هو علم وهبي من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة، ويسمونه «العلم اللدُنِّي» أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع، الذي يُعرف من النصوص، ويُطلب من العلماء، ويُروى بالأسانيد، ويسمونه «علم الورق».

وإنما يعنيهم علم «الباطن» أو «الحقيقة» أو «العلم اللدُني» كما يسمونه، علم الخضر لا علم موسى، علم «أصحاب الأذواق» لا علم «أصحاب الأوراق». علم الصوفية لا علم المحدِّثين والفقهاء.

بل قال بعضهم: إن العلم حجاب بين صاحبه وبين اللَّه!!

ولا ريب أن هذا جهل مبين، وغرور قبيح، وشرود عن الصراط المستقيم، الذي سار عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه الكرام، ومَن تبعهم بإحسان، بل سار عليه سادة الصوفية الأوائل أنفسهم.

وهم يسمون صاحب العلم الشرعي «عالماً»، ويسمون صاحب الكشف

الصوفي «عارفاً»، فالعلم عندهم كسبي استدلالي، و «المعرفة» وهبية ضرورية - وهي العلم اللدُنّي - والعلم له الخبر، والمعرفة لها العيان.

ومثال هذا: أنك إذا رأيت في حومة ثلج ثقباً خالياً، استدللتَ به على أن تحته حيواناً يتنفس، فهذا علم. فإذا حفرته وشاهدتَ الحيوان، فهذه معرفة.

ولا مشاحة في الاصطلاح، فلكل طائفة أن تصطلح على ما تتفاهم به بشرط أن تتضح المدلولات، وتتحدد المفاهيم، ولكن الخطر هنا هو تحقير

«العالم» وتقديس «العارف»، أو اعتبار ما يجيء من طريق المعرفة معصوماً، وما يجيء من طريق العلم مظنوناً أو مرفوضاً.

وذلك كقول بعض المنحرفين: «العالم يُسعطك الخل والخردل، والعارف ينشقك المسك والعنبر»!

قال: ومعنى هذا: أنك مع العالم في تعب، ومع العارف في راحة، العارف يبسط عذر العوالم والخلائق، والعالم يلوم. وقد قيل: مَن نظر إلى الخلق بعين «العلم» مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين «المعرفة» عذرهم!!.

يقول الإمام ابن القيم معقباً على هذا الكلام:

(فانظر ما تضمنه هذا الكلام - الذي ملمسه ناعم، وسمه زعاف قاتل - من الانحلال عن الدين، ودعوى الراحة من حكم العبودية، والتماس الأعذار لليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان، والظلمة والفجرة، وأن أحكام الأمر والنهي - الواردين على ألسن الرسل - للقلوب بمنزلة سعط الخل والخردل، وأن شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق، والوقوف عليها، والانقياد لحكمها بمنزلة تنشيق المسك والعنبر.

فليهنأ الكفارَ والفجارَ والفساقَ، انتشاقُ هذا المسك والعنبر إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها!

ويا رحمة للأبرار المحكمين لما جاء به الرسول ﷺ من كثرة سعوطهم بالخل والخردلّ!

فإن قوله ﷺ هذا يجوز، وهذا لا يجوز.. وهذا حلال وهذا حرام، وهذا يُرضي الله، وهذا يُسخطه: خل وخردل عند هؤلاء الملاحدة، وإلا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك.

ولذلك إذا نظرت ـ عندهم ـ إلى الخلق بعين الحقيقة عذرت الجميع فتعذر مَن توعَّده اللَّه ورسوله أعظم الوعيد، وتهدده أعظم التهديد.

وياالله العجب: إذا كانوا معذورين في الحقيقة، فكيف يُعذِّب الله سبحانه المعذور، ويذُيقه أشد العذاب؟

وهلا كان الغني الرحيم أولى بعذره من هؤلاء؟) ا.هـ.

من كلمات مجدد الألف الثاني:

قال الآلوسي وقد صرّح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني[1] في «المكتوبات» في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يُحل حراماً ولا يُحرم حلالاً، ويُعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة، والظاهر والباطن، وكلامه ـ قُدس سره ـ في «المكتوبات» طافح بذلك.

ففي المكتوب الثالث والأربعين من المجلد الأول:

أن قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة، يتخيلون أن المقصود الأصلي وراء الشريعة، حاشا وكلا، ثم حاشا وكلا. نعوذ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد السوء، فكل من الطريقة والشريعة عَيْن الآخر، لا مخالفة بينهما بقدر رأس الشعيرة، وكل ما خالف الشريعة مردود، وكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة!

---

(١) هو الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي، مجدد الإسلام في الهند في عصره، والمؤثر في ملوكها، ومغير طريقتهم من الانحراف عن الإسلام والعداء له إلى الولاء له والالتزام بأحكامه، ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي في رسالته «نحو منهج أفضل للإصلاح» توفي سنة ١٠٣٤هـ. وأفرد كتاباً قيماً في ترجمته في سلسلته «من رجال الفكر والدعوة».

وقال في أثناء المكتوب الحادي والأربعين من المجلد الأول أيضاً في مبحث الشريعة والطريقة والحقيقة: مثلاً عدم نطق اللسان بالكذب شريعة، ونفي خاطر الكذب عن القلب؛ إن كان بالتكلف والتعمل فهو طريقة، وإن تيسر بلا تكلف فهو حقيقة. ففي الجملة: الباطن ـ الذي هو الطريقة والحقيقة ـ مكمل الظاهر، الذي هو الشريعة. فالسالكون سبيل الطريقة والحقيقة إن ظهر منهم في أثناء الطريق أمور ظاهرها مخالف للشريعة ومناف لها، فهو من سكر الوقت، وغلبة الحال، فإذا تجاوزوا ذلك المقام ورجعوا إلى الصحو، ارتفعت تلك المنافاة بالكلية، وصارت تلك العلوم المضادة بتمامها هباءً منثوراً.

وقال ـ نفعنا الله تعالى بعلومه ـ في أثناء المكتوب السادس والثلاثين من المجلد الأول أيضاً:

للشريعة ثلاثة أجزاء: علم وعمل وإخلاص، فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى، وهو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] فالشريعة متكفلة بجميع السعادات، ولم يبق مطلب وراء الشريعة، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث، الذي هو الإخلاص، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك... إلى آخر ما قال.

وقال عليه الرحمة في أثناء المكتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير:

فتقرر أن طريق الوصول إلى درجات القرب الإلهي ـ سواء أكان قُرب النبوة أو قُرب الولاية ـ منحصر في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وصار مأموراً بها في آية: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[2]، وآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

---

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) يوسف: ١٠٨.

ٱللَّهُ﴾[1] تدل على ذلك أيضاً، وكل طريق سوى هذا الطريق ضلال، ومنحرف عن المطلوب الحقيقي، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة، وشاهد ذلك آية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[2] وآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[3]، وآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾[4].

وحديث: «خط لنا النبي ﷺ.....» الخبر[5]، وحديث: «كل بدعة ضلالة»[6]، وأحاديث أُخر إلى آخر ما قال عليه رحمة الملك المتعال.

٤ و ٥ ـ اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه طريقاً غير شرعية

ومن الانحرافات التي وقع فيها الصوفية في موضوع الكشف والإلهام والفيض: اعتبارهم ذلك هو الغاية التي إليها يشمرون، وعليها يحرصون فكأنما عبادتهم وذكرهم لحظ أنفسهم فيما يرد عليهم من فيض، وما يتجلى لهم من كشف، لا لحق ربهم عليهم، وواجب عبوديتهم له، كما أنهم يسلكون إلى هذه الغاية طريقاً لم يشرعه الرسول ﷺ ولا أمر به، ولا سلكه أصحابه، وتابعوهم بإحسان.

وأبلغ من عبر عن ذلك هو الإمام الغزالي في «الإحياء»، وقد أطال في ذلك وأفاض رحمه الله تعالى.

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) تتمتها: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

(٣) يونس: ٣٢.

(٤) تتمتها: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥).

(٥) يشير إلى حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، ثم قال: **«هذا سبيل الله»**، ثم خط خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: **«وهذه سبل (متفرقة) على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»**، ثم تلا: **«﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾.... الآية»** رواه أحمد.

(٦) جزء من حديث العرباض بن سارية المعروف الذي رواه أبو داود، والترمذي، وقال حسن صحيح.

ونحن لم نؤمر بطلب الكشف، وإنما أمرنا بطلب العلم، وقد جاءت الأحاديث ناطقة بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، ولم يجيء شيء من ذلك لطالب الكشف.

واذا كانت النصوص قد جعلت النور والهداية والفرقان ثمرات للعبادة والتقوى والإخلاص لله تعالى، بوصف ذلك مثوبة عاجلة من الله تعالى في الدنيا لعباده المتقين، فهذا فيمن عبد الله واتقاه مخلصاً له الدين، مبتغياً وجهه ومرضاته قياماً بحق عبوديته، أما من جعل الغاية من عبادته أن تكشف له المساتير ويقوده الإلهام في كل شيء، فهو في الحقيقة لم يخلص العبادة لربه، إنما هو يطلب حظ نفسه!.

ولقد صدق ما ذكره أحد المحققين عن بعض المتعبدين الذي حبس نفسه للصيام والقيام والتعبد أربعين يوماً، رجاء أن تتفجر الحكمة من قلبه على لسانه، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث فيمن أخلص لله أربعين يوماً فلما مرت الأربعون يوماً لم يَرَ أثراً للحكمة التي ركض وراءها، وأطال العبادة من أجلها.

وعندئذ سأل أحد العلماء الربانيين عن مصداقية الحديث أو الأثر المذكور؟ فقال له العالم: الحديث فيمن أخلص لله وحده، وأنت لم تخلص لله، إنما أخلصت للحكمة!.

وما ذكره الغزالي رحمه الله من هذا النوع، فهم لا يُخلصون لله، إنما يُخلصون للكشف!.

إن هذا الطريق، طريق شديد الوعورة، عظيم الخطورة، كثير المنحدرات، جم الحفر والمهاوي، قلما يجد فيه سالكه منارات تهديه، وعلامات تدله، لأن المنارات في علم الشرع وقد تركوه، والعلامات في ميراث النبوة وقد أهملوه.

قال الإمام الغزالي:

(وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم، نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر، قبل النجاح فيها. فكم من صوفي سلك هذا الطريق، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه القياس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض. وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه، وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيهاً بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه. ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً: فكذلك هذا. وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة)[1].

وهنا نتساءل: ما الحكم إذا جاء الكشف بما يخالف ما جاء به الشرع؟ ماذا يصنع صاحب الكشف؟ أيصدق كشفه وإلهامه، أم يُصدق ما جاء به قرآنه الذي لا يكذب، ونبيه الذي لا ينطق عن الهوى؟

إن بعض الصوفية يعتبرون ما ثبت بالكشف من باب علم اليقين، بل عَيْن اليقين، بخلاف ما ثبت بالشرع فهو من باب الترجيح والظن، كما زعمه من زعمه: أن الدلالات اللفظية تعتريها احتمالات كثيرة تُخرجها من دائرة اليقين.

ونزيد على هذا التساؤل أموراً إيجابية ذكرها الإمام ابن تيمية في مناقشته لهذا الأمر، منها:

أ ـ أن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر، فمن أين يعلم أن مايحصل فيه حق؟ وهذا إما أن يعلم بعقل أو سمع، وكلاهما لم يدل على ذلك.

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٠.

ب - أن الذي قد علم بالسمع أو العقل إذا فرغ قلبه من كل شيء حلت فيه الشياطين، ثم تنزلت عليه الشياطين، كما كانت تتنزل على الكهان، فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم مافيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يُشركون به شيئاً، وإنما يعبد الله بما أمر به على ألسنة رسله، فمن لم يكن كذلك تولته الشياطين.

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين، واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكُهان والسحرة، وظنوا أن ذلك من كرامات أولياء الله المتقين، كما قد بُسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

ج - إن هذه الطريقة لو كانت حقاً، فإنما تكون في حق من لم يأته رسول، فأما من أتاه رسول وأمر بسلوك طريق، فمن خالفه ضل. وخاتم الرسل ﷺ قد أمر أُمته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل!

فهذه الطريقة لو قُدر أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد ﷺ فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفاق، بأن يقذف الله - تعالى - في قلب العبد إلهاماً ينفعه؟ وهذا قد يحصل لكل أحد، ليس هو من لوازم هذه الطريق.

ولكن التفريغ والتخلية التي جاء بها الرسول أن يفرغ قلبه مما

---

(١) الزخرف: ٣٦ - ٣٧.

لا يحبه الله، ويملأه بما يحبه الله، فيفرغه من عبادة غير الله، ويملؤه بعبادة الله، وكذلك يفرغه من محبة غير الله، ويملؤه بمحبة الله، وكذلك يخرج عنه خوف غير الله، ويدخل فيه خوف الله تعالى، وينفي عنه التوكل على غير الله، ويثبت فيه التوكل على الله. وهذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذي يمده القرآن ويقويه، ولا يناقضه وينفيه، كما قال جندب وابن عمر: (تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً).

وأما الاقتصار على الذِكْر المجرد الشرعي مثل قول: «لا إله إلا الله» ـ فهذا قد ينتفع به الإنسان أحياناً، ولكن ليس هذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله ـ تعالى ـ دون ما عداه، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء[1].

اللهم ألهمنا رشدنا، وارزقنا نوراً نمشي به في الظلمات، وفرقاناً نميز به بين المشتبهات، وإيماناً يكون لنا مناراً في مفارق الطرقات، وجنبنا الانخداع بضلال الشبهات، وغواية الشهوات، واهدنا صراطك المستقيم: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2].. آمين.

● ● ●

(١) من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٣٩٩.

(٢) الفاتحة: ٧.

الفصل الثامن
نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي[1]

تتواصل الحضارات الإنسانية في فكرها المتسلسل في حلقات تطورها، ويفيد اللاحق فيها من السابق، لا تشذ عن ذلك حضارة، ولا يخرج على هذه القاعدة فكر، لكن هذه الإفادة تتوقف على طريقة قراءة أهل الحضارة لتراثهم، فكلما كانت القراءة وفق منهاج لا يغفل الحقائق، ولا يسقط ظروف الحاضر على الماضي فيحكم عليه وفق هذه الظروف، إلى غير ذلك من ضوابط المنهاج، ودقة تطبيقه، كانت إمكانية توظيف هذا التراث للحاضر أيسر وأخصب، والفكر الصوفي المنبثق من التجربة الصوفية لدى المسلمين جزء من تراثنا الإسلامي، وقد مر بمراحل منذ نشأته وحتى يوم الناس هذا، اعتورته فيها ظروف وحكمته عوامل، لكنه أدى دوراً يمكن للمسلم المعاصر أن يفيد منه وأن يوظفه في إصلاح حاضره وتصور مستقبله، لكن ذلك رهن بمنهاج القراءة لهذا التراث، والهدف من الحكم عليه في مرحلة ما، أو عند مدرسة ما، ونحو ذلك.

وقد قرئ التصوف الإسلامي من البعض وفق منهاج منضبط فكانت نتيجة القراءة حكماً اختلف بشكل واضح عن حكم آخرين - وهم كثرة - قرأوا التراث الصوفي بعيون ورؤوس غير منهجية، أو على الأقل في هذه

---

(١) هذا البحث مستفاد من الدكتور أبو اليزيد العجمي الدمنهوري، في مجلة الدراسات الإسلامية مع زيادة كثيرة وتصرف.

النقطة، وترتب على هذا انعدام الإفادة من هذا التراث مع خصوبته وثرائه، ومناسبته لحل كثير من مشكلات المسلم المعاصر.

ولا بد من أجل تحقيق الفائدة من هذا التراث أن نلتزم عند قراءته بهذه الحقائق والمسلمات، وأذكر الآن أهم تلك الضوابط المنهجية في قراءة وفهم التراث الصوفي الإسلامي:

الحقيقة الأولى: الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان

لم يعد أمر وجود الجانب الروحي في الإنسان موضع جدل، بعد أن غدا حقيقة ثابتة تتلمسها في حوار الفلسفة التي اهتمت بدراسة طبيعة الإنسان مقارنة بطبيعة الحيوان، لتصل إلى أن الإنسان بصفاته يفوق حجمه الطبيعي الحسي، ومن هنا قيل: إن الإنسان أكبر من مجموع أجزائه وهذا هو ما عناه هنري برجسون حين قرر أن الأعمال الفكرية والشعورية أكبر من حجم آليات التفكير والشعور الموجودة في الدماغ الحسي.

وقد ترتب على وجود هذه الحقيقة أن اهتمت مدارس التربية بالجانب الروحي في الإنسان وطالبت بأن يأخذ حقه في المناهج كما يعنى بالجانب العقلي والجانب الجسدي تماماً بتمام.

إن وجود هذا الجانب في الإنسان أمر لا يحتاج إلى دليل وبخاصة لدى الإنسان الذي يدرك بنفسه سعادته بالخير، وحبه للفضيلة، ويرى من يمرضون بغير المرض العضلي أو العقلي، مما يؤدي بهم إلى التبرم بالحياة، والضجر من الأحياء فالأمر لا يحتاج إلى دليل.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل.

.. أما لماذا هذا الاهتمام فإن الأمر يتضح حين نلقي نظرة على الحضارة الغربية الحديثة التي أرادت تحرير الإنسان من سلطان الكنيسة، ومن جبروت الفكر الأرسطي، واتخذت العلم والتجربة والتركيز على المحسوس وسيلة لذلك الهدف، واتخذت فلسفاتها بمذاهبها المختلفة منحًى

مادياً يساير هذه الروح العامة للحضارة الغربية المعاصرة.

ونحن لا ننكر أن لذلك ظروفه وملابساته التي تتلمس في دراسة فلسفة الحضارة الغربية.

لكن الذي يعيننا في الإجابة على سؤالنا: لماذا هذا الاهتمام بالجانب الروحي؟ هو أن هذه النزعة التي أولت جسد الإنسان وعقله بنسبة ما اهتمامها أغفلت جانباً مهماً في الإنسان ترتب عليه أن أصبحت هذه الحضارة الغربية في نظر أهلها الواعين موضع انتقاد، وننظر إليها على أنها فشلت في تحقيق هدفها وهو تحرير الإنسان، لأنها حررته من أشياء وجعلته عبداً لغيرها بإهمالها نقطة التوازن الضرورية بين جوانب الإنسان كلها، جسده، عقله، روحه.

ويصف القس كاريل الحضارة الحديثة بأنها ثوب بالغ الضيق كثوب الطفل حين يريد الكبير أن يلبسه «فالعالم الحديث يبدو لنا كالثوب المفرط في الضيق، بمجرد أن يطبعه مذهب الحرية الفردية أو المذهب الماركسي بطابعه، ومما لا يقبله العقل أن يصبح الواقع الخارجي أضيق من أن يشمل الإنسان في كليته، وألا يكون تركيبه متفقاً مع تركيبنا من بعض الوجوه، فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التي لعالم المادة»[1].

وقد أشار نقاد هذه الحضارة من الغربيين إلى ما جرّه هذا الاتجاه المادي على الناس من وجود بعض الأمراض الجسدية الخطيرة، والأمراض الخلقية التي تهدم أي حضارة.

ولأن الحضارة الغربية قد ألقت بكثير من ظلالها المادية على الحياة في بلاد المسلمين كانت صيحات كثير من علماء المسلمين وهم بصدد دراستهم للحياة الروحية - بأهمية تنمية الجانب الروحي لدى الإنسان المعاصر طلباً لإقامة حضارة متوازنة تتوقى ما وقعت فيه الحضارة الغربية

---

(١) تأملات فى سلوك الإنسان، القس كارل ص ١٧٣ - ١٧٤.

الحديثة، وذلك أنهم يرون أن إصلاح الفرد هو أساس الحضارة، باعتبار الحاجة إلى إنسان متخلق تحتاجه ظروف التغيير، والتنمية ونحوها.

وإذا كانت هذه الإشارات دالة على أهمية الجانب الروحي لدى المسلم المعاصر في ضوء ظروف عصره والحضارة السائدة فيه، كما ظهرت في صيحات أهل الغرب وبعض علماء الإسلام، الذين يرون أن حل معضلة الحياة العصرية يكمن في تنمية طاقات الإنسان الروحية بما يحقق التوازن في شخصيته فرداً، وفى طموحات العالم جماعات ومجتمعات إنسانية، أقول: إذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي أن ننظر إلى نشأة التصوف الإسلامي وإلى مصادره في ضوء هذه المسلَّمة التي قررتها النظرة الموضوعية للحضارة وموقع الحياة الروحية في تصور إصلاحها.

نشأة التصوف الإسلامي:

لا يعني بحثنا هذا بالحديث المطول والمفصّل عن نشأة التصوف الإسلامي، ولكنه يعنى بالإشارة إلى الظروف التي نشأ فيها التصوف الإسلامي بما يفيد أنه كان ضرورة منطقية ونبتة طبيعية، ضربت جذورها في الحياة الإسلامية، واستمدت وجودها من مصادره، وذلك بعد أن أصبح هذا في عداد المسلَّمات التي ينبغي أن يقف الدارس أمامها طويلاً.

ونشير هنا إلى ضرورة أن يقرأ التصوف الإسلامي وينظر إلى نشأته في ضوء الظروف التاريخية التي أنتجت بروز هذا اللون من الفكر الإسلامي.

إن هذا اللون من الفكر كان انبثاقه أمراً حتمياً نتيجة ظروف وملابسات تاريخية وفكرية، فحيث الرفاهية المفرطة بعد اتساع الفتوحات الإسلامية والالتقاء بحضارات مختلفة، وحيث الانغماس في الشهوات تكون الحاجة ماسة إلى سلوك يحقق التوازن، ويعد الناس في عمومهم إلى دقة النظر إلى حياة الرفاهية، وما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم حين تفتح عليه الدنيا، وهذا ما عناه ابن خلدون حين قرر أنه «عندما فشا الإقبال على الدنيا في

القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم التصوف»[1].

لقد كان التصوف استكمالاً لجوانب غابت في علم الفقهاء، ذلك أنهم اكتفوا بظاهر العلم والعمل على الجوارح، دون أن يتغلغلوا إلى الباطن، حيث بواعث الأعمال وخطرات القلوب. الأمر الذي جعل الصوفية يفهمون العبادات وأحكامها فهماً يثري الحياة الروحية للفرد المسلم.

وإذا كانت نظرة الصوفي إلى الفقيه كما أشرنا فإنه قد أمكن التوفيق بين الفقه والتصوف وبخاصة على يد أبي حامد الغزالي، لكن الأمر كان على خلاف ذلك بين التصوف وعلم الكلام فحيث الجدل الدائر في ساحة المتكلمين وما أدى إليه من لجاجة وحجب بعض الحقائق التي يقول بها الخصم كان التصوف رد فعل لهذا المسلك، فرفضوه مذهباً كما أنكروه منهجاً، فقدموا نموذجاً يري أن الإيمان الحق يزداد بالممارسة لا بالجدل، فالمتكلمون كما يقول بعض الصوفية: (لقد صرفوا الكلم عن مواضعه بأهوائهم، وأساؤوا التأويل فضلوا، وتأولوا التنزيه على غير وجهه)[2]

ولعل عدم التقاء الصوفية مع المتكلمين مذهباً ومنهجاً هو الذي جعل ابن تيمية يقرر أن الصوفية الأوائل في عقائدهم ينهجون منهج السلف[3].

فالتصوف الإسلامي نشأ لحاجة خلقية إليه، حيث ظروف فساد العصر، وحاجة علمية حيث قدم منهجاً يستكمل به مقومات الفقه، ويبعد به لجاجة الجدل في باب العقائد، وكذلك كان في كل مراحله استجابة للظروف التاريخية والفكرية المحيطة بالأمة، وننظر إلى أهله على أنهم مجتهدون كما اجتهد غيرهم في العلوم الإسلامية الأخرى[4].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢: ٥٤٢.

(٢) كتاب الأكياس والمغترين، للحكيم الترمذي ص٤٥.

(٣) الاستقامة ١: ١٨، ١٤٢، ١٥٧.

(٤) ربانية لا رهبانية للندوي ص٢٧ ـ ٣٣.

وإذا كان التصوف ـ كما ظهر ـ نبتة طبيعية في الحياة الإسلامية، فإن مسألة الحديث عن مصدره يصدق عليها أنها نضجت حتى احترقت، فقد تناولها علماء أجلاء وأثبتوا أن هذه البدعة الاستشراقية الدائرة في فلك التأثير والتأثر غدت أوهى من أن تصمد لمناقشة علمية.

وقد أنصف هؤلاء العلماء المستشرقين الذين رجعوا عن آرائهم في مسيحية المصدر أو غيرها بعد أن وضح لديهم الأمر من خلال الوقوف على نصوص لم تكن معلومة لهم من قبل، كما فعل نيكلسون[1].

كما فند هؤلاء العلماء كل مزاعم المستشرقين في مسألة جعل مصدر التصوف الإسلامي شيئاً آخر غير المصادر الإسلامية، وكانت نتيجة هذه الدراسات العلمية أن أصبح القول بإسلامية التصوف في مصدره حقيقة علمية لا يجادل فيها إلا مكابر[2].

والأمر أوضح من أن نعيد القول فيه، فالقرآن الكريم بما تضمنه من تربية للروح والوجدان، ودعوة إلى العبادة والزهد في الدنيا ابتغاء مرضاة الله، وحياة الرسول ﷺ بما كانت عليه من زهد وتقشف وطلب الآخرة، ثم حياة الصحابة رضوان الله عليهم وما تمثلوه من حياة الرسول الكريم، ثم مسيرة أحداث التاريخ التي أشرنا إليها، كل هذه مصادر استقى منها التصوف الإسلامي وجوده، وحدد من خلال إفادته منها معالمه التي جعلته علماً للأخلاق الدينية، ومنهجاً متكاملاً للفقه الشرعي، وطريقاً عملياً إلى تعميق الإيمان، فكان من خلال ذلك كله الدور الذي أداه التصوف الإسلامي في حياة المسلمين كما سيجيء إن شاء الله تعالى.

.. قراءة التصوف الإسلامي في ضوء هذه الحقيقة يجنب القارئ الدارس كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها البعض، ممن جروا وراء المستشرقين في مسألة المصادر، وممن قفزوا إلى الأحكام قفزاً فقرروا أنه لم يكن بين الصحابة زهاد، ولم يكن في حياة الرسول الكريم ما يمد

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون.

(٢) انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي لأبي الوفا ٢٥ ـ ٥٠.

الصوفية بالقدوة في سلوكهم، ولا كان في القرآن هذه الروحانية لأنه ذم الرهبانية، وكأنهم قالوا: إن الاسلام شيء والتصوف شيء آخر[1].

وممن ربطوا بين التصوف وانهيار الحضارات وكأنه هروب وليس خطة إصلاح، مع أن الواقع التاريخي يقرر أن فترة ازدهار التصوف الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كانت أزهى فترات العلم والحضارة الإسلامية، وإن صحبتها ظروف تاريخية أخرى سوَّغت وجود التصوف كعامل توازن ومتطلب تربوي ضروري.

يقول الشيخ رشيد رضا في الرد على من زعم أن التصوف من أعظم الأسباب التي أدت إلى جهل المسلمين لدينهم، وبعدهم عن التوحيد الخالص: (إن قولهم هذا فيه غلو، لأن التصوف قد ظهر في القرون الأولى للإسلام، وكان له تأثير كبير على المسلمين، وكان الهدف منه تهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين، وجذب النفس حتى تتعرف إلى أسراره وحكمه)[2].

كذلك فإن القراءة في ضوء الحقيقة المذكورة تحفظ على الدارس جهده ووقته، حيث يستفيد من التراكم المعرفي، فيبدأ من حيث انتهى سابقوه من العلماء والمتخصصين شاكراً لهم جهدهم، بادئاً في الدخول إلى مضمون وحقيقة ما يريد، وهو توظيف هذا الجانب من تراث المسلمين في خدمة قضاياهم المعاصرة، تفهماً لأدواء الحاضر، واستشرافاً لمستقبل إسلامي يقدم الإسلام فيه نموذجاً حضارياً يهدي حيارى العالم إلى أمثل الطرق لتحرير الإنسان من كل قيد زائف يعوقه عن الرسالة التي خلقه الله من أجلها وهي الخلافة والعبادة والعمارة للحياة. وهذا ما تتطلع إليه اليوم البشرية بعد أن أرهقتها مادية الحضارة الغربية كما يشهد بذلك فلاسفتها ونقادها.

---

(١) انظر: تعليق حامد الفقي على مدارج السالكين ٩٦/١ حيث يهاجم المحقق ابن القيم لأنه يقول: أن الصوفية استندوا إلى الكتاب والسنة.

(٢) المنار، مجلد ٧ ص ٣٣٠.

الحقيقة الثانية: تصور الصوفية للشخصية المسلمة

من المقرر أن أخلاق الإسلام هي أساس بنائه بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة سواء في ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها، وهيكلاً فارغاً من المضمون.

ولأن التصوف الإسلامي منبثق من الإسلام فقد حمل هذه الصفة وصارت الأخلاق أبرز مضامينه يقول ابن قيم الجوزية: (الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين، وكذا التصوف قال الكتاني: التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف)[1].

وقد علق ابن القيم على عبارة الهروي الأنصاري (واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق) بما يفيد أنه يرتضي هذه الحقيقة التي تؤكد أن التصوف أخلاق دينية[2].

ولأن الأخلاق في الإسلام تنهض ببناء شخصية قوية في جوانبها المتعددة، فإننا نشير هنا إلى ضرورة الوعي بما قدمه التصوف الإسلامي في بناء الشخصية المسلمة قوية فعالة تنهض بالإصلاح الذي دعا إليه التصوف، وتصورهم للشخصية المسلمة يتمثل في كونها:

أ- شخصية متخلقة بأخلاق الإسلام.

ب- شخصية تحرص على العلوم الشرعية والعقلية والروحية.

ج- شخصية متحركة في الحياة متصلة بالناس.

أ ـ **ففي الجانب الأول:** يركزون على ضرورة الارتباط بالكتاب والسنة مصدرين يمدان المسلم بعقيدته وأحكام حياته وأخلاقه ويبرزون الصلة الوثيقة بين أصول الإسلام وآدابه، وأن الآداب الشرعية تحفظ أصول

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٠٧.

(٢) مدارج السالكين ٢/٢١٧.

الإسلام على اعتبار أن المتخلق مثال طيب تتحقق فيه أوصاف المؤمن في عقيدته وعبادته ومعاملاته.

ويكاد يجمع المؤرخون للصوفية على تميز هذا الجانب عندهم، يستوي في ذلك المادحون لهم والمعتدلون، والذين تعقبوهم بالنقد أمثال ابن الجوزي حيث يقرر في كتابه الذي يخص جزءاً كبيراً منه لنقد التصوف والصوفية، يقرر فيه (وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة، وبإسناد عن جعفر الخلدي يقول سمعت الجنيد يقول: قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة[1] ويورد ابن الجوزي أقوالاً مماثلة أو مشابهة لكثير من الصوفية.

والأخلاق التي ينبهون إليها تشتمل على أدب الإنسان مع ربه، وأدبه مع الخلق، وأدبه مع نفسه، فهو ملتزم لا يحلف بالله لغواً، ولا يكذب على الله، ولا يعد وهو يعتزم أن يخلف، ولا يكفر أحداً من المسلمين بذنب، ويتواضع لخلق الله، ويبذل جهده ليعمل ويعطي غيره ولا يتصيد أخطاء للناس، بل يؤول بحسن الظن ما استطاع إلى ذلك سبيلا[2].

ب - **وفى الجانب الثاني**: يبرز اهتمامهم بالعلوم الشرعية طريقاً إلى علوم التربية الروحية، ولا يمكن أن تحصل الأخيرة دون الارتكاز على الأولى، الأمر الذي جعل الجنيد البغدادي يقول: (من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقه لا يقتدى به)[3].

ويتحدث الكلاباذي عن علومهم فيقول: (اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الحال إلا من

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٢) انظر: الغنية للجيلاني ١/٣٨ - ٤٤.
(٣) تلبيس إبليس: ١٦٧.

صحح الأعمال. وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها، وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه من الصلاة، والصوم، وسائر الفرائض، إلى علم المعاملات من النكاح، والطلاق، والمبايعات، وسائر ما أوجبه الله، وندب إليه، وما لا غناء عنه من أمور المعاش. وهذه علوم التعلم والاكتساب.

وأول ما يلزم العبد الاجتهاد في طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه، ووسعه طبعه، وقوي عليه فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه، القدر الذي يتيقن بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة[1].

وهذه العلوم هي أساس علم النفس والمجاهدات التي هي سمة أهل التصوف، والصوفية يرون أن الفقهاء وأهل الحديث ينبغي الرجوع إليهم إذا لم يبلغ الصوفي مبلغهم.

يقول الطوسي: (ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم، ولم يحط بما أحاطوا به علماً فإنهم راجعون إليهم في الوقت الذي يشكل عليهم حكم من الأحكام الشرعية، أو حد من حدود الدين، فإذا اجتمعوا فهم في جملتهم فيما اجتمعوا عليه، فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية في مذهبهم الأخذ والأولى والأتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما أمر الله به عباده، واجتناباً لما نهاهم عنه)[2].

وهكذا فالعلم عندهم أساسه علوم الشريعة، والعلماء بهذه العلوم موضع التقدير والاحترام.

ج - **وفي الجانب الثالث**: يرى الصوفية أن العمل والحركة في الحياة هي قرينة الزهد الذي يعني عندهم السيطرة على النفس، والقدرة على

---

(١) التعرف: للكلاباذي ص ١٠٤.

(٢) اللمع. للطوسي ص ٢٨.

التحرر من سلطان المادة، حتى ولو كان الإنسان يملك منها الكثير.

وقد كان الزهاد الأوائل حريصين على الدعوة إلى الكسب والعمل. يقول إبراهيم بن أدهم لتلميذه شقيق البلخي: (يا شقيق لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد، وإنما نبل عندنا من نبل من كان يعقل ما يدخل في جوفه يعني الرغيفين من حله)[1].

وهو نفس المعنى الذي كان يعلم به ابن أدهم أتباعه: (عليك بعمل الأبطال الكسب من الحلال والنفقة على العيال)[2].

واستمرت هذه النظرة لدى مجموع الصوفية فكان منهم الحداد، والزجاج، والقصار، وحمدون القصار هو الذي قال لتلميذه عبدالله الحجام: (الزم الكسب، فلأن تدعى عبدالله الحجام خير من أن تدعى عبدالله العارف) ولذلك كان حديثهم عن أدب الكسب، وأخلاق من يعمل في مجال الحرف والصناعات، ومسائل المال[3].

ومن خرج عن هذه الصفة كان الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها، وللصوفية في نقده أقوال ونظر.

وأما اختلاطهم بالناس وأخذهم بيدهم للتربية والرقي وتحقيق التوازن بين المادة والروح فهو صلب وجودهم، ولا يقدح فيه شائعات تتهم الصوفية بالعزلة، كما تتهم بالقعود عن العمل، فدورهم الاجتماعي خير شاهد على دحض هذه الفرية، والتي شاعت نتيجة قراءة التراث الصوفي بعيون غير موضوعية، ولو فهم القراء الحقائق لكان لهم موقف آخر.

يقول العلامة الندوي: (إن هناك شائعات تلقاها الناس بالقبول، وتناقلتها الألسن والأقلام من غير مناقشة علمية، وتحليل ودراسة كافية، ومن هذه المفروضات أو الإشاعات، التي لا أساس لها من الصحة، أن التصوف

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٦٩.

(٢) اللمع ص ٢٦٠.

(٣) التعرف للكلاباذي، ص ١٠٢.

عبارة عن البطالة والكسل والجمود، والفرار عن معترك الحياة، ولكننا ننفي هذه الأوهام حين نجد أمامنا حلقة متصلة من الحقائق تقضي على هذا الزعم الباطل، سواء من ناحية التاريخ والواقع، أو من ناحية النفسية والعقل والبرهان)[1].

إن القراءة في ضوء هذه الحقيقة تميط اللثام عن حقائق مثل الصلة بين التصوف والمصادر الإسلامية، ومثل النظرة التربوية لدى الصوفية، وتشير كذلك إلى صلة التصوف بالعلوم الشرعية وعدم تجاوزها كأساس لا بد منه، وكل هذه الحقائق تخدم قضية الموضوعية في الحكم على جزء من تاريخنا فلا نعامله بالشائع ولا ندخل عليه بفكرة سابقة فنحرم من جراء ذلك معرفة ما به من خير يمكن أن نفيد منه، وما اعتور طريقه من منعطفات يمكن أن تفهم في ضوء ظروفها التاريخية، أو تعد من الأخطاء التي ينبغي توقيها، فليست المسألة دفاعاً عن رأي بقدر ما هي محاولة للإفادة مما يفيد، والتنبيه إلى خطر ما لا يفيد.

الحقيقة الثالثة: الدور التاريخي للتصوف الإسلامي

ومما ينبغي الوعي به حين نقرأ التصوف الإسلامي أن ندرك ماذا قدم الصوفية لمجتمعاتهم عبر مراحل التاريخ. وكيف اكتسبوا مكانة مرموقة بين الناس، والأمر منطقي وفق مقاييس أصحاب الدراسات الاجتماعية حيث يقررون أن مكانة أي طائفة في مجتمعها إنما تتحدد بواسطة ما تقدمه وما تمتلكه من رموز الهيبة والتقدير.

وقد استحق الصوفية هذه المكانة في مجتمعاتهم لما قدموه من عطاء وخلق لا يطلبون عليه جزاءً ولا شكوراً، ويعلنون شفقتهم على خلق الله بما يجعل كل واحد منهم يعتقد أنه مسئول عن كل الناس.

ولا تخلوا دراسة منصفة للتراث الإسلامي من إشارة أو بيان يظهر

---

(١) ربانية لا رهبانية، للندوي ص ١٣١ ـ ١٣٢.

حقيقة الدور التاريخي للصوفية سواء في القديم أو الحديث، وليس التفصيل من مهمتنا ولكن حسبنا أن نشير إلى مجالات ينبغي التعرف إليها لتتضح الحقيقة التي نحن بصددها.

أ ـ مجال العلم والتعليم:

وهنا نشير إلى أنه قد برز من بين شيوخ الصوفية علماء أجلاء، فأبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمد النصر أباذي كان عالماً بالحديث كثير الرواية، وأبو حمزة البغدادي كان فقيهاً في القراءات، وكان أحمد بن حنبل يسأله في المسائل، وعمرو بن عثمان المكي كان عالماً بالأصول وروى الحديث...

وحمدون بن أحمد القصار كان عالماً فقيهاً يذهب مذهب الظاهرى، وكان الجنيد فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان عبدالقادر الجيلاني فقيها حنبلياً ولو ذهبنا نسرد أسماء المحدثين والمفسرين والفقهاء من الصوفية لما اتسعت لذلك المجلدات، وحسب طالب الحقيقة أن يستعرض كتب التراجم بدءاً من طبقات النساك لابن الأعرابي، وطبقات الصوفية للسلمي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وانتهاء بكتب التراجم المرتبة على القرون مثل: الدرر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي، والكواكب السائرة للغري، وسلك الدرر للمرادي، وحلية البشر للبيطار، لوجد ألوف العلماء الكبار من الصوفية الصادقين.

هذا في مجال العلم وأما في جانب تعليم الناس وتربيتهم فحسبنا أن نعي ونحن نقرأ التراث الصوفى ما كتبه المحاسبي في «رسالة المسترشدين»، والمكي «فى قوت القلوب»، والغزالي في «الإحياء»، وابن عطاءالله في «الحكم» وغيرهم كثير. مركزين على بيان الحقوق والواجبات والنصائح العامة التي تدخل في باب الأدب ليتعرف المسلم إلى حقوقه وواجباته في أدب وبخلق يبعده عن السلبية والإضرار بمجتمعه وحضارته.

وإذا تذكرنا زوايا السنوسية مثلاً، والمدارس الملحقة بها التي تعلم

القرآن والحساب وبعض العلوم الضرورية، تعلم الناس دون أن تأخذ أجراً، بل تعين غير القادرين منهم، إذا علمنا هذا اتضح لنا عطاء الصوفية لمجتمعاتهم في باب العلم والتربية والتعليم.

وما قامت به الطريقة النقشبندية في الاتحاد السوفيتي وتركيا في تحفيظ القرآن للصغار ومحاربة الإلحاد فحين أزال الله عنهم النقمة في الاتحاد السوفيتي وجد الإسلام كما هو.

ب ـ مجال إصلاح الحياة:

ونعني بذلك ما قدموه من نقد للعصر حين فسدت الأحوال، ونصح للحكام في غير خوف ولا مواربة، وقد بدأ الأمر من صيحات الحسن البصري حين قارن بين التابعين الذين لقيهم وأبناء عصره فقال: (والله لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين، وجلاء الصورة، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها)[1].

وتتواصل الصيحات لنقد العصر وبيان فساده فيكون كلام للمحاسبي، وكلام للسري السقطي، وكلام لسهل بن عبدالله التستري، وكلام للجنيد البغدادي، وكلهم يشير إلى فساد العصر، ويحذر من مغبة سعي العلماء إلى أبواب السلاطين والتزلف لهم، والفرح بما عندهم.

وفى باب نصح الحكام تجد الحسن البصري ـ مع أنه كان لا يرى الخروج على السلطان في عصره ـ يتحين الفرصة لينصح ابن هبيرة والي العراق ويخوفه من الله في عبارات شديدة[2].

ونجد الفضيل بن عياض ينصح الرشيد ويحذره من مغبة عدم رعاية

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ٨٩.

(٢) انظر: الحلية ٢/١٤٩.

العدل ونحو هذا. ويسير هذا مع الزمن فذو النون المصري يهدى إليه طعام وهو في السجن في عصر المتوكل العباسي فيمتنع عن الأكل قائلاً: طعام أتاني على مائدة ظالم فلا آكله[1].

وسهل التستري يمتنع عن عطاء الحاكم ابن الصفار حتى يرد كل المظالم التي عنده للناس، ولا يقبل منه مالاً بعد أن عالجه[2].

ولم تقف مسيرة إصلاح الحياة على يد الصوفية عند تاريخ معين، فالجيلاني في عصره ومتصوفة مصر في عصر الاستعمار، أو الصوفية في الهند، كلهم كانوا أكثر الناس حرصاً على أن يكونوا أصحاب كلمة الحق عند سلطان جائر.

ج - مجال نشر الإسلام:

تلك حقيقة لا تحتاج من قارئ التراث الصوفي أكثر من أن يعرف كيف قامت الطرق القادرية (نسبة إلى عبدالقادر الجيلاني) والسنوسية (نسبة إلى محمد بن علي السنوسي) كيف قامت هذه الطرق بنشر الإسلام في أماكن عديدة، وعليه أن يعرف أن الإسلام انتشر في الهند بفضل الصوفية وطرقها مثل (الجشتية والكيروية، والنقشبندية وغيرها) ويعلل البعض ذلك بقوله: إن التوافق بين المسلمين والكافرين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطلبون ويقرضون ولا يأملون في شيء، وكذلك كان الحال في أندونيسيا[3].

وحسبنا أن نذكر أن السنوسية - كمثال - قد اتخذت وسائل عديدة لنشر الإسلام، لعل من أهمها أنها كانت تشتري الأرقاء صغاراً من السودان، ثم تربيهم في زواياها حتى إذا تم تعليمهم وأصبحوا قادرين على التعليم أعتقوهم وسرحوهم إلى بلادهم ليعودوا دعاة وهداة، وقد

---

(١) مرآة الجنان، لليافعي ٢/ ١٥٠.

(٢) الحلية ١/ ١٢٠.

(٣) انظر: الدعوة إلى الإسلام لأبي زهرة ص ١١٥.

كانوا يخرجون كل عام مائة من هذا النوع من التلاميذ[١].

وقد وصف الفرنسيون السنوسيين بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد[٢]، ويستدل رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية والتزامها بالإسلام الحنيف بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة الصوفية التي أقضت مضاجعها، ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته. وقد امتدح هذه الطريقة بقوله: (استطاعت فرنسا إفساد بأس بعض طرائق المتصوفة في إفريقيا واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية).

(ثم يذكر رشيد رضا كيف أن زوايا السنوسية في برقة وأواسط السودان كانت مدارس علم ومساجد عبادة، ومعاقل أمن وحماية، ومنازل ضيافة ومحطات تجارة، وثكنات مرابطة، عمرت بها البلاد، وأمن العباد، وكثر العُبَّاد، وحسب لها الطامعون كل حساب.

ولولا السنوسية لما ذاقت إيطاليا من جهاد العرب في برقة وطرابلس مما أفقدها مئات الألوف من الرجال، وألوف الألوف من الأموال)[٣].

إن هذه المجالات التي تبرز الدور التاريخي للتصوف الإسلامي ينبغي أن نقرأ التصوف وهي في وعينا، والقراءة في ضوء هذه الحقيقة تبعد الدارس عن الوقوع في خطأ الظن بأن التصوف الإسلامي كان على هامش الحياة الإسلامية.

الحقيقة الرابعة: أثر التصوف في العلماء والمصلحين

ولم يكن تأثير التصوف مقصوراً على العامة كما رأى البعض ولا على المثقفين، بل امتد أثر التصوف بعد أن اكتمل نضجه وثبتت قواعده علماً بين

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ١٤٦.

(٢) مجلة المنار، رشيد رضا ١: ٤٢٨.

(٣) السيد رشيد رضا، للدكتور درنيقة ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

العلوم، وفكراً له خصائصه، ومنهجاً مميزاً في التربية وإصلاح الحياة، هذه حقيقة ينبغي أن تكون واضحة جلية في عقل من يقرأ التراث الصوفي لتقويمه وتوظيفه في آن معاً.

ولعل أقدم تأثير للتصوف في العلماء المحافظين الرواية التي تذكر أن الإمام أحمد بن حنبل ذهب مستخفياً ليسمع الحارث المحاسبي وهو بين أتباعه، وبعد أن سمعه قال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم، وروى أنه قال: لا أنكر من ذلك شيئاً[1].

وهناك من الروايات ما يفيد حسن علاقة الإمام أحمد بن حنبل ببشر ابن الحارث وتعليقه على أخت بشر حين جاءت تستفتيه في الغزل في ضوء مشاعل الشرطة هل يجوز أو لا؟

فعندما علم أنها أخت بشر بن الحارث قال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها[2].

انتشار التصوف في الحنابلة:

وفى القرن الخامس الهجري بدأ تغلغل التصوف في الأوساط الحنبلية - أكثر طوائف الفكر الإسلامي محافظة وتشدداً - وذلك عن طريق الشيخ عبدالله الأنصاري الهروي (ت ٤٨١هـ) المعروف بشيخ الإسلام الذي قاد المريدين وألف الكتب العديدة في مختلف مسائل التصوف، ولعل أهمها شرحه لكتاب التصوف للكلاباذي (ت ٣٧٨هـ) وكتابه (منازل السائرين إلى الحق المبين) الذى شرحه كثيرون، لعل أبرزهم ابن قيم الجوزية في (مدارج السالكين) ولم يقف هذا التغلغل في الأوساط الحنبلية بل ظهر واضحاً لدى الفقيه الحنبلي مؤسس أول طريقة صوفية منظمة الشيخ عبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ).

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٩.

(٢) انظر: رسالة المسترشدين ص ٧٥.

أثر التصوف في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم:

لكن الأثر يبدو واضحاً لدى عالم سلفي يشيع عنه بعض الباحثين أنه عدو للتصوف برمته، وحقيقة الأمر غير هذا، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية (توفي ٧٢٨هـ) حيث يظهر تأثره واضحاً إذا نظرنا إليه من هذه الزوايا:

أ ـ زاوية نشأته وتاريخ حياته التي تفيض بالرقة والروحانية.

ب ـ زاوية الموضوعات التي تناولها في بعض كتبه وهي من مسائل التصوف الواضحة (انظر كتاب التصوف ضمن الفتاوى، وعلم السلوك).

ج ـ حديثه وموقفه من مشايخ الصوفية الأوائل حيث يعتبرهم مثلاً يحتذى وينقل عنهم الكثير، ويدافع عنهم في معرض هجومه على أصحاب التصوف الفلسفي وأصحاب الآراء غير السوية في مسائل التصوف.

أما ابن قيم الجوزية (ت ٧٥٦ هـ) فأثر التربية، وتلمذته لشيخ الإسلام ابن تيمية تركا في كتاباته الأثر الواضح للتصوف الإسلامي إعجاباً واستفادة من بحوثهم الأخلاقية (راجع: مدارج السالكين حيث يعد هذا الكتاب من أعظم كتب التصوف).

أثر التصوف في الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا:

فإذا ما جئنا إلى العصر الحديث وجدنا من عرف باتجاهه العقلي، ومن عرف بتعمقه في الفلسفة، ومن عرف باتجاهه الإصلاحي الاجتماعي، يلتقون جميعاً عند نقطة تأثرهم بالتصوف الحق. وإفادتهم من نظرات أهله وتجاربهم سواء كانوا من الأوائل الملتزمين أم من المعاصرين السائرين على نفس الطريق محققين التوازن بين المادة والروح. ونذكر ببعض الأمثلة:

فالإمام محمد عبده (ت ١٩٠٥م) وهو من هو عقلانية ومنهجية في التفكير، قد أصابه أثر التصوف من خال والده الشيخ درويش خضر الذي كان مريداً سنوسياً، يدعو إلى الإصلاح الروحي وفق منهاج الكتاب والسنة، وقد تعلم الشيخ محمد عبده منه الكثير، وحتى بعد أن ذهب إلى الأزهر

كان يجلس إلى الشيخ درويش في كل صيف يتعلم منه الخلق والسلوك الفاضل، وقد شجعه الشيخ درويش أن يجلس إلى الناس ويدعوهم ويختلط بهم، فكان له أكبر الأثر في شخصية محمد عبده.

وحين انتقد الشيخ محمد عبده التصوف في بعض كتاباته كان ذلك لأنه لم يجد نموذج الشيخ درويش سائداً بين كثيرين من أهل التصوف في عصره، وكأن به يقيس سلوكهم على ما رآه وتعلمه من الشيخ درويش خضر.

رشيد رضا: (١٢٨٢-١٣٥٤) هـ = (١٨٦٥-١٩٣٥)م

ولد في بلدة القلمون القريبة من طرابلس من أسرة تنتسب إلى آل البيت، وتلقى دراسته في قريته، وتتلمذ على عدة شيوخ أشهرهم: الشيخ حسين الجسر (١٣٢٧)، والشيخ محمود نشابة (١٣٠٨)، وعبدالغني الرافعي (١٣٠٨) والشيخ أبو المحاسن القاوقجي (١٣٠٥)

وتعلق منذ شبابه بكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، واتجه نحو التصوف الذى حببه إليه مشايخه، كالجسر ونشابة، وخصوصاً القاوقجي الشاذلي.

يقول رشيد رضا: (وأما الأستاذ الأول فهو كتاب إحياء العلوم للإمام الغزالي، الذي كان أول كتاب ملك عليّ عقلي وقلبي)[1].

كراماته:

يؤمن رشيد رضا بالكرامات، وجواز وقوعها، ولكنه يحذر من تصديق كل مدع للكرامة، ويشن حملة على الخرافات والأوهام، ويحذر من الغلو في كرامات الأولياء، ويحذرهم من طرق التلبيس المختلفة التي يلجأ إليها بعض الأدعياء[2].

---

(١) السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية، للدكتور محمد درنيقة ص٢١-٢٦.

(٢) السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية، للدكتور محمد درنيقة ص ٢٢٤ ـ ٢٣٣.

وبالرغم من ذلك فإن رشيد رضا يذكر لنفسه كرامات عديدة لا تقل عما يذكره المريدون لمشايخهم. منها على سبيل المثال:

١ ـ كان رشيد رضا، أيام سلوكه للطريقة النقشبندية، يشم وقت الذكر رائحة زكية، تأتي نفحة بعد نفحة ثم تذهب. فكان يعللها أولاً بأن بعض حاضري الختم كان يفتح زجاجة عطرية ثم يسدها دون أن يشاهده الحاضرون، لأن أعينهم تكون مغمضة مدة الختم. ثم يذكر رشيد رضا بأن ذلك صار يحدث له وهو يذكر الله تعالى ولو كان في خلوة بابها مغلق وليس مع أحد. ويعلن بأنه لا يجد لذلك تأويلاً[١].

٢ ـ وبينما كان مرة يريد الوضوء في جامع بلدته، القلمون، جاءه شاب فقال له كما قال الخليفة عثمان بن عفان لأحد الشبان الداخلين عليه: (يدخل أحدكم في عينيه أثر الزنا). فقال الشاب لرشيد رضا: إنها لمكاشفة، وإني كنت في الطريق إليك أغازل امرأة، وأمتع نظري بمحاسنها. فقال له رشيد رضا: (كلا لا مكاشفة وإنما هو شيء وقع في قلبي عندما رأيتك، وما أنا مما كان معك على يقين)[٢].

٣ ـ (وقيل لي مرة أن محمد زيدان القلموني مصاب بصداع يصرخ من شدته بأعلى صوته، فكتبت له ورقة وضعوها على رأسه، فشعر بأن رأسه انشق وخرج منه الوجع في الحال، ثم كانوا يعيرون ذلك الحجاب لكل مصاب، ويذكرون أنه يشفي، إلى أن خطر في بالهم أن يفتحوه ليروا ما كتب فيه، فرأوا فيه حرفاً واحداً من حروف المعجم كتب بعدد مخصوص، فاحتقروا ذلك فلم يعد ينفعهم، كما قيل لي بعد ذلك بسنين. وكنت أكتب نشرة للحمى فتشفي بإذن الله تعالى)[٣].

وقريب من ذلك ما حصل مع إسكندر الخوري الذي كان مصاباً

---

(١) مجلة المنار، ٧: ٤١٥.

(٢) مجلة المنار ٢: ٦٥٨.

(٣) مجلة المنار ٣٣: ٣٧٢.

بصداع حاد، فوضع رشيد رضا يده على رأس المريض، ورسم عليه كلمة كان مجازاً بها، فذهب الوجع حالاً. وفى عام ١٣٣٠/ ١٩١١م ولما كان رشيد رضا مسافراً بإحدى السفن من البصرة إلى بغداد، وجد فتاة مريضة مضجعة، وقد اشتدت عليها الحمى، فلما قيل له أنها يتيمة فقيرة رثى لحالها ورقاها، فقامت في الحال.

لا بل إنه يذكر أن كراماته قد تعدت الآدميين إلى الحيوانات، من ذلك أن والدته قد استكتبته حجاباً طلبه منها بعض نساء الأعراب لوضعه على الغنم، لأن الموت قد فشا فيها. فلما وضع حجابه على رأس أكبر كبش فيها ذهب الوباء عن الغنم.

ويخلص إلى القول: (ثم تركت هذه الحجب والنشرات للمرضى والمعقودين من النساء، وكذا الرقى إلا نادراً لحديث في صحيح مسلم: **«من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه»** واجتنبت فتح هذا الباب علي، بعد هجرتي لمصر لأن الفتنة فيها بهذه الأمور أكبر، إلا لأهل الدار قليلاً)[1].

رأيه في التصوف:

وبين رشيد رضا أن علم التصوف ينقسم إلى قسمين: القسم الأول وهو يبحث في تهذيب الأخلاق وتأديب النفوس بآداب الشريعة، ويهتم بمحاسبة النفس على الإخلاص لله، ومطالبتها بكمال التوحيد الذي لا يشهد صاحبه فعلاً لغير الله، وهذا هو لباب الشريعة، وحال هذا القسم رجال الرسالة القشيرية، رضي الله عنهم، وكان هؤلاء على طريقة الصحابة والتابعين في أخلاقهم وآدابهم، وزادوا عليهم الكتابة والتأليف.

أما القسم الثاني، فيتكلم فيه المتصوفة عن الأذواق والمواجيد، وعلم الأسرار والتحقيق، وقد تاه في ذلك عدد من المتصوفة، ودخلت فيه البدع والخرافات. وأصحاب هذا القسم انتحلوا اسم التصوف وانتسبوا إلى أولئك

---

(١) المصدر السابق.

المهديين بالقول وخالفوهم في العلم والعمل والأخلاق والأدب.

وهكذا فإن رشيد رضا يميز بين عدة أنواع من الصوفية:

١ ـ **صوفية الحقائق**: الذين هم أقرب إلى الفلاسفة الروحيين الإشراقيين، الذين يقولون بوحدة الوجود، أي ليس عندهم إلا وجود واحد له مظاهر ومحال. ومن خاض في كلام صوفية الحقائق غير عالم برموزهم ضل، وربما كفر، وأنه لا يجوز سلوك طريقهم إلا على يد شيخ عارف من الواصلين ومن العلماء العاملين.

٢ ـ **صوفية معتدلون**: وأهل حديث، كشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي، صاحب كتاب «منازل السائرين».

٣ ـ **صوفية غلاة**: مثل غلاة الرافضة من الإسماعيلية والبهائية، ومنهم البكتاشية.

٤ ـ **صوفية الأخلاق وأهل السنة**: كأبي حامد الغزالي[١].

ويخلص رشيد رضا إلى القول: «إن الصوفية ثلاث فرق: صوفية الأخلاق المهتدين بالكتاب والسنة، وهم من خيار أولياء هذه الأمة.

وصوفية الفلسفة الهندية كغلاة الشيعة الباطنية، وهم شر المبتدعة الهدامين.

وصوفية التقليد، وهم أهل الطرائق والزوايا الكسالى، وإن هم إلا صوفية أكل واحتفالات وبدع وخرافات، إلا قليلاً منهم[٢].

ويميز رشيد رضا بين طائفتين من المشايخ:

أ ـ «أئمة عارفون يهدون بالحق وبه يعدلون، سلكوا سبيل السلف الصالح في التواضع، والتبرؤ من دعوى الامتياز والتنصل من الشطحات والطامات التي لا يشهد لها الشرع.

---

(١) مجلة المنار ٢٥: ٥٧٩ نقلاً عن كتاب درنيقة ص ١٩٦.

(٢) مجلة المنار ٣٣: ٥٦٢.

وحصروا الإرشاد بالعلم النافع والعمل الصالح، والتخلق بالأخلاق الفاضلة. واهتدى بهم خلائق لا تحصى، وكيف لا يهتدي من يقتدي بالعالم العامل، ويطيع الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر»[1].

ب ـ شيوخ جهال أشاعوا الضلالات في نفوس أتباعهم: لقنوهم الجبر بعنوان التوحيد والقضاء والقدر، وعلقوا نفوس مريديهم بالشيوخ أحياءً وأمواتاً، وألزموهم بالاستعانة بهم في قضاء حوائجهم بحجة أنهم أصحاب كرامات، وأنهم شفعاء عند الله، وأنهم واسطةٌ بين الله سبحانه وبين عباده.

فإن كان الشيخ حياً كان واسطة جسدية، وإن كان ميتاً فهو واسطة روحية.

واستغل هؤلاء اسم الزهد ليدفعوا بالمريدين إلى التكاسل عن طلب الأعمال النافعة والمصالح العامة... ثم استخدموا مكانتهم لدى الجماهير لخدمة سياسة الأجانب، وتمكينهم من السيطرة على بلادهم وأمتهم[2]

خلاصة رأيه في التصوف:

فالصوفية، في رأيه، جماعة انقطعت إلى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، عن طريق رياضة النفس ومحاسبتها، وحسن النية، وتربية الإرادة، والمبالغة في العبادات حتى يتوصلوا إلى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى.

الرياضة هذه «تثمر للصادق فيها علماً وعرفاناً بسنن الله في الأرواح وأسرار قواها، وأحوالاً وأذواقاً غريبة غير مألوفة، ولا معروفة لغير أهلها، منها التأثير بقوة الإرادة، ويسمونه التأثير بالإرادة أو الهمة. ومنها معرفة بعض الأمور من غير طريق الحس أو الفكر وهو ما يسمونه الكشف. ومنها: الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها، وصفات النفوس البشرية وعللها...»[3]

---

(١) مجلة المنار ٣٣: ٥٦٢.

(٢) المنار ١: ٤٠٩ ـ ٤١٠ نقلاً عن كتاب رشيد رضا ـ ص ٢٠٠.

(٣) مجلة المنار ٢٢: ١٧٦.

ويعلن رشيد رضا بأنه ما لبث أن سرى في هذا التصوف الكثير من بدع الشعوب القديمة وشعائرها وشاراتها مثل نظرية وحدة الوجود، كما أن الباطنية قد بثت في التصوف ضلالات أخرى أخطرها التأويل البعيد للآيات والأحاديث، وقضية إطاعة المريد لشيخه طاعة عمياء، وعدم الاعتراض عليه: كما أن بعض مدعي التصوف قد اندسوا بين صفوف أهله وأخذوا يعملون على تشويه سمعة الصوفية بما نشروه من آراء وأفكار بعيدة عن التصوف الإسلامي المعتدل.

ولكن كيف يمكن للتصوف أن يتخلص من هذه البدع والانحرافات[1]؟.

يرى رشيد رضا بأن ذلك لا يتم إلا باستخدام الميزان الذي يعرف به الحق والباطل، والراجح والمرجوح. هذا الميزان هو كتاب الله والسنة النبوية وسيرة أهل الصدر الأول العاملين بهما على أكمل الوجوه[2].

وجملة القول في صوفية المسلمين أن علماءهم كسائر أصناف علماء المسلمين الذين استعملوا عقولهم في الدين من المتكلمين والفقهاء، كل صنف قد انفرد بالتوسع في علم فجاء فيه بما لم يجئ به غيره، وكل منهم أخطأ وأصاب. فالصوفية أتقنوا علم الأخلاق، والآداب الدينية، وحكم الشريعة وأسرارها، وطرق تزكية النفس وإصلاحها، وهذا غرض الدين ومقصده، فإن كانوا قد غلوا وأتوا ببعض ما يخالف النصوص، ودخل في كتبهم وأعمالهم من تصوف الأمم السالفة ومن البدع ما ينكره الإسلام، فالمتكلمون وكذلك الفقهاء قد دخل في كتبهم مثل ذلك.

ولكن ما وجه الحاجة إلى التصوف مع وجود الكتاب والسنة؟ يذكر رشيد رضا بأن بعض المسلمين كان قد شعر بالحاجة إلى تدوين الكتب لبيان طريقة التربية والتأدب بالآداب المنصوصة فيهما، أو المستنبطة منهما والمفصلة لما فيهما من الإجمال[3].

---

(١) مجلة المنار ٢٢: ١٧٧.

(٢) مجلة المنار ٤: ٢٦٠.

(٣) مجلة المنار ٢٢: ١٧٩ ـ ١٨٠.

وقد كان وما يزال لكتب الصوفية تأثير مهم في إقبال غير المسلمين على الدخول في هذا الدين. فكم من عالم اعتنق الإسلام بعد اطلاعه على كتب الصوفية ومدوناتهم الأمر الذي دفع برشيد رضا إلى الإعلان بأن أغلب الداخلين في الإسلام كانوا من باب التصوف[1].

لذلك كان رشيد رضا يهتم بكتب التصوف التي لا تتعارض مع الكتاب والسنة، ويقرظها مبيناً فوائدها العميمة في مجال التربية الخلقية والتهذيبية. فقد جاء في تقريظه لكتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» قوله: (هذا الكتاب للإمام الحافظ المحقق ابن قيم الجوزية، شرح فيه كتاب (منازل السائرين) في التصوف لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي شرحاً بيّن فيه غوامضه، وفصل بين ما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه، فهو أفضل كتب التصوف وأنفعها.

كما أنه اختار لطلاب مدرسة الدعوة والإرشاد أن يتربوا على الأخلاق والآداب التي كان عليها قدماء الصوفية. وقام بربط جماعة الدعوة والإرشاد بمشيخة الطرق الصوفية حتى يمهد السبيل للمرشدين الذين يتخرجون لإصلاح شؤون العامة، لأن أكثر العامة تنتمي إلى الطرق الصوفية)[2].

ويدافع عن سلوك شيخه، محمد عبده، طريق الصوفية بقوله: (أما الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد قيض الله تعالى له رجلاً من أكابر الصالحين، في أوائل توجهه إلى طلب العلم، وقد أمره شيخه بثلاثة أشياء:

أحدها: أن يقرأ كل يوم جملة من القرآن مطالباً نفسه بفهمها وأن يراجعه فيما لا يفهمه.

ثانيها: أن يذكر الله تعالى في أوقات الفراغ مع حضور القلب بغير تقييد بعدد.

ثالثها: أن يتعلم كل علم أمكنه أن يتعلمه.

---

(١) مجلة المنار ٦: ٥٤٨.

(٢) مجلة المنار ١٧: ٣٠، ٤٦٨.

وهكذا كان، فإن كان هذا هو التصوف، فهذا ما ندعو إليه، ونسأل الله تعالى أن يوفق جميع المسلمين له)[1].

(ولا شك أن خير صوفية هذه الأمة السابقون الذين كانوا لا يتصوفون إلا بعد تحصيل علم الكتاب والسنه والفقه، والاعتصام بالعمل على طريقة السلف كالإمام الجنيد وطبقته. ثم ظهر فيهم الغلاة ومن يسمون صوفية الحقائق، فابتدعوا ما أنكره عليهم الأئمة)[2].

فهو ينتقد أصحاب النظريات الفلسفية في التصوف أي أصحاب نظريتي الحلول والاتحاد. وبالرغم من أنه يعتبر أن أغلب مشايخ الطرق ينسبون أنفسهم بالباطل إلى آل البيت، وأن هذه الطرق مليئة بالبدع والخرافات فإن الطريقة المولوية أيدها الأتراك، كما أن الطريقة النقشبندية ليس لها تقاليد ولا مظاهر بدعية، وإنما ينكر عليها المعتصمون بهدي السلف مسألة الرابطة والتزام الذكر غير المأثور[3].

ويلخص رشيد رضا رأيه في التصوف بقوله: (إنما الإسلام علم وهدى فلا تغتر بدعوى حي ولا ميت ولا بشهرته، ولا بخوارق العادات الصورية ولا المعنوية له، واعتبر بما أفشيته لك على خلاف عادتي، من تجاربي واختباري في بدايتي، ومنه أن بعض الأمور الروحانية التي تثمرها رياضة التصوف قد تكون فتنة تعقب صاحبها ضلالة، وأن بعض الأنوار التي تتراءى لبعضهم خيالات شيطانية، وأن المكاشفات التي تحصل لهم كلها خواص نفسية)[4].

تصوفـه:

هل يمكننا اعتبار رشيد رضا من الصوفية؟

---

(١) المنار ٤: ٤٣١.

(٢) المنار ٣٠: ٧٥٤.

(٣) المنار ٢٩: ٦٨٣ وسيأتي مناقشة موضوع الرابطة والذكر غير المأثور في المباحث الآتية.

(٤) المنار ٣٣: ٥٤٢.

سؤال اختلفت الإجابات عليه، فهناك من يرى أنه كان يحارب التصوف ويهاجم المتصوفة. وهناك من يرى بأنه كان متصوفاً زاهداً.

لقد ذكر رشيد رضا عن نفسه، وتحت عنوان «تألهي ونسكي وتصوفي»، أنه نشأ في حجر العبادة حتى ألفها وجدانه، ونشطت بها أعضاؤه من الصغر.

لذلك أصبحت العبادات خفيفة عليه في الكبر: كنت من سن المراهقة أذهب إلى المسجد في السحر ولا أعود إلى البيت إلا بعد ارتفاع الشمس. وقد اتخذت لنفسي حجرة خاصة للمطالعة والعبادة، وهذه الغرفة كان يخلو فيها جدنا السيد علي الكبير الذي بنى المسجد، وكانت هذه الغرفة ملتقى العلماء والأدباء الذين يزورونا في القلمون، يطالعون ويراجعون فيها ويتحاورون، وكان شيخنا الجسر يستقرئني فيها إما بعض فصول الفتوحات المكية، وإما بعض فصول كتاب الفارياق... وكانت تلذ لي صلاة التهجد تحت الأشجار من بساتيننا الخالية، وأفكر في صدق من قال: أهل الليل في ليلهم أنعم من أهل اللهو في لهوهم.

وقول آخر: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف.

نعم إن للبكاء من خشية الله وتدبر كتابه في صلاة الليل، حيث يعلم المصلي أنه لا يسمع صوته أحد إلا الله، لذة روحية تعلو كل لذات الضحك واللهو على اختلاف أسبابها)[1]

ثم يذكر رشيد رضا كيف أنه كان يقرأ ورد السحر، وعندما يبلغ البيت التالي:

ودموع العين تسابقني من خوفك تجري

كان يمتنع عن قراءته، لأن دموعه لم تكن لتجري، فكان امتناعه عن قراءة البيت حياء من الله أن يكذب عليه.

---

(١) المنار ٣٣: ٣٥٣.

(وقد طلبت من أعبد عُبَّاد شيوخ الطريق، في عصرنا، الشيخ أبي المحاسن محمد القاوقجي أن يسلكني الطريق على أصولهم في الرياضة والخلوة والترقي في منازل المعرفة، وصرحت له بأنه لا يعجبني أن أسلك طريقة الشاذلية الصورية بقراءة أورادها وحضور اجتماع أذكارها. وكنت حضرت هذا عنده مراراً، وحفظت حزب البر بقراءته معهم فاعتذر وقال لي: يا بني إنني لست أهلاً لما تطلب، فهذا بساط قد طوي وانقرض أهله. فرحمة الله واسعة)[1]. فقد طلب رشيد من شيخه القاوقجي السلوك الصحيح بالرياضة والتعبد كالمتقدمين من الصوفية، لكن شيخه بيّن له أنه ليس أهلاً لذلك دلالة على تواضع هذا الشيخ الجليل.

وعن تأثير مطالعته للجزء الرابع من إحياء علوم الدين يقول: (كنت في أثناء شهر رمضان أتحنث وأطالع الربع الرابع من إحياء علوم الدين، فلما كان آخر يوم منه بلغت كتاب التوحيد والتوكل، وقد أحييت معظم ليلة عيد الفطر بالتكبير مع جماعات من أهل بلدنا الذين يبيتون في المسجد كيلا تفوتهم صلاة العيد، حتى إذا كان السحر صليت صلاة الليل والوتر إحدى عشرة ركعة وفاقاً للسنة الصحيحة كالعادة، وعدت بعد صلاة الفجر إلى التكبير مع الناس في المسجد إلى وقت صلاة العيد، وبعد أدائها صعدت إلى غرفة خلوتي وأتممت قراءة ما بلغته من الإحياء، وفيه ذلك البحث البليغ العظيم التأثير في الفناء في التوحيد، فما أتممته إلا وشعرت بأنني في عالم آخر من اللذة الروحية، وأنه لم يبق لي وزن، فكأني روح بغير جسم. ونزلت من الغرفة وكأنني ريشة طائر، وشعرت بأنني لو ألقيت بنفسي من النافذة إلى الأرض لا أكون إلا كما تقع الريشة، وأنه يمكنني المشي على الماء، دون الطيران في الهواء ، واعتقدت، بل أعتقد حتى اليوم، أنني لو تركت الطعام زمناً طويلاً مع ملازمة مثل تلك الحال من الذكر والعلم الإلهي الأعلى لقويت معي تلك الروحانية)[2].

---

(١) المنار ٣٣: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) المنار ٣٣: ٣٦٠.

ويذكر بأنه لم يكن ليصرح بهذه الأحوال لأحد، بل آثر الكتمان كما كان يفعل الصوفية الصادقون.

وفي رأيه أن هذه الأحوال للسالك، وأن الذي يغتر بها ينقطع ويهلك، ولا يجوز التحدث عنها إلا مع أهلها لأنها تكون لغيرهم فتنة[1].

وعندما علم رشيد رضا من صديقه الشيخ محمد الحسيني أن هناك شيخاً واصلاً «مرشداً كاملاً» في الطريقة النقشبندية، سلك مع صديقه هذه الطريقة وقطع مراتب اللطائف كلها، ورأى في أثناء ذلك كثيراً من الأمور الروحية الخارقة للعادة، فكان يتأول الكثير منها كما أنه عجز عن تأويل بعضها.

هذه الثمرات الذوقية لم يصل إليها رشيد رضا إلا بالرياضة وكثرة الذكر والفكر.

من ذلك أن ورده اليومي في تلك الطريقة ذكر اسم الجلالة (الله) بقلبه خمسة آلاف مرة، مغمض العينين، حابس النفس قدر الاستطاعة مع ربط قلبه بقلب شيخه. ثم ما لبث أن أنكر هذا النوع من الذكر، وهذه الطريقة من الربط لأن مقتضى التوحيد، في رأيه، أن يتوجه العبد في كل عبادة إلى الله وحده، لذلك فالتوجه إلى الشيخ قد يكون من الشرك الخفي، وإن لم يقصد به عبادته[2]: (وجملة القول أنني كنت أعتقد أن سلوك طريقة المعرفة وتهذيب النفس والوقوف على أسرارها جائز شرعاً لا حظر فيه، وأنه نافع يرجى به من معرفة الله ما لا يوصل إليه بدونه، ولكنني لم أعتقد قط أن الشيخ الذي أرتبط به قادر على شيء مما تقدم، ولم أكن أستحضره ولا أتصوره في أثناء الذكر، وإنما أتصور عند البدء به أنني ربطت قلبي بسلسلة من القلوب المخلصة لله تعالى هو طرفها الأدنى، فزدت فيها حلقة جديدة.

---

(١) المنار ٣٣: ٣٦١.

(٢) المنار ٣٣: ٣٥٥.

وإن هذه الرابطة لها تأثير في الإمداد الروحي كما تصل مصباحاً كهربائياً بالسلك الممتد إلى مولد التيار الشامل لمصابيح الدار كلها أو البلد كله)[1].

وكان رشيد رضا يفتخر بنيله رضاء كبار شيوخ الطرق الصوفية لا سيما أصحاب النفوذ الروحي. فقد كتب الشيخ علي الميرغني، رئيس الطائفة الميرغنية في مصر والسودان، معلناً عن رضاه عن «المنار» وصاحبه فيقول: (ويسرنا أن نبلغكم مزيد سرورنا وارتياحنا لهذه المجلة القائمة بالخدمات الصادقة الجليلة للإسلام والمسلمين، ونسأل الباري أن يكلل عملكم المفيد بالنجاح والفلاح)[2].

ومع ذلك فإن كان ينكر الحكايات المأخوذة من كتب الصوفية الذين لا يزنون كل ما يوردونه بميزان الشرع كالشعراني[3].

ويعبر عن تجربته الصوفية بقوله: (إنني قد سلكت الطريقة النقشبندية، وعرفت الخفي والأخفى من لطائفها وأسرارها، وخضت بحر التصوف ورأيت ما استقر في باطنه من الدرر، وما تقذف أمواجه من الجيف، ثم انتهيت في الدين إلى مذهب السلف الصالحين، وعلمت أن كل ما خالفه فهو ضلال مبين)[4].

أقول: ومذهب السلف الصالحين هو طريق العلماء العاملين من الربانيين الصادقين، من أرباب البصائر والقلوب، من أهل التصوف الصادق النقي.

وقد حذر رشيد رضا من مدعي التصوف وما أدخلوه من بدع ومنكرات، وخاصة في الاحتفالات والموالد، ولذلك تصدى لانحرافات الموالد.

---

(١) المنار ٣٣: ٣٥٦.

(٢) المنار ٥: ٩٥٨.

(٣) المنار ١٤: ٤٢٩.

(٤) المنار ١١: ٥٠٧.

ويحصر رشيد رضا المنكرات التي شاهدها في مولد السيد البدوي بالمسجد الأحمدي في طنطا بالأمور الآتية:

١ - التوقف عن قراءة العلم وإفادة المتعلمين حتى يخلو المسجد للذاكرين والطائفين...

٢ - ترك صلاة الجماعة التي يحضرها أهلها المواظبون عليها في ذلك المسجد، بالرغم من أن المحتفلين بالمولد يقومون ببعض صلوات تقام بين عزف العازفين، وصراخ الصارخين، ومدافعة المارين، أي أنها تخرج عن صورتها الشرعية.

٣ - التشويش على المصلين بدق الطبول والدفوف، والنفخ بالشبابات والمزامير، وصراخ المستصرخين بالسيد (قدس سره العزيز) وصياح المنادين له، وجلبة الذاكرين وضوضاء الوفود والجموع، ومرور الجم الغفير بين يدي المصلي حتى لا يدري ماذا يعمل.

٤ - تقبيل أعتاب المقصورة التي فيها قبر السيد، ولمس قفصه والتمسح به وتقبيله.

٥ - طلب الحوائج والمصالح من السيد (تغمده الله تعالى برحمته)، فهم ينادونه: يا سيد اشفِ مريضي. يا أبا فراج فرج كربتي. يا شيخ العرب تصرف بعدوي... ويندفع البعض إلى استنهاض همة السيد، ويتقربون إليه لقضاء مصالحهم بالدراهم، فقد وضع بجانب القبر صندوق كبير مخروق سطحه خرقاً مستطيلاً بحيث يلقى منه كل نوع من النقود المتداولة. لكن رشيد رضا لا يعمم الحكم على هذه النذور المالية بالفساد لعدم إمكانية استقراء جميع الأفراد.

٦ - تقذير المسجد وتنجيسه، لا سيما من الأطفال الصغار الذين يكون المسجد ملعبهم ومبيتهم.

٧ - تمكين الأحداث والمعتوهين من تبوء المسجد.

٨ ـ اختلاط النساء بالرجال في كل نوع من أنواع الاجتماع حتى في النوم وفي الذكر[١].

محمد إقبال

أما الفيلسوف محمد إقبال (١٨٧٧ ـ ١٩٢٨م) المجدد الذي أراد أن يحدث انقلابا منطلقاً من الذات ومن أعماق ذلك الجانب الإلهي في الذات الإنسانية، فقد ظهر أثر التصوف في فكرته عن الإصلاح واضحاً جلياً، وليس ذلك بغريب على رجل تربى في بيت يغلب عليه التصوف حيث لجده كتابات واضحة فيه[٢]. وقد رأى إقبال أن تنمية الذات الإنسانية وتحريرها تتطلبان أن يتخلق الناس بأخلاق الله عز وجل. وأن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود، وهنا تصبح العقبات والمشكلات في طريق الرقي الروحي للإنسان لا شيء، فلا الزمان ولا المكان ولا العلم المادي بأسره، ولا الشيطان نفسه بقادر على أن يثني الإنسان عن عزمه على الرقي الروحي الدائم وشوقه إلى الاتصال بالحقيقة الخالدة والوصول إلى الله.

وهو يرى أن للإنسان وجودين: وجوداً ككل الناس الذين يولدون، ووجوداً إيمانياً وهو حمل الرسالة التي هي حب الرسول واتباعه وتخلقه بأخلاق الله، فهو في تسامحه يتخلق بالغفار، وفي شدته وغضبه للحق يتخلق بخلق القهار، وفي نزاهته وعفته يتخلق بخلق القدوس[٣].

ولقد تحدث إقبال عن التصوف باعتباره رياضة روحية وحقيقة من حقائق الحياة، وقد نظم التصوف الإسلامي هذه الرياضة في نسق منهجي منظم، فكانت مصدراً من مصادر المعرفة في الفكر الإسلامي.

ويسمي إقبال التصوف: علم النفس الديني (أما في تاريخ الثقافة الإسلامية فإننا نجد أن المثل الأعلى في مجال العقل المحض، وفي ميدان

---

(١) المنار ١: ٩٥ ـ ٩٦ نقلاً عن كتاب رشيد رضا وجهوده لدرنيقة ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) انظر: روائع إقبال، للندوي ص ٢٥.
(٣) روائع إقبال ص ٢٥.

علم النفس الديني، وأعني بهذا المصطلح الأخير التصوف العالي الرفيع، إنما هو تحصيل اللانهائي وإسعاد النفس به)[1].

وقد انتقد إقبال التصوف الذي لم يتحقق فيه إعلاء الذات والتخلق بأخلاق الله والذي انعطف إلى الفلسفة فقال بنظريات تخالف العقيدة الإسلامية، فقد انتقد التصوف حيث ركز على الباطن وأهمل الظاهر وهو ميدان العلم والتجربة، ونحن مأمورون بهما من خلال الآيات التي تلفت النظر إلى الكون من حولنا.

وإن كان يقرر أن عوام المسلمين لم يفهموا هذا البعد في الثقافة الإسلامية نتيجة انتشار الجهل، فكان اتباعهم الأعمى للطرق الصوفية دون تمحيص أو تدقيق[2].

وانتقد إقبال التصوف في نزوعه إلى الرهبانية، وفي شطحات البعض التي تتعارض مع ما يحث الإسلام عليه من الجهاد والحركة، كما انتقد مذهب وحدة الوجود الذي قال به بعض الصوفية، وكذا الفناء والاتحاد باعتبار أن هذه كلها خروج عن روح الإسلام ورسالة الإنسان في الحياة، وقد علق على شطحات الصوفية وما يتصل بها من خيالات بقوله: (إن هذا القول جميل في الشعر، ولكنه في الواقع خداع للأبطال، مثبط للجهاد، وإنها لأفكار تشيع الذلة والخنوع)[3].

ولا تعارض بين أثر الصوفية في تربية إقبال وفكره وبين نقده لنوع من التصوف وهو ما أسماه التصوف العجمي، حيث رآه غريباً عن روح الإسلام الناهضة التي تخلق الإنسان اليقظ المجاهد ليكون كفؤاً لتحقيق رسالة الإسلام في الحياة. ولا غرابة في هذا فقد انتقدت هذه الأفكار من الصوفية ذاتهم قديماً وحديثاً.

---

(١) تجديد الفكر الديني: محمد إقبال ص ١٥٢.

(٢) تجديد الفكر الديني: محمد إقبال ص ١٧٣.

(٣) محمد إقبال: سيرته وفلسفته وشعره، للدكتور عبدالوهاب عزام ص ١٢٣.

وقراءة التصوف الإسلامي في ضوء هذه الحقيقة تؤكد أن هذا اللون من الفكر كان ظاهرة اجتماعية وعلمية في آن معاً، وجد فيه عامة الناس طريقاً للخلاص من الاضطراب الذي كانت تعج به الحياة السياسية آن نشأة التصوف الإسلامي، وبخاصة أن دعاته ربطوه بمصادر الإسلام من قرآن وسنة.

كذلك وجد فيه العلماء ـ على اختلاف اتجاهاتهم ـ والمصلحون على اختلاف عصورهم. مادة خصبة استعملها كل في دعوته للإصلاح ونهضته بالأمة، لذا فإن من يقرأ هذا الفكر ليقومه ويوظفه في حياة المسلم المعاصر مدعو أن يدرك أن هؤلاء العلماء والمصلحين كانوا يبحثون ـ داخل التراث الإسلامي ـ عن كل تجربة أو رأي يمكن أن يخدم قضية العلم أو النهضة بهذه الأمة، فإذا ما درسوا هذا الفكر وأقروا الملتزم منه، وانتقدوا المعوج فإن ذلك يعني أنه لون من الفكر الإسلامي يمكن أن نفيد منه، ومن الخطأ بل من التجاوز الواضح أن نطرحه بعيداً عن روافدنا للمشروع الإسلامي بحجة أو أخرى شاعت بين الناس أو روجها أعداء فكرنا بيننا.

● ● ●

ضوابط منهجية لقراءة التصوف الإسلامي

أولاً: ضرورة تجاوز نقاط الخلاف الشكلية والدخول إلى المضمون:

إن الدخول إلى المضمون سوف يضيق هوة الخلاف - إن لم يقض عليها نهائياً - بين المتحاورين حول هذا الجزء من تراثنا، ذلك أن الأخلاق التي هي أبرز ممارسات هذا التراث سمت أصيل للإسلام ذاته، فإذا كان البعض يقرر هذه الحقيقة: - وهي أن التصوف خلق - كما يقول ابن القيم: (واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق... وأن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب ولذا سمي بعلم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سمي بعلم الظاهر، يقول الكتاني: (التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء)[1].

أقول: إذا كان هذا جزءاً هاماً من مضمون التصوف الإسلامي، فإن من المقرر أنه أخذه من قوام الدين «الإسلام» الذي نشأ في كنفه. فقد امتدح القرآن نبي الإسلام محمدا ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهو ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». وقول

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٧.

عائشة رضي الله عنها في وصف الرسول الكريم: «كان خلقه القرآن».

كذلك فإن التزكية وأدب النفس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل حقيقة شرعية قررها الكتاب والسنة وطبقها الرسول ﷺ وصحابته والتابعون، ومن سار سيرهم وكان لذلك كله أثره في الحياة الإسلامية اعتدالاً، وزهداً، وشجاعة في الحق ونحو هذا مما تلتزم به النفس الزكية المحسنة.

ولو رجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأملنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين. ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ «التزكية» ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الكريم لتحقيقها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم[1].

إن تحديد الهدف والدخول إلى المضمون أمر منهجي يؤدي الالتزام به إلى الالتقاء حول الحقيقة الشرعية التي هي الكيفيات الباطنية التي تصاحب الأعمال والهيئات عند أدائها وهي أخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام، وتجعل منها علماً مستقلاً وفقهاً منفرداً[2].

وقد اتفق على هذه الحقيقة الشرعية ـ وهي مضمون التصوف ـ علماء اختلفت مشاربهم لكنهم جميعاً مسلمون يعرفون حقائق دينهم، فقد قرر هذه الحقيقة ابن القيم، وابن خلدون، وغيرهم مشيرين جميعاً إلى أن إطلاق لفظ

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ١١.

(٢) ربانية لا رهبانية ص ١٣.

الزهاد أو العباد أمر له ظروفه التاريخية، وجوداً ودلالة، وذلك لا يقدح في حقيقة المسمى.

إن الدخول إلى المضمون مباشرة يجنبنا أن نقع فيما أسماه البعض بجناية المصطلح على حقيقته ومضمونه، فقد كان مصطلح «التصوف» والخلاف حول دلالته، وتعريفاته، طريقاً للخلاف بين المسلمين حجبهم فيه الوقوف أمام الشكل عن حقيقة التزكية والتربية والإسهام الاجتماعي، وكل خير قدمه التصوف الإسلامي لمجتمعه باعتباره فكراً إسلامياً تضرب جذوره في مصادر الإسلام، ويأخذ نماذجه وقدوته من سيرة الرسول الكريم وصحابته ومن سار على طريقهم.

كل هذا حجب عن عين القارىء وذهنه لأنه شغل بالخلاف حول التصوف ونسبته إلى الصوف أو الصفة أو الصفاء أو إلى كلمة ليست في لغة العرب «صوفيا» وهذا لا يجدي للحياة، وإن كان يشغل به الباحثون في زوايا التاريخ، ولو فطن من يقرأ لهذه الحقيقة لعرف أن هذا التراث اجتهاد قوم لإثراء الحياة في جانب من جوانبها، كما أثراها علوم أخرى واجتهادات أقوام آخرين.

إن هذا المضمون للتصوف الإسلامي بجوانبه التربوية والإصلاحية يمكن أن نستفيد منه لحياتنا والذي كان سمة التصوف الإسلامي بوصفه السني أو الشرعي، وأنه ما جانبه هذا السمت إلا حين انتحل التصوف بعض الغلاة أو المنحرفين الذين كانوا موضع نقد الصوفية أنفسهم، وكذلك حين غرق التصوف في متاهات الفلسفة، فانتقل في نظريات بعض القوم إلى عبارات ودلالات لا يوافق عليها مسلم ملتزم، وهي كذلك لا تفيد الحياة في التربية أو التغيير إذ هي إلى شطحات الخيال أقرب منها إلى التحقق في الواقع. ونحن نقول مع أبي الحسن الندوي: «ليس لنا الآن إلا أن نقرر هذه الحقيقة، ونتحرر من القيود والمصطلحات، ومن النزعات والتعصبات، ولا نفر من حقيقة دينية، يقررها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنة، وتشتد إليها حاجة المجتمع،

والفرد لأجل مصطلح محدث أو اسم طارىء دخيل»[1].

ثانياً: ضرورة القراءة في تجرد واستقلال فكري

إن الدخول على فكر ما بفكرة سابقة في رأس القارئ يحرمه الموضوعية في الحكم، ويجعله لا يرى فيما يقرأ إلا ما يشهد لفكرته التي في رأسه، ويلجئه هذا المنهج إلى تأويل ما يراه على غير ما يهوى إلى ما يؤيد فكرته حتى ولو خالف أظهر قواعد التفكير ومناهج البحث، فالذي يقرأ فكر المعتزلة وفي رأسه حكم الفقهاء عليهم، ووصف أهل السنة لهم بأنهم المعطلة في الصفات، تراه لا يلتفت إلى أثرهم في الحياة العقلية، ولا إلى ما عرف عن شيوخهم من عبادة وصلاح، الأمر الذي يتناقض مع ما أشيع عنهم أنهم معطلة يعبدون عدما، بل ولا يلتفت إلى جهودهم في مناظرة اليهود والنصارى ودفاعهم عن الإسلام ضد المارقين.

وقد كان الأمر كذلك في قراءة البعض للتصوف الإسلامي حيث قرؤوه لإدانته أولا وقبل كل شيء، ولذلك وقعوا في فجاجة لا يقبلها منطق، ولا يقرها المحققون من العلماء.

ونشير إلى أمثلة وقعت في التعميم وربما التناقض نتيجة للقراءة من موقف محدد سلفاً، فابن الجوزي «أبو الفرج عبدالرحمن ت ٥٩٧ هـ» الفقيه الحنبلي هاجم التصوف في مواطن شتى من كتبه، وكان جماع هجومه في كتابه: «تلبيس إبليس»، ولا يعنينا هنا الهجوم أو المدح بقدر ما يعنينا أن ابن الجوزي في مسلكه هذا الذي عمم فيه الحكم على التصوف ورفضه شكلاً ومضموناً، وجرح كل الكتابات التي كتبت من فقهاء صوفية كالجنيد أو المحاسبي أو المكي أو الغزالي أو المقدسي وجردهم جميعاً من العلم بالسنة.

إن هذا المسلك مع ما فيه من تعميم لا يوافقه عليه أشد الناس سلفية

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ١٤.

وهو شيخ الإسلام ابن تيمية[1] يظهر تناقضاً واضحاً، فهو من جهة يذكر أن أوائل الصوفية كانوا يعولون على الكتاب والسنة فكيف يجوز التعميم على كل الصوفية كما وضح في كتابه سالف الذكر، وهو من جهة أخرى له كتاب ترجم فيه للعديد من أوائل الصوفية وشيوخهم وهو كتاب «صفة الصفوة» وفيه ينقل الكثير من أقوالهم التي تفيد العلم الذي نفاه عنهم في كتابه «تلبيس إبليس» فضلاً عن اتهامهم بكثير من التهم، فكيف يقبل هذا؟!!!

معاصرون متعصبون:

أما المعاصرون الذين قرؤوا التصوف بعيون غير موضوعية فكثيرون من جهة، وأمرهم عجيب من جهة أخرى، فهذا أحدهم يسقط رغبته في تجريح التصوف على كتابات بعض العلماء ويؤولها إلى ما يريد هو لا ما يريد المؤلف، فكتاب «مصرع التصوف» الذي نسب إلى برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) كان أصله كتابين مستقلين أحدهما في تكفير ابن عربي، والآخر في تكفير ابن الفارض، فجاء عبدالرحمن الوكيل، وجمعهما في كتاب واحد سماه «مصرع التصوف» وأضاف إليه من العناوين ما يحقق به هدفه هو.

وكان إنكار البقاعي منصباً على ما نُسب إلى ابن العربي وابن الفارض، وفيهما ألّف كتابيه (تنبيه الغبي) و (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد)، ولم يؤلفهما ليصرع التصوف؟!

فما فعله ناشر الكتاب (عبدالرحمن الوكيل) تلبيس وإفك، بتسميتهما (مصرع التصوف) ووضع عناوين في الكتاب من كيسه، ثم تعليقاته التي خرج فيها عن العدل والإنصاف، وطالت بذاءته أكابر الأمة: كالجنيد، ومعروف الكرخي، وسري السقطي (ص٢١١ و ٢٦٠) والغزالي (ص٢٣ - ٦٧) ونال من كتاب «الشفا» للقاضي عياض (ص ٢٤) ويعلق تعليقه الأثيم على قول البقاعي نفسه (٢٠٩): (فإن المحققين منهم بنوا طريقهم على الاقتداء بالكتاب والسنة) بقوله الأثيم: (كتب الصوفية سلفهم وخلفهم لتشهد

---

(١) انظر: الفتاوي: علم السلوك ١٠: ٢٣٦٧، ٥٥١.

عليهم بنقيض هذه الدعوى الكذوب)؟ فإذا كان البقاعي كذاباً فكيف يعتمد كلامه ويخرجه إلى الناس ويصرع به التصوف كما زعم؟.

علماً بأن البقاعي قد ذكر صراحة تقديره لأوائل الصوفية، بل ولمتأخريهم الذين لم يذهبوا مذهب ابن عربي أو هاجموه، ومنهم علاء الدين البخاري (٨٣٤هـ)، كما ذكر البقاعي أنه لا يبغض التصوف لكنه يبغض من أبغضه أوائل الصوفية ومحققوا متأخريهم ممن حاد عن الطريق السوية[١].

والغريب أن محقق الكتاب عاب على المؤلف إنصافه وإقراره أن الصوفية فقهاء، فقال معلقاً على المؤلف «هذه دعوى كذوب»[٢].

ولا عجب فقد قال جميل غازي: محقق «رسالة الصوفية والفقراء» لابن تيمية لشيخ الإسلام: (لا يا شيخ الإسلام مبيناً أن التصوف هو الداء الفتاك بهذه الأمة وأنه عدو التوحيد، ونقيض الإيمان). وما ذلك إلا لأن المحقق كان يريد أن لا يقع ابن تيمية في هذا الإنصاف للمحققين من الصوفية، وكان يريد أن يكون كما يهوى هو، وإلا رد قوله كما سبق[٣].

ومن المعاصرين كذلك نجد من يبدأ تعريفه للتصوف بقوله: (والتعريف الصحيح للتصوف هو أنه بدعة وضلالة، من شر البدع وأكثرها ضلالا، وأكبرها ضلالة)[٤].

ويعني نفسه بنقض كل أصول التصوف الإسلامي بأحكام وعظية لا ترتبط فيها النتائج بالمقدمات، ولكن لأن الرجل كتب الكتاب خدمة لفكرة ما في رأسه، أو في رأس غيره فقد أداره على محور التعميم والسب دون دليل يمكن أن يقنع أحداً فضلاً عن أن يفيد منه.

.. أما عن ضرورة الاستقلال الفكري فذلك لأن المتابع دون وعي

---

(١) انظر: تنبيه الغبي بتكفير ابن عربي ١٦٨ و ١٨٢ و ٢٠٩.

(٢) ص ٢٠٩ هامش ٣.

(٣) انظر: رسالة الصوفية والفقراء ص ٣ ـ ٩.

(٤) إلى التصوف يا عباد الله، للجزائري ص ٨، ١٢، ٥).

مستقل إمَّعة، يحسن إذا أحسن الناس، ويسيء إذا أساؤوا، وهذه صفة من ليس يملك فكراً مستقلاً.

ولايمكن لقارىء بهذه الصفة أن يقدم جديداً، أو يقترح مفيداً، وحسبنا أن نشير إلى أن هناك قضايا أثارها المستشرقون بخصوص مصدر التصوف وأخذه من غير الإسلام أصوله، وكانوا في هذا خاضعين لعوامل عديدة بعضها خاص بما لم يكن تحت أيديهم من تراث للصوفية غيَّر فكرهم بعد هذا، وبعضها خاص بقضية التأثير والتأثر التي كانت رائجة في الدراسات الإنسانية في فترة ما، وقد تابع بعض العرب والمسلمين آراء المستشرقين دون نقد أو تمحيص، فقالوا بعدم إسلامية التصوف، جرياً وراء غيرهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتأصيل، ولو علموا أن بعض المستشرقين رجع عن رأيه في قضية أجنبية مصادر التصوف بعد أن توافرت له بعض النصوص الصوفية، ولو قرؤوا دراسات المدققين من علماء العصر الذين ذكروا خصائص للتصوف الناضج، تبعد قضية التأثير والتأثر عن مكانها الذي كانت قد تسنمته في الدراسات الإنسانية، لو قرؤوا هذه البحوث الدقيقة لما قبلوا متابعة غيرهم ولحرصوا على استقلالهم الفكري.

وحيث يفقد الباحث استقلاله تجده يتابع دون تدقيق، ودون بصر بعواقب ما يقول: بعداً عن المنهجية، أو تضييعاً لتراث له ما له وعليه ما عليه.

يقول أحدهم: (وفي رأي الدكتور زكي مبارك التصوف: مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية، أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث...

أما التصوف في رأينا فهو طريقة زهدية في التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية (الميتافيزيقية) مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل)[1].

---

(١) التصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شقفة ص ٧.

فانظر كيف جر عدم الاستقلال البعض إلى أن يقول ما يناقض حقائق ومسلمات في مجال البحث في التراث الصوفي.

ثالثاً: التفرقة بين أقوال الصوفية وروايات المؤرخين عنهم

ما دام القارئ يريد الحكم على التراث الصوفي، بغية الإفادة من الناضج الملتزم منه، فإن أمانة العلم تلزمه أن يفرق بين أقوال الصوفية موثقة النسبة إليهم، وفهوم مؤرخي الفكر وكتاب الطبقات لأقوال الصوفية أو أفعالهم، ذلك أنه إضافة إلى ما يغلب على كتب «الطبقات» من بعض المبالغات، فإنها تكتب غالبا في وقت متأخر عن حياة المؤرخ لهم، وليس بالضرورة أن يدقق المؤرخ في كل رجال سند الرواية التي ينسبها إلى هذا الشخص أو ذاك، وربما استنبط من روايات لم تخضع لقواعد الجرح والتعديل معاني هو فيها مجتهد ويبتغي به الخير، وإن جاءت حقيقتها - بعد الدروس والتفنيد - على خلاف ما قصد إليه باجتهاده.

فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة بعض المؤرخين في إضفاء صفات معينة على العلم أو الشخص الذي يؤرخون له لسبب مذهبي، أو لميل طائفي، كان لنا أن نؤكد ضرورة التفرقة بين أقوال الصوفية أنفسهم وفهوم المؤرخين لهم وللتصوف، باعتبارها ضرورة منهجية للحكم والاستنباط.

ولا ينفرد التصوف بهذه المسألة فيما روي عنه وعن أهله، بل هي سمة عامة في عموم الروايات وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين وغيرهم، يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم، وفيما يذكرونه معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى، ودين الحق الذي بعث الله به رسوله: (ويوجد أحياناً عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير)[1].

---

(١) التصوف، ابن تيمية ١١/ ٤٣.

رابعاً: ضرورة تحديد المصطلحات المتصلة بالتصوف الإسلامي

ما دامت القراءة للحكم والاستنباط والتوظيف تستهدف عدم الوقوع في أخطاء التعميم أو التسرع في الأحكام، فإن من الضروري حينئذ أن يهتم قارئ التراث الصوفي الإسلامي بالتحديد الدقيق للمصطلح المراد نقده والإفادة منه، وهذا يشمل الألفاظ التي استخدمها الصوفية وحددوا مرادهم منها بما يتفق مع أصول منهجهم، لكن التعميم والأخذ بالفهم الشائع لأدنى ملابسة أدى بأصحابه إلى خطأ في الحكم، فضلاً عن عدم تقدير دقيق وعدم إفادة من هذا التراث.

كما يشمل التحديد المراد الأوصاف التي عرفت بها مراحل التصوف الإسلامي واتجاهاته متمثلة في مراحله التاريخية، وخصائص كل مرحلة، ظاهرة على رجال كل مرحلة كذلك، وقد أدى الخلط في هذا الباب إلى نتائج تعوزها الدقة المنهجية في كثير من الأحيان، ولنأخذ بعض الأمثلة في كلا الجانبين: الألفاظ ـ الأوصاف.

أ ـ ففي باب الألفاظ نذكر مثلاً: الزهد ـ التوكل ـ الاتحاد ـ الفناء.

هذه ألفاظ دار حولها حديث طويل من حيث دلالتها وصلة هذه الدلالة بالفهم للإسلام، لا سيما أن البعض ربط بين كلمات الصوفية في الزهد وبين دعوات بعضهم ـ مثل شقيق البلخي مثلاً ـ للقعود عن الكسب، كما ربط البعض بين التوكل والدعوى ذاتها، حتى إن ابن الجوزي اتهمهم بعدم الفهم ومجافاة ما يجب أن يكون حيث تنكبوا الطريق الشرعي للحياة، فالتوكل عمل قلبي وثقة بالله لا ترك للعمل، ولا تعطيل للجوارح، ويستشهد بأن النبي ﷺ تاجر حتى كفي العمل من الفيء[1].

فلو رجعنا إلى أقوال الصوفية في الزهد وفي الكسب وفي التوكل، وحددنا دلالة هذه الألفاظ عندهم وعرفنا موقفهم من العمل، ورفضهم لأصحاب دعوى القعود عن الكسب، لو رجعنا إلى أقوالهم لتحدد لنا رأيهم

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٠.

بدقة في هذه المفاهيم، ولكان لنا أن نحكم على مدى قرب منهجهم أو بعده عن دعوة الإسلام إلى الزهد والكسب والتوكل.

ولتجنبنا الخلط الذي وقع فيه البعض حين فهم الزهد بمعنى خاص من بعض عبارات القوم ثم عممه على الجميع، بل قرر أن الإسلام لا يفسح المجال لهذا الزهد.

وأشير إلى عبارتين إحداهما للمحاسبي والأخرى لأبي طالب المكي، وهما نموذجان لكثير من الأقوال يماثلهما عند الصوفية، ولهما دلالتهما في مسألة الزهد ومسألة التوكل.

يقول الحارث المحاسبي: (ولرب مكنز للأموال بغير الإكثار مشغول، ليس بذاكر دنياه، لأن الآخرة غلبت على مناه، تذكره للدنيا من أراد فيها البلاغ، وحبه لها حب من لا يغيره تقلب الأحوال، قلبه لغيرها ذاكر، وهو على ما أعطاه الله منها شاكر، إن أعطى منها لم يمنعه نزول البلية عن النظر إلى مواضع الخير، ولرب مُقل قد ظهر الزهد على ظاهره وبدنه، وقلبه مشغول بالرغبة فقد استقل كل ما صار إليه من الدنيا وإن كان في العدد كثيراً، ويستكثر ما بيد غيره وإن كان في العدد قليلاً)[1].

ويقول مكي بن أبي طالب: «ولا يضر التصوف والكسب لمن صح توكله، ولا يقدح في مقامه من حاله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

وروى عن النبي ﷺ: **«أحل ما أكل العبد من كسب يده، وكل بيع مبرور»**[2].

فمن أدرك دلالة الزهد والتوكل عند الصوفية كان له أن يقرهم على فهمهم الذي هو صدى لما أثر عن الرسول ﷺ في هذا الصدد، وكان له كذلك أن يناقش البعض في قضية التوكل بين العامة والخاصة. وهذا طريق

---

(١) المسائل في أعمال القلوب والجوارح، للمحاسبي ص ٤٤.

(٢) قوت القلوب ٢/ ٢٩.

الحكم الحق والتوظيف الجيد للتراث. أما من لم يعن نفسه بالتحقيق في مراد القوم فقد سهل عليه أن يكيل لهم الاتهامات لموقفهم من الزهد والعمل والمال ونحو هذا، وحسب أنه بذلك قدم للبشرية خيرا[1].

.. وبالمقياس ذاته نقول أن الصوفية في كلامهم عن **الحب الإلهي** وهو نزع نصوص قرآنية وحديثية عبروا عن أشواقهم بلغة جعلت البعض ينفر، ويتهمهم منذ فترة مبكرة - أي قبل التصوف الفلسفي - أنهم يقولون بالاتحاد مع أن حقيقة ما دعوا إليه وما تغنوا به هو صدى للحديث الصحيح: «لايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» (متفق عليه).

وقد فطن ابن تيمية إلى الفرق بين هذا الاتحاد، والاتحاد الذي قال به البعض في مرحلة تفلسف التصوف. (وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به، والمبغض المكروه المنهي عنه، وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين، فإن ذلك محال ممتنع، والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم... وأما الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرك)[2].

وأما **الفناء** وهو عند الصوفية لازم المحبة حين تشتد وتسيطر، فإن هذا اللفظ كم جر المتعجلين في الحكم إلى تشنيع على كل الصوفية، وتنديد باللفظ في كل دلالاته، وهذا ولا شك يتناقض مع الدقة والمنهج[3].

ولكن تفحص أقوال الصوفية أدى بعالم محافظ كابن تيمية أن يقرر

---

(١) انظر: التصوف بين الحق والخلق، للشقفة ص ١٠٨ - ١١٧.

(٢) علم السلوك لابن تيمية ٥٨، ٥٩.

(٣) انظر: كتاب الجزائري «إلى التصوف يا عباد الله» ص ٤٠، وكتاب «التصوف» للشقفة ص ١٧٥، ١٨٣.

(الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص.

.. الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه)[1].

ويرى ابن تيمية أن هذا النوع فيه نقص، وأن شهود الحقائق أكمل، لكنه يقر أن البعض قد تغلبه المحبة فيسكر ويسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، فيقول أقوالاً ظاهرها يخالف الشرع، ويرى أن الحكم عليه يكون ببحث سبب السكر، فإن كان السبب حلالاً كالمحبة وشدة الذكر لم يؤاخذ بما قال، ونبه إلى عدم اتباع طريقته أو أقواله.

وهذان النوعان عند ابن تيمية مقبولان وعن النوع الثاني يقول: (وعامة ما نجده في كتب أصحاب الصوفية مثل شيخ الإسلام (يقصد الهروي الأنصاري) أو من قبله من الفناء هو هذا... وفي الجملة فهذا الفناء صحيح)[2].

لكن هذا لم يمنع ابن تيمية من أن ينكر النوع الثالث وهو الفناء عن وجود السوى الذي يرى أن الله هو الوجود، وأن لا وجود سواه، وأنه عين الموجودات، لأنه يخالف الشرع، وما به قال المحققون من مشايخ الصوفية[3].

ب ـ وفي باب أوصاف التصوف نذكر أن هناك التصوف السني، والتصوف الفلسفي.

وهذا التحديد مهم لأننا إذا كنا نقرأ التصوف السني فنحن نقومه ونفيد

---

(١) علم السلوك ص ٣٣٧.

(٢) علم السلوك ص ٣٤١.

(٣) علم السلوك ص ٣٤٢.

منه في ضوء خصائصه التي استخلصها من نصوصه المتحققون من العلماء، وننظر إلى رجاله في ضوء ارتباطهم بالمصادر الإسلامية، وعدم تأثرهم بالفلسفة والأثر الأجنبي بعامة، وإذا وجد لدى بعضهم بعض الأثر الأجنبي فإن هذا لا يمثل ظاهرة في التصوف السني وبخاصة في مراحله الأولى (القرنين الثالث والرابع الهجريين).

أما إذا كنا نقرأ في التصوف الفلسفي حيث النظريات التي يصعب تأويلها أو الاعتذار عنها لتتفق مع الإسلام فإن الأمر يختلف تماما، فنحن هنا لا نقرأ تصوفاً جل اهتمامه بالأخلاق والتربية، بل نقرأ فكراً روحياً أشرب مضامين الفلسفة، وهنا سنلتقي بالنظريات التي هي موضع الرفض لدى مجموع العلماء والدارسين مثل الاتحاد ووحدة الوجود، الأمر الذي جعل من الصعب أن تسمي هذا النوع تصوفاً خالصاً أو فلسفة خالصة، وعلينا أن ندرك ـ ونحن نقرأ هذا النوع من التصوف ـ أنه وإن اشترك مع التصوف في اسمه وبعض خصائصه إلا أن أولئك المتفلسفة زادوا على المتصوفة السنيين بأمور:

أولها: أنهم أصحاب نظريات أو مواقف من الوجود، بسطوها في كتبهم أو أشعارهم، ولا يمكن أن توصف عبارتهم فيها بأنها من قبيل الشطح الذي لا يسأل عنه أصحابه.

وثانيها: أنهم أسرفوا في الرمزية إسرافاً إلى حد بدا معه كلامهم غير مفهوم للغير.

وثالثها: اعتدادهم الشديد بعلومهم وأنفسهم.

يقول العلامة محمد الخضر حسين: (الصوفية المستقيمون الذين لم يدرسوا الفلسفة إنما يتكلمون بما يقتبسونه من حكمة الشريعة، أو بما يجيئهم من طريق الإلهام والوجدان بعد عرضه على أصول الدين، وأما من درسوا الفلسفة، ثم تكلموا بلسان الصوفية، فقد يدخلون في هذا العلم بعض الآراء الفلسفية كمسألة وحدة الوجود، فإنها دخلت في التصوف من ناحية الفلسفة، وقد يدخل هؤلاء بعض الآراء الفلسفية بحسن نية، إذ يبدو

لهم أنها من المذاهب التي يتقبلها الدين، ولا يأبى اتصالها بهدايته السماوية.

ودخول آراء غير إسلامية في التصوف دفع بعض المؤلفين في اعتقادات الفرق الإسلامية أن يعدوا الصوفية فرقة مستقلة، كما صنع الرازي في كتاب «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» إذ قال: (اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ)، ثم ذكر فرق الصوفية حتى ذكر فرقة الحلولية منهم. وقال: (هم قوم ليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر، فيتوهمون أنه قد حصل لهم الحلول والاتحاد، فيدعون دعاوي عظيمة، وأول من أظهر هذه المقالة في الإسلام الروافض فإنهم ادعوا الحلول في حق أئمتهم.

أما التصوف الخالص فإن السائرين فيه لا يخرجون عن مذهب السنة قيد أنملة) انتهى[1].

والذين لم يفرقوا بين أنواع التصوف وقعوا في خلط شديد، فهم يرفضون الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وهي من التصوف الفلسفي من جهة، وموضع نقد مؤرخي التصوف وشيوخه من جهة أخرى، لكنهم يسحبون ما يرفضونه من التصوف الفلسفي على كل التصوف، ولا يفرقون بين رجال وشيوخ هذه المرحلة أو تلك.

أما الذين فرقوا بين تصوف استمد مصدره من الكتاب والسنة وإن صاحبته بعض الاجتهادات وظروف التاريخ، وتصوف غلبت عليه الفلسفة ونظريات تفسير الوجود، فهؤلاء فرقوا بين المشايخ وفق ما علم عنهم من ضبط والتزام، فكان قبول ابن تيمية لحديث الجنيد عن التوحيد، ورفضه تأويل ابن عربي في الموضوع ذاته[2].

وكانت كثرة تقول الشيخ عن الجيلاني واستشهاده بأقواله في مواضع مختلفة من كتبه، وكان كذلك توضيحه لموقف شيوخ الصوفية الأوائل من

---

(١) رسائل الإصلاح، للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

(٢) انظر: التصوف لابن تيمية ص ٢٣٩ ـ ٢٤٥.

قضايا العقيدة، والسماع ونحو ذلك بما ينصف المحسن، ويحذر من غيره[1].

وليس معنى التحديد أننا نقبل نوعاً ما جملة أو نرفض نوعاً آخر من التصوف جملة، فهذا مرتبط بالدراسة وتحليل النصوص، لكننا نعني بالتحديد أنه يساعدنا أن نعلم ماذا نقرأ؟ ولماذا نقرأ؟ ويبعدنا عن المدح أو القدح دون أسباب أو أدلة كافية لأي منهما.

ولا شك أن الوعي بالمراحل التاريخية التي مر بها التصوف الإسلامي له أثره في طبيعة التقويم والحكم، وفي كيفية الاستفادة من إيجابيات مرحلة ما، أو تجنب سلبيات مرحلة ما، فالتصوف الإسلامي في مرحلة تحديد المصطلح وثباته علماً بين العلوم وثيق الصلة بمصادر العلم والحياة الإسلامية يختلف عنه في مرحلة كونها أصبحت طرقاً ومؤسسات اجتماعية، على أن الاختلاف لا يعني انبتات الصلة بين مرحلة وأخرى، ولكن يعني إن كل مرحلة لها خصائصها وتوجهاتها وتراثها الذي يبرز هذه السمات، والتي يمكننا من التقييم والإفادة.

والشيء نفسه نجده حين نقرأ التصوف الإسلامي في طرقه المعاصرة في ظروف استعمار بعض البلاد، وتدني مستوى التعليم والفهم الإسلاميين مما يحبذ ضرورة العناية بالناحية الاجتماعية أكثر من أي وقت مضى.

فالقراءة وفق هذه التحديدات وأمثالها تفسر كثيراً من المسائل التي دار حديث حولها، فقد يتضح أن الخلاف لفظي بين المادحين للتصوف والقادحين فيه، لأن المادحين يمدحون نوعاً ومرحلة من التصوف، والقادحين يقدحون في نوع آخر غير النوع والمرحلة السابقة، وبخاصة إذا عرفنا أن النوع الذي ذمه القادحون ذمه الصوفية أنفسهم وسجل هذا مؤرخوهم كما فعل القشيري في «رسالته»، وكما فعل الهروي الأنصاري في «منازل السائرين»، وكما فعل الغزالي في «الإحياء».

---

(١) علم السلوك لابن تيمية ص ٤٩٠.

كذلك يفسر لنا هذا الوعي ثقة العلماء المحافظين في بعض شيوخ الصوفية ويسمونهم بالمحققين كما فعل ابن تيمية وابن القيم مع الجيلاني، وقبله الجنيد والسقطي ومن على غرارهم، في الوقت الذي يتعقب فيه أمثال الحلاج وابن عربي والتلمساني وغيرهم، وما ذاك إلا لأن الشيوخ الموثوق فيهم أبناء مرحلة وأصحاب ذكر يختلف عن غيرهم من أصحاب النظريات المتأثرة بالأثر الأجنبي أياً كان مصدره.

كما يفيد هذا الوعي بالمراحل والسمات في محاولة إصلاح ما قد يكون من انحراف في بعض طرق التصوف المعاصر، وبخاصة إذا علمنا كثرة أتباعها من العامة والبسطاء ومدى تأثيرهم فيهم، وذلك من خلال ما التزم به التصوف السني في مجالسه الأولى وطرقه المنظمة في القرن السادس الهجري وما بعده، وكيف حرص شيوخه على الالتزام بالشرع في فكرهم، وممارساتهم الروحية، وحركتهم الاجتماعية وحرصهم على تنقية صفوفهم من الأدعياء والمغالطين.

وبالطبع لا نستطيع أن نتلمس هذا الإصلاح في التصوف الفلسفي لأنه هو ذاته جزء من مشكلة البعد عن الحياة الإسلامية النقية، فضلاً عن أثره بشكل أو بآخر في بعض هذه الطرق الغالية في العصر الحديث، ونحن نريد أن ننهض بالجانب الروحي للإنسان المعاصر وفق منهاج الإسلام في تنمية هذا الجانب، كما كان في حياة الرسول ﷺ وأصحابه، وكما اجتهد محققو الصوفية في فهمه ومحاكاته...

خامساً: مراعاة طبيعة التصوف كتجربة ذوقية

إن التصوف تجربة ذوقية خاصة ليس للعقل مدخل فيها، ولذا لا يقبل أصحابها الحكم عليها بالفلسفة والعقل لأنها ناطقة بطبيعة التجربة الذوقية .

فلو نظر إلى التصوف في ضوء طبيعته التي أشرنا إليها فإن مسألة غموض التعبيرات الصوفية سوف يعرف سببها، ومسألة اختلاف التعبيرات للصوفي الواحد سوف يدرك سرها كذلك، وسوف ندرك لماذا اعتدل البعض

في حكمهم على التصوف وذلك حين فهموا طبيعته واعترفوا بها، ولماذا لم يدرك البعض هذا الحظ من الإنصاف، وذلك لأنهم قاسوا التصوف كعلم على سائر العلوم في عصره مع أن هذا المقياس ذاته غير دقيق لأن علوم العصر تختلف بحسب موضوعاتها وتختار لذلك وسائلها وتعين لغة التعبير فيها.

فلكي نصيب في الحكم على التصوف، ونستطيع الإفادة من جوانب الثراء فيه ينبغي أن نراعي هذا الأمر ونحن نقرأ التراث الصوفي، ويبقى بعد ذلك أن نخطىء أو أن نصيب لكن كل ذلك في دائرة الاجتهاد الأمين الذي يمنح صاحبه أجراً إن أخطأ وأجرين إن أصاب. والله المستعان.

سادساً: الحكم على الصوفية في ضوء أحوالهم

الصوفية من خلال طبيعة تجربتهم أصحاب أحوال ومواجيد، ولكنهم كذلك حين يخرجون من هذه الأحوال يصبحون أصحاب صحو وفكر شأنهم في ذلك شأن بقية الناس، والحكم على الصوفية وهم في أحوالهم يختلف عنه في حالات صحوهم، أو هكذا ينبغي أن يكون وعدم الأخذ بهذه التفرقة أدى بالناس إلى تطرف في الحكم عليهم، فالبعض حين رأى من أحوالهم ما يخالف ظاهر الشرع حكم عليهم بالكفر والفسوق والعصيان جملة ودون تفصيل، وهناك من رأى أن ما عليه هؤلاء في أحوالهم هذه سائغ وطيب ويمتدحونه بمبالغة كذلك.

وقد يغلو كل واحد من هذين حتى يخرج بالأول (إنكاره إلى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد، متبعاً لظاهر من أدلة الشريعة. ويخرج بالثاني إقراره إلى الإقرار بما يخالف دين الإسلام مما يعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بخلافه اتباعاً في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر.

والأول كثيراً ما يقع في ذوي العلم، لكن مقروناً بقسوة وهوى.

والثاني كثيراً ما يقع في ذوي الرحمة، لكن مقروناً بضلال وجهل، والعدل في هذا الباب قولاً وفعلاً أن تسليم الحال له معنيان:

أحدهما: رفع اللوم عنه بحيث لايكون مذموماً ولا مأثوماً.

والثاني: تصويبه على ما فعل بحيث يكون محموداً مأجوراً، فالأول عدم الذم والعقاب، والثاني وجود الحمد والثواب، الأول عدم سخط الله وعقابه، والثاني وجود رضاه وثوابه، ولهذا نجد المنكرين غالباً في إثبات السخط والذم والعقاب، والمقرين في إثبات الرضا والحمد والثواب، وكلاهما قد يكون مخطئاً، ويكون الصواب في أمر ثالث وسط، وهو أنه لا حمد ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب)[1].

ويذكر ابن تيمية أنه وإن أنكر بعض التابعين على أصحاب الأحوال أمرهم فإن تحقيق الأمر يقضي بالإنصاف بأن يبحث سبب زوال العقل فإن كان بسبب غير محرم، وكان سكره نتيجة حالة من الحب والوجد والوله استغرقته فأسكرت عقله، وكان في حاله هذه معذوراً، وله من التاريخ شاهد على ذلك، ومن رأي جمهور العلماء إعذار له.

والذي عليه جمهور العلماء أو الواجد من هؤلاء إذا كان مغلوباً على أمره لم ينكر عليه، وإن كان حال الثالث أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام عن هذا قال: قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان، فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه[2].

ورسم هذا المنهج للحكم على الصوفية في أحوالهم ومواجيدهم من عالم كابن تيمية أمر له دلالته، فالرجل ليس من الصوفية، ولا من مؤرخيهم، ولكنه منصف ومقدر، لأن هؤلاء الصوفية في نظره مجتهدون في العبادات كما اجتهد غيرهم في الفقه والقضاء والإمارة، وهم في نظره أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده خشية لله أو حب له، إذ من المقرر أن الصوفية إنما أوردهم هذه الأحوال حب ومجاهدة ودوام ذكر أدى ببعضهم إلى سكر

---

(١) علم السلوك، لابن تيمية ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(٢) الصوفية والفقراء، لابن تيمية ص ١٢.

قال فيه - وهو في غياب عقل - ما يستشنع ظاهره شرعاً، لذا فهو يرى عذرهم ما داموا ليسوا متكلفين ذلك، وما دام المعروف عنهم تمسكهم بالشرع في حال صحوهم وجماع تاريخهم، بل إن ابن تيمية يقول إذا شك الإنسان في حال أحدهم هل هو سكر طبيعي ومتكلف كان عليه أن يتوقف في الحكم فلأن يخطىء في الحكم خير من أن يخطىء في العقوبة، شريطة أن ينبه أن هذا الذي وقع لا يقتدى به إذ هو مخالف للشرع، وإن كان لصاحبه عذر[1].

حالات الصحو واليقظة:

أما الحكم على الصوفية في حال يقظتهم فيكون من منطلق أنهم بشر يخطئون ويصيبون، وأنه لا عصمة لأحد من البشر غير الأنبياء، وأشد الناس استحقاقاً لوصف الولاية يجوز عليهم الخطأ، لا بل يجوز أن يخفى عليه علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقض درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى[2].

وعليه فإن الحكم على أقوالهم وأفعالهم يكون بعرضهما على الكتاب والسنة فما وافق كان جديراً بالتقدير والاقتداء، وما كان غير ذلك فيوصف بما وصفه الشرع به من خطأ أو ضلال أو نحو ذلك.

وقد كان الصوفية حريصين على جعل الكتاب والسنة مقياساً يحكم به على أقدار الرجال ومدى التزامهم، بل جعل هذا المقياس هو الفيصل في قبول هذه الفئة لشخص ما أو رفضها له وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: (إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة).

---

(١) علم السلوك، ص ٣٨٤.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٦٤.

وقال الجنيد رحمه الله: (علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايصلح له أن يتكلم عن علمنا أو قال لا يقتدى به).

وقال أبو عثمان النيسابوري: (من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل)[١].

وقد أورد أبو الفرج بن الجوزي أقوالاً كثيرة للشيوخ في هذا المعنى، ولم يشذ عن ذلك بعض من اتهموا بالشطح، فهذا أبو يزيد البسطامي يقول: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود).

ويقول: «من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع»[٢].

وهو نفس المعنى الذي يحكيه عن أبي الحسين النوري في قوله: (من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه في دينه)[٣].

وهذا هو الموافق للعقل إذ لا يقبل ممن يسندون مقاماتهم وأحوالهم إلى الكتاب والسنة أن يرضوا في صفوفهم من ينقض هذا الأصل، أو يقدس وليا فيرفعه فوق مستوى الخطأ قابلا منه كل ما جاء به، ملتمساً للغريب من أقواله وأفعاله مسالك التأويل وطرق التسويغ، لا يعقل أن يقبل هذا من قوم أتباع رسول الله ﷺ في صفة طريقهم، ومصدر مجاهداتهم.

والذي يخرج عن هذا الخط الوسط، فيقدس الشيوخ ويصفها بما ليس

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٧، ١٦٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٨.

في إمكانها أو من حقها غالط مقدار تجاوزه للمنهج الشرعي في تقدير الناس والحكم عليهم (نعرف الرجال بالحق لا نعرف الحق بالرجال)، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ).

وقد وقع الغلط قديماً وحديثاً نظراً لتجاوز المنهج الذي ألح على الالتزام به محققو المشايخ من الصوفية المسلمين.

● ● ●

سابعاً: الفكر الصوفي والتنبيه إلى غلطات بعض الصوفية

وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار ونحن نقرأ التراث الصوفي حرص مؤرخي التصوف وهم صوفية في غالب الأحيان ـ على تنقية هذا الطريق من الدخلاء، والأدعياء، والتنبيه إلى أن هؤلاء ينبغي الحذر من أتباعهم فيما غلطوا فيه.

ويمكن أن يقال إن هذا اللون من النقد ـ المسمى بالنقد الذاتي ـ هو مظهر من مظاهر الحب للتصوف والحرص على أن يتفادى نفور المجتمع منه، بل الحرص على أن يثبت موقعه في المجتمع.

والذين كتبوا في غلطات الصوفية هم الذين مدحوا التصوف وأهله بأحسن صفات المدح والتقدير، لكنك مع ذلك لا بد أن تشهد لهؤلاء المادحين الراصدين للأغلاط بنقطة وعي منهجي حيث لم يمنعهم الحب من بيان وجه الخطأ لدى المخطىء بل وإرجاع أسباب الخطأ إلى جهل بالشرع ونقص في العلم.

ولعل السراج الطوسي (ت ٢٧٨هـ) أبرز من كتب في هذا الباب حيث أفرد مساحة غير قليلة من كتابه (اللمع) وقد بين الأسس التي ينبني عليها طريق القوم، والذي لا يبني فهمه وعمله عليها ويدعي أنه من الصوفية فهو غالط مخدوع.

والأسس ثلاثة:

أولها: اجتناب جميع المحارم، كبيرها وصغيرها.

ثانيها: أداء جميع الفرائض، عسيرها ويسيرها.

والثالث: ترك الدنيا على أهل الدنيا قليلها وكثيرها إلا ما لا بد منه للمؤمن منها.

ثم يقول: (فكل من ادعى حالاً من أحوال أهل الخصوص، أو توهم أنه سلك منازل أهل الصفوة، ولم يبن أساسه على هذه الثلاثة فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابة في جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه، والعالم مقر، والجاهل مدع)[1].

ويفصل الشيخ القول في طبقات الغالطين جاعلاً إياهم ثلاثة: طبقة غلطت في الأصول لجهلهم بأصول الشريعة، وطبقة غلطت في الفروع (يعني الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال) وهذا لقلة علمهم بالأصول. وطبقة ثالثة أخطأت هفوة وزلة إذا تنبهت إلى الخطأ عادت إلى طريق الصواب وسدوا الخلل ولموا الشعث[2]. وفي تفصيل الشيخ لهذه الطبقات يتعرض لأصحاب النظريات أو بذورها على الأقل تلك التي يظهر فيها الأثر الأجنبي، فيفندها ويبين وجه الخطأ وسببه الحقيقي، كل ذلك بنقد موضوعي، وأدلة مقنعة.

ولم يكن الطوسي هو فارس هذا الميدان وحده، وإن كان واضع أساس هذا المنهج النقدي إذ بعده جاء أبو عبدالرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) فكتب رسالة مفردة في غلطات الصوفية كان جل ما فيها ـ باستثناء الفصل الذي رد فيه على القائلين بالحلول ـ صدى لما ذكره السراج، وتتابعت الكتابات، فكان ما ذكره القشيري في رسالته (ت ٤٦٥هـ) وما ذكره الهجويري (ت ٤٦٥هـ) في «كشف المحجوب» وما ذكره الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كثير من كتبه وخاصة (الإحياء) بل وسرت هذه الروح الناقدة إلى عصرنا فوجدنا بعض المحققين من مشايخ الطرق يؤكدون حرصهم على التزام الكتاب والسنة ويذكرون أن من يخالف هذا تبرأ منه الصوفية كما يبرأ منه كل مسلم.

فيجب أن نقرأ تراثهم بمنهجهم لنحكم عليه ونفيد منه، مفرقين بين

---

(١) اللمع ٥١٦، ٥١٧.

(٢) المصدر السابق: ٥١٨.

حالاتهم تلك التي يعذر فيها صاحبها وتلك التي يحكم فيها الكتاب والسنة كما يحكمان في حياة كل مسلم، وبمنهجهم نمتدح الحق ونذم الباطل في ضوء المقاييس الشرعية المعلومة.

وسيأتي في الفصل التاسع تحت عنوان: «أخطاء أساسية تخالف القصائد الإيمانية»، وفي الفصل العاشر: «التحذير من أدعياء التصوف» ما يجلي هذه الحقيقة، ويبين بوضوح أن أعلام التصوف الصادقين قد أنكروا البدع وحذروا من أهلها، وجعلوا الشريعة هي الحاكمة على أقوالهم وتصرفاتهم.

التصوف باعتباره تراثاً تربوياً:

هذا والتصوف باعتباره تراثاً في التربية الأخلاقية والسلوك الإيمانى، لا يمكن الاستغناء عنه، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة.

ولهذا ظل في نفسي خاطر يراودني من زمن، وهو الكتابة في هذا الجانب الروحي، أو الرباني، أو الإيماني، أو الأخلاقي، الذي سماه العلامة أبو الحسن الندوي: «ربانية لا رهبانية» كتابة تستمد من القرآن والسُنة، وتستفيد من سَلَف الأمة، ومن تراث القوم الرحب، وتزنه بميزان الشريعة المعصومة، وتصله بقيم الإسلام الشامل المتوازن، وتترجمه إلى لغة العصر، بحيث يفهمه طالبوه، ويتعاملون معه بيسر.

حاجة الناس إلى الحياة الربانية والتربية الإيمانية:

(لقد تبين لي من خلال التجربة العلمية، والممارسة الميدانية، مع عوام الناس ومع مثقفيهم، مع الغافلين منهم، ومع العاملين في الجماعات الإسلامية المختلفة، أن الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة، تغسل قلوبهم من حب الدنيا، ومن حب أنفسهم، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء وللأوهام، ليعتصموا بالعبودية لله وحده، وبذلك يطهرون عقولهم من الشرك، وقلوبهم من

النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وأقوالهم من اللغو، وعباداتهم من الرياء، ومعاملاتهم من الغش، وحياتهم من التناقض.

وبعبارة أخرى: هم في حاجة إلى «التزكية» للنفوس، التي لا فلاح بغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1].

ولقد جعل القرآن من مهمة الرسول الأساسية: التزكية، مع تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب والحكمة، ولقد قام النبي ﷺ بمهمته خير قيام، وربى أفضل جيل عرفته البَشرية:

إيماناً وتعبداً، وخُلُقاً وبذلاً، وجهاداً في سبيل الله، وكان هذا الجيل النموذجي معلماً للبَشرية كلها من بعد.

والناس أحوج ما يكونون إلى التأسي بهذا الجيل الرباني، والتخلق بأخلاقه التي وصفها الله في آخر سورة الفتح، وتحقيق «شُعَب الإيمان» السبعة والسبعين في حياتهم حتى يرضى الله عنهم، وحتى يصلوا إلى درجة «الإحسان» الذي عرفه الرسول الكريم ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك» كما جاء في حديث جبريل المشهور.

إنهم في حاجة إلى معرفة عيوب النفس، وأمراض القلوب، ومجامع الهوى، ومداخل الشيطان، وكيف يتقيها المسلم ما استطاع، فالوقاية أسلم، وكيف يعالجها إذا سقط فيها، فما جعل الله داء إلا جعل له شفاء، علمه مَن علمه، وجهله مَن جهله.

ولكن الخطر هو اهتمام الناس بأمراض أبدانهم، وغفلتهم عن أمراض قلوبهم، وإذا تنبهوا لها فأين يجدون أطباء القلوب؟ والمفروض أنهم العلماء، بَيْد أن العلماء أنفسهم باتوا من جملة المرضى، فلا حَوْلَ ولا قُوة إلا بالله!

---

(١) الشمس ٧ ـ ١٠.

وقد قال الشاعر:

بالملح يصلح ما يخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير؟!

لكن الخير لن ينقطع عن هذه الأمة، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة.

إن الحياة المادية المعاصرة: رحى طاحون، والناس هم الحب المحصور بين حجريها الكبيرين، تطحنهم طحناً، ثم بعد ذلك يُعجنون ويُخبزون، ولا تنضجهم إلا النار!

ولا سبيل أمام البشرية عامة، والمسلمين خاصة، إلا بالحياة الربانية.

إنهم في حاجة إلى «ربانية نقية» ترفعهم من حضيض عباد الشيطان إلى ذرا عباد الرحمن، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والدرهم، وعبودية الدنيا، إلى سعادة التحرر منها، وعز طالب الآخرة.

إنهم في حاجة إلى «الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق»، وهذا ملخص التصوف، أو هو تقوى الله، والإحسان إلى خلقه، وهذا هو الدين كله، وإليه الإشارة بقوله تعالى في ختام سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

نريدها «ربانية نقية» واضحة الغاية، بينة الطريق، مستقيمة على أمر الله، تابعة لسنة رسول الله ﷺ، ماضية على نهج السلَف، بعيدة عن بدع القول والعمل، وانحراف الاعتقاد والسلوك، تسمو بالروح، وتزكي النفس، وتحيي الضمير، وتجدد الإيمان، وتصلح العمل، وترقى بالأخلاق، وتنمي حقيقة الإنسان!

لا نريدها دروشة منحرفة، ولا رهبانية مغالية، ولا مظهرية زائفة، لا نظريات فلسفية بعيدة عن روح الإسلام، ووسطية الإسلام.

---

(١) النحل: ١٢٨.

موقف بعض السلفَيين من التصوف:

وأود أن أنبه هنا: أن بعض الإخوة السلفيين يغالون في الموقف من التصوف، ويعتبرونه كله شيئاً دخيلاً على الإسلام، ويتهمون أهله كلهم بالابتداع والانحراف، كما يتضح ذلك من تعليقات العلامة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله، على كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم، ومثله كثير من أتباع المدرسة السلَفية، الذين أرسلوا أقلامهم وألسنتهم شواظاً من نار على التصوف كله، وعلى أتباعه جميعاً، قديماً وحديثاً، وهذه مبالغة غير صحيحة، وغير مقبولة، وغير نافعة.

ابن تيمية وابن القيم رجلان ربانيان:

ومن العجيب أن هؤلاء ينتمون إلى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، وهما من الربانيين الصادقين نظرياً وعملياً.

نظرياً.. كما تدل على ذلك كتاباتهما، فابن تيمية له رسائل في التصوف والسلوك بلغت مجلدين من مجموع فتاويه، بالإضافة إلى كتابه «الاستقامة» الذي صدر في جزأين بتحقيق الدكتور رشاد سالم رحمه الله.

وابن القيم له مجموعة كبيرة من المؤلفات، مثل: الجواب الكافي، وطريق الهجرتين، وعدة الصابرين، وروضة المحبين، وأعظمها وأوسعها من غير شك، مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وعملياً.. كما دلت على ذلك سيرة الرجلين، وصلابتهما في الحق، وصبرهما على الأذى، وجهادهما في سبيل الله، وحبهما لله ورسوله وإقبالهما على الله تعالى، إقبالاً يشهد به كل من عرفهما واقترب منهما رضي الله عنهما.

ومن إنصاف ابن تيمية: أنه أثنى على كثير من مشايخ الصوفية، ومنهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني، الذى نقل عنه بعض كلماته في «القَدَر» ونوه بها، وكذلك ابن القيم.

وهذا ما ينقص كثيراً ممن يدعون الانتساب إلى مدرسته، ولا تجد لأحدهم عيناً تدمع، ولا قلباً يخشع، ولا جسداً يرتعش من خشية الله تعالى، ولا تحس لديهم تلك العاطفة الندية الدافقة بحب الله تعالى ورسوله.

ولكنه الاتباع الآلي الجاف الصارم، كأنما هو ترس في ماكينة، يُدار فيدور، لا روح له، ولا حياة فيه!

وفى مقابل هؤلاء صنف يتمتع بالعاطفة الحارة، والوجدان الحق، والروح الفياضة بالحب والخشية، ولكنه غير منضبط بضوابط الشرع، يَحكمه ذوقه ووجدانه، وذوق مشايخه ووجدانهم، وهؤلاء هم أكثر المتصوفة، أعني المخلصين منهم.

وكلا الصنفين أفرط في ناحية وفرط في أخرى، والخير كل الخير في الوسطية المتميزة عن طرفي الإفراط والتفريط.

تصويف السلفية، وتسليف الصوفية:

لهذا كان من الخير أن نطعم كل واحد من الصنفين أو الطرفين بالمزايا التي في الطرف الآخر، وهو ما عبر عنه المفكر المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله بقوله: نسلف الصوفية، ونصوف السلفية!

وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين، منزه عن عيوب كل منهم[1].

(١) سلسلة تيسير فقه السلوك إلى الله تعالى، للقرضاوي ص ١٢ ـ ٢٢.

الفصل التاسع
تزكية النفس
بين مشكلة الابتداع وفقدان الاتباع

يقول العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه القيم: «الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية»: (لقد اتجهت همة المسلمين الصادقين في سبيل تزكية النفس من سائر أوضارها ورعوناتها، وربط العاطفة بحقائق هذا الدين وأحكامه، وذلك بدءاً من عصر صحابة رسول الله ﷺ فمن بعدهم.

غير أن سبيل مجاهدة النفس أمام أصحاب النبي ﷺ، كان أقل وعورة بالنسبة لمن جاء بعدهم، وذلك لأسباب:

١ ـ من أهمها رؤيتهم النبي ﷺ وجلوسهم إليه وسماعهم لكلامه وعظاته، فقد كان لذلك أثر كبير في غرس محبته في قلوبهم، والتأثير على جوانب نفوسهم، وهو الأمر الذي يستوجب، بطبيعة الحال، محبة كل ما يدعوهم إليه رسول الله، وإيثاره على ما يعارضه من نوازع الشهوات والأهواء فمن ثم تجلت فيهم ظاهرة الطفرة التي لم نجدها ظهرت فيمن بعدهم وسرعة تحولهم عن أوضاعهم الجاهلية التي كانت متحكمة بهم راسخة في حياتهم، إلى ذلك الالتزام الكامل بعزائم الدين وأحكامه وآدابه.

٢ ـ ومن هذه الأسباب، بساطة الحياة التي كانت تحيط بهم، فقد كانت مغرياتها محدودة، ومحرماتها معدودة، ومن ثم فقد كان سبيل التسامي فوقها والتحرر من غوائلها أقصر وأيسر.

ولكن لما توفي النبي ﷺ، وأنجز الله وعده للمسلمين الذين أنجزوا وعدهم له، ففتح لهم البلاد ووسع أمامهم الفتوحات، واندلقت إليهم الدنيا - بزينتها وزخرفها - من كل صوب، كان لا بد أن يتضاعف أمامهم الجهد في سبيل تزكية النفس، فقد أصبحت القيود أثقل وأكثر.

فكان أن انصرف كثير منهم إلى استنباط أصول ومناهج تربوية، يأخذ بها الإنسان نفسه، ليسمو بها شيئاً فشيئاً، ويحرّرها من رعوناتها وأمراضها الباطنة، ولم يكن في مناهجهم وأصولهم التربوية تلك، ما يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله، بل كان مأخوذاً منه مخرجاً على مبادئه وأحكامه. وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يزيدون ولا ينقصون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة، فاستنبطوا قواعد النحو من لسان العرب، وعن أولئك الذين استشعروا، هم الآخرون الحاجة، فاستنبطوا قواعد الأصول من اجتهادات الصحابة، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة أيضاً، فاستخرجوا قواعد البلاغة والبيان من كلام الله عز وجل.

ولا نزال نذكر في مقدمة من أقدموا على هذا الصنيع، جلالة وسبقاً، الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣) وأحمد بن أبي الحواري (ت ٢٤٦) والجنيد البغدادي (ت ٢٩٨).

وإنما درج هؤلاء، فيما كتبوا ونظموا، على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكاً وعملاً، من جلة التابعين ومن بعدهم، كالحسن البصري، وسفيان الثوري، وعطاء بن أبي رباح. وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط، ثم إما أن يكون دخوله في هذا الميزان صريحاً وواضحاً، وإما أن يكون اجتهاداً واستنباطاً.

ونقول: إن كل ما يتوقف عليه الواجب يصبح واجباً، وكل ما يتوقف عليه المندوب يكون مندوباً، فمهما كانت السبل التربوية غير منصوص عليها في قرآن ولا سنة، ولكنها تعين في تزكية النفس، فإنها تأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها، وهذه الغاية داخلة، كما يقول ابن تيمية رحمه الله، في أصول الإيمان وقواعد الدين. فالسعي إلى التحقق

بها واجب على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين[1].

وهذه الأصول كلها تدخل في نطاق الأعمال الباطنة، كمحبة الله، والخوف منه، والرضا عنه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والزهد في كل ما يحجب ويبعد عنه.

فلما أخذ هؤلاء الربانيون أنفسهم بالسبل التربوية للتحقق بهذه الصفات، وأرشدوا إلى ذلك عامة الناس وخاصتهم، وسلك الكثير منهم هذا السبيل، نشأ عن تفاوتهم في السبق والاهتمام بذلك ومدى الاستمرار عليه، ما سموه بالمقامات، كالأحوال، والفناء والبقاء. وأطلقوا على من أخذوا أنفسهم بهذه السبل التربوية اسم: **السالكين**.

وربما وصل أحدهم، ومن خلال التدرج في هذه المراتب، إلى ما أسموه **بوحدة الشهود**، إذ يفنى السالك بالمكون عن الأكوان، وبرؤية موجده عن ملاحظة وجوده. وربما اندفع في غمرة هذا الاصطلاح إلى النطق بكلمات لا تنضبط بموازين العقل والمنطق، ولكنها تنبعث من فيح مشاعره الوجدانية التي فنيت عن كل ما سوى الله.

وقد اتفق العارفون على أن حال الصحو أفضل وأسلم، حيث يكون العقل والوجدان على وفاق، وهي الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ وأكثر أصحابه. ومع ذلك فلا جناح على من وقع في حال الفناء ووحدة الشهود، كما يقول ابن تيمية رحمه الله. «إذ في مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز، مع جود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور، فكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب، فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق[2].

ولكن كما أنه لا جناح عليهم بسبب هذا العذر، فلا يجوز الاقتداء بهم لمن كان في حالة صحو، ولا حمل كلامهم وأفعالهم على الصحة، بل

---

(١) فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥ فما بعد.

(٢) الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ٣٤١.

يجب النظر إلى ذلك على أنه شطحات يعفى عنها لأهل الأحوال والمواجيد الصحيحة، ويؤاخذ بها كل من رددها تشبهاً أو أيدها عقلاً، ممن لم يكونوا في مثل تلك الحال.

غير أن هذا السلوك، قد أدركه هو الآخر، ما أدرك أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الأخرى، من البدع والانحراف عن جادة القصد والاستقامة، فامتزج بالحق الذي ندب إليه العارفون والربانيون، كثير من الباطل الذي روج له الجاهلون آناً والفسقة والزنادقة آناً آخر.

وأهم الأسباب التي دعت إلى ذلك:

فأول هذه الأسباب: الزندقة، وإضمار السوء والكيد للإسلام. فلقد أقبل كثير من أصحاب المقاصد السيئة إلى تلك المواجيد التي انجرفت فيها مشاعر بعض أولئك الصالحين، والتي ألجأتهم إلى بعض الشطحات التي أشرنا إليها، ففلسفوها ووضعوها في قوالب فكرية وصيغ اعتقادية، ومدوا إليها نسباً من بعض المذاهب الضالة المتزندقة، حتى غدت تلك الشطحات حقا يدعى إليه وفكراً يجادل دونه. ومثل هذا الباب إذا فتح يصبح سبيلاً رحبا إلى أوسع مرتع للدساسين والمضللين.

ثانيهما: الجهل. فقد اندفع إلى هذا السبيل ناس كثيرون، دون أن يتزودوا بزاد كاف سليم من علوم الشريعة الإسلامية، لا سيما علوم الكتاب والسنة. فتفننوا في ابتداع سبل ومناهج تربوية، ابتغاء تزكية النفس، ولكنهم غفلوا عن أن كثيراً من الأسباب التي أخذوا أنفسهم بها، تتعارض مع ضوابط الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة. فللذكر وسائر العبادات الأخرى آداب وقيود، لا يجوز الخروج على شيء منها، ولا يجوز فيها إلا الاتباع دون زيادة ولا نقصان.. وللسبل التربوية إلى تحطيم النفس وترويضها قيود وشروط ثابتة في مصادر الشريعة الإسلامية ومعروفة، لا يجوز على المربي تجاوزها أو الإعراض عنها. فتجمعت من جراء ذلك طفيليات من الأشواك والعقبات التي تبعد السالك عن الله بدلاً من أن تقربه إليه، سواء شعر بذلك أم لم يشعر.

وقد بيّن الإمام الغزالي أن مصدر انحرافات المتصوفة: الجهل، وعدم سلوك الطريق بشكل صحيح، بحيث يكون بعد العلم، فالكثير منهم جهلة، ومع ذلك ادعوا المعرفة، بترديد كلمات هي طامات، ويظن أنه أوتي علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوام..

(وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس، يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به)[1].

كما يرى الإمام الغزالي أن الغرور قد هيمن على كثير من المتصوفة.

وقد عد نماذج كثيرة من غرورهم ثم قال: (وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تستقصى..).

ثالثهما: مراعاة حظوظ النفس، واتخاذ هذا المسلك نفسه، سبيلاً من نوع جديد، إلى الوصول لكثير من أماني النفس وأهوائها.

وبيان ذلك، أن هذا المنهج التربوي، إنما يقوم في أصله وطبيعته، على التسليك الذي لا يكون - على الأغلب - بدون مسلك ومرشد. ومن الشروط التربوية في الإرشاد والتسليك، أن يكون المرشد كاملاً ليستطيع أن يكون مكملاً، ثم أن يوليه المريد السمع والطاعة لكل ما يأمره به وينهاه عنه. وما دام هذان الطرفان من الشرط متوافرين، فهو شرط سليم لا إشكال فيه ولا رد عليه. ولكن فقد أحد الطرفين يجعل وجود الثاني لغوا لا مسوغ له. فإذا كان المرشد كاملا حقا، في علمه وعمله وإخلاصه وسمو نفسه، فلا بد للمريد أن يكون طوع أمره، بل لا يصلحه إلا ذلك. ولكن إذا لم يكن المرشد قد أحرز درجة الكمال هذه، لم يكن ثمة أي موجب لأن يخضع له مريده هذا الخضوع المطلق، بل الخضوع المطلق لمثله يصبح من أخطر المزالق إلى الانحراف عن جادة الاستقامة التي شرعها الله عز وجل.

---

(١) الإحياء ٣ / ٤٠٤-٤٠٧.

ولقد تسلل، فيما بعد، إلى رتبة الإرشاد كثير ممن كانوا بأمس الحاجة إلى من يرشدهم ويزكي نفوسهم من غوائل الدنيا وشهواتها، دفعهم إلى تسلق تلك الرتبة حب الزعامة والتعظيم وشهوة إصدار الأوامر المطاعة، وجمع المال الكثير من أيسر الطرق؛ إذ كانت رتبة الإرشاد هذه من أيسر السبل وأقصرها إلى تحقيق ذلك كله، بل وأصبحت وراثية فكانت الولاية تورث أو العلم يورث بالدم وليس العمل بالعلم.

فتزاحم المرشدون، من هذا النوع، في كل بلد وصقع، وتكاثرت الطرق بعدد هؤلاء المرشدين، فظهر من خلال ذلك الزغل، وفاحت رائحة الدنيا، وكان لا بد أن تظهر وتتنامى الانحرافات والأخطاء.

ويعطينا الإمام الغزالي صورة عما آل إليه أمر المتصوفة من فساد في زمانه في أواخر القرن الخامس فيقول:

.. إن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ـ قد ألفوا البطالة، واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلانوا جانب السؤال والكدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم: من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار الصيت، واقتناص الأموال بطريق السؤال، تعللاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ.. فلبسوا المرقعات، واتخذوا في الخانقاهات متنزهات. ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سواد تمرة.. فهؤلاء بغضاء الله..[1].

على أن هذا السبيل، بقيت فيه ـ على الرغم من ذلك ـ معالم خير واضحة، ولم تخل العصور من مرشدين مخلصين في توجيههم وإرشادهم،

---

(١) الإحياء ٢ / ٢٥٠.

ملتزمين بقيود الكتاب والسنة، وإن كانوا يقلون مع الزمن، حتى أصبح العثور عليهم أمراً عسيراً يشبه العثور على كنز عظيم نادر.

والذين لا يفرقون بين وظيفتي التعليم والإرشاد، قد يعجبون لهذا الكلام، إذ يتصورون أن القيام بمهمة التربية والتزكية، ليس إلا نوعاً من التعليم، فهو أهون من أن يحتاج إلى هذه القيود كلها؛ إذ كل من أوتي علما يستطيع تعليمه، يستطيع أيضاً أن ينهض بمهمة الإرشاد فيمن يعلمهم، بل الإرشاد والتسليك ليس شيئاً غير وظيفة التعليم ذاتها!.

والذين يتصورون الأمر على هذا النحو، كثيرون جداً، ولكنهم مخطئون بداهة لو تأملوا وتدبروا.

الإرشاد عملية تربوية تستهدف تزكية النفس، وهو يتطلب قدرات فائقة من المرشد، كما يتطلب، قبل هذه القدرات، أن يكون قدوة تامة للمريد.

أما التعليم فليس أكثر من نقل المعارف إلى الأذهان، وإنما يكفي لذلك توفر المادة العلمية، ثم توفر الأداة التعبيرية السليمة.. على أن الناس كانوا، ولا يزالون، أحوج إلى المرشد الكامل منهم إلى المعلم العالم، وإن كانوا بحاجة إلى كليهما معاً.

وهنا نصل إلى المشكلة التي نعاني منها اليوم.

تزكية النفس، التي تستهدف ربط الإنسان بالله عز وجل، حباً له، ومخافة منه ورضا عنه، واتكالا عليه، تسلل إليها كثير من البدع والأخطاء والانحرافات، على أيدي كثير من المسلكين والموجهين، أو ربما التلامذة والمريدين. فماذا يجب أن يصنع المسلمون العلماء الرقباء على دين الله عز وجل.

إن ما يصنعه، في الواقع جل هؤلاء المسلمين ـ وأكثرهم من أهل العلم ـ أنهم يستنكرون هذا السلوك كله، ويحذرون من الأخذ بأسباب هذه التربية من حيث هي، لأن بدعاً أخذت تشيع فيها، ولأن أخطاء وانحرافات ظهرت على حال المشتغلين بها.. وانتشرت أساليب هذا التحذير والإنكار

أقوالاً وكتابات تتكرر هنا وهناك، حتى استهان الناس بتربية هذا الجانب من الكيان الإنساني أيما استهانة، وحتى أهمل الكثير منهم واجب الرقابة والرعاية الوجدانية في حياتهم، إذ حسبوا أن إسلام المسلم يتحقق بإدراك العقل ويقين الفكر، فبقيت عواطفهم طليقة من أي قيد أو توجيه ديني، فكان أن استعمرها وتحكم بها حب الشهوات والأهواء، وهيمنت عليها رعونات النفس ورغائبها. وانشطرت كيانات المسلمين من ذلك شطرين متناقضين بل متصارعين، شطر يتمثل في العقل المصدق والفكر المتفلسف، بياناً للإسلام ودفاعاً عنه، وشطر يتمثل في الانفعالات الوجدانية الخفية، والمنصرفة إلى رغائب الدنيا وأهوائها والمتعلقة بأمراض النفس ورعوناتها..

ونحن نقول: أما البدع والانحرافات، فما من ريب أن على المسلمين الابتعاد عنها والتحذير منها على أن يعلموا قبل كل شئ معنى (البدعة) وتعريفها العلمي في اصطلاح الشريعة الإسلامية، كيف وقد قرر العلماء أن وباء البدعة أشد خطرا من ضرر المعصية، لأن معرفة كون المعصية معصية يدفع مرتكبها، ما دام مسلما، إلى التوبة والاستغفار، أما البدعة فإنما ترتكب على أنها جزء من الدين ذاته، فهيهات أن يستشعر صاحبها في ارتكابها ضرراً يدعوه إلى التوبة والإقلاع.

ولكن علينا، ونحن نحارب البدع ونحذر منها، أن نبقي على الأساس السليم، وأن نحافظ عليه والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأعمال القلوب هذه (هي التي قد تسمى بالمقامات والأحوال هي من أصول الإيمان وقواعد الدين) ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله في «فتاويه» ١٠/١٦.

نعم، أي خير حققه ذاك الذي حارب الذباب المتساقط على وجه صاحبه بصخرة طحنت رأسه قبل أن يتطاير الذباب عنه؟.

إن المصيبة في حال هؤلاء الناس أنهم ينسون أصول الإيمان وقواعده، في غمار حمى هجومهم على البدع والانحرافات، فلا يلفتون إليها

نظراً، ولا يرسمون لها طريقا، ولا يتحدثون عنها من قريب أو بعيد، فتضيع هذه الأصول في تيار حربهم اللاهبة. ثم يعودون وقد حطموا الجدار المتداعي من الدار، ولكنهم قعدوا بعد ذلك راضين مطمئنين في العراء.

وقد علم العقلاء جميعاً أن الجدار المتداعي من الدار لا يجوز تركه، ولكن لا يجوز نسفه أيضا ليستبدل عنه بالعراء. وإنما يبنى من خلفه جدار ثابت مستقيم، حتى إذا تم الوثوق به وتكاملت الطمأنينة إليه، نسف ذلك الجدار الفاسد من أساسه غير مأسوف عليه.

تزكية النفس الإنسانية لب الدين وجوهره، ما في ذلك شك، وتحرير الوجدان الإنساني من غوائل هذه النفس أصل من أصوله الثابتة، لا يرتاب في ذلك مسلم، فماذا صنع الذين يمسكون بمعاول التهديم في نطاق بنائهم لهذه الأصول؟

والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة، يظل يسأل، تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة؟.

كيف السبيل إلى أن أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة، أو جلست أقرأ قرآناً؟.

كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد فيها الله كأني أراه؟

كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لا أحب مع الله غيره، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى لا يتسلل إلى قلبي أي خوف من سواه؟

نعم، إن الشباب المسلم الظامىء يظل يسأل هذه الأسئلة، ولا من مجيب، لأن الذين عليهم أن يجيبوا منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها.

غير أن هؤلاء الشباب إن لم يجدوا أنفسهم أمام أجوبة عملية تروي ظمأهم الإسلامي، فلسوف يقعون، شئنا أم أبينا، في تيار هذه السبل التربوية القائمة، على ما فيها من بدع وانحرافات، لأن شيئاً ما خير من لا شيء،

إن لم يؤمن بذلك العقل دائماً انقاد له الشعور والوجدان غالباً.

ألا ترى إلى الظمآن الذي يمسك بكأس من الماء الملوث يريد أن يشربه، إن خير سبيل عملي تسلكه إلى حجزه عن ذلك الماء، أن تقدم له كأساً أخرى يلمع فيها ماء طاهر عذب. أما أن تجلس مكتفياً بموعظة التحذير والتخويف من ضرر الماء الوحيد الذي بين يديه، وأنت في شغل شاغل عن الظمأ الذي يحرق كبده، فاعلم أن موعظتك لن تؤثر فيه شيئاً، لأن عذاب الظمأ الذي يعانيه أشد عليه من الضرر الذي تخوفه منه.

من أجل هذا، تنظر، فتجد هذه الطرق الصوفية في تزايد وانتشار، وتجد المقبلين عليها في تكاثر مطرد، بل إنك تجدهم في أكثر الأحيان من صفوة الناس ثقافة ودراية ووعياً، لأنهم رأوا في هذه الطرق على علاتها ما يعالج نفوسهم ويرقى بعواطفهم، ويشعرهم بلذة الطاعة والعبادة، ولم يجدوا أمامهم البديل الذي هو خير منها، فكان لا بد من ركونهم إليها مهما حذر المحذرون وأنكر المنكرون.

فانظر، كم يروج هؤلاء المنكرون، للبدع والانحرافات، من حيث يتوهمون أنهم يحاربونها! ولو أنهم تبنوا الدعوة إلى معين هذه الطرق وأصولها الصافية الأولى، ونبهوا الناس (لا سيما هؤلاء الشباب الظامئين) إلى السبل التربوية السليمة التي تعين على تزكية النفس وترقيق القلب، بعيداً عن مزالق البدع والانحرافات، إذن لانفضت جموع الناس عن تلك الطرق التي ينكرونها ويحذرون منها، ولجفت موارد البدع والمنكرات، مع وجود المورد الصافي عن تلك الكدورات والموصل إلى الهدف التربوي ذاته من أسلم طريق.

قد يسأل بعض هؤلاء الذين لا يتقنون إلا صنعة الهدم ـ الهدم بغير بديل ـ: أين هو البديل عن هذه (الطريقة التواكلية والصوفية الجانحة)، يسأل هذا، وكأنه يرى أن هذا النهج كله بدعة من حيث هو، وكأنه شجرة حنظل يتمثل الخطأ في وجودها الذاتي كله، فليس على المصلح سوى أن يقتلعها ثم يجلس ويستريح.

ونقول لهؤلاء الناس أولاً: ما أجدركم أن تعكفوا على ما كتبه ابن تيمية رحمه الله في الجزء العاشر من فتاواه المعنون بـ (علم السلوك)، وأن تقرؤوا ما كتبه ابن القيم رحمه الله في كتابه (مدارج السالكين) ولا نستزيدكم عليهما شيئاً، ثم أن تصححوا تصوراتكم ومعلوماتكم على ضوء ذلك.

ونقول لهم ثانياً: لقد كان مسمى هذا الذي يطلقون عليه التصوف، في صدر الإسلام، حقيقة لا اسم لها، إلا ما سماها الله به من التزكية والتنزه عن باطن الإثم، ثم عاد اليوم اسماً لا مسمى له، إلا جملة وظائف وأعمال، هي بالصنائع والحرف المتوارثة أشبه منها بأي شيء آخر، فأعيدوا - يا دعاة الاتباع ومنكري الابتداع - كل شيء إلى وضعه الذي وضعه الإسلام فيه. دعوا اسم (التصوف) جانباً، واستعيدوا مسماه القديم، مسماه الذي لم يكن له آنذاك هذا الاسم المبتدع الجديد، استعيدوه التزاماً وسلوكاً في حياة المسلمين.

فقد أوضحنا قبل قليل أن هذا المسمى يتمثل في أعمال القلوب، مما يدخل تحت اسم الأحوال والمقامات، وذكرنا أنه من أصول الدين التي لا يجوز أن يعرض عنها أي مسلم، لم يجادل في ذلك أحد.

نعم إن مثل هذا السلوك التربوي الخطير، كان ينبغي أن لا يتم إلا بإشراف مرشد ومسلك، ولكن ماذا نصنع إذا لم نعثر على المرشد الذي يستأهل هذا الاسم عن جدارة، أي الرجل الذي جمع بين العلم الغزير بأحكام الشريعة والعمل بها، ثم تزكت نفسه حتى لم يعد يبالي: أأقبلت الدنيا إليه أم أعرضت عنه، انحط الناس في قدحه أم اجتمعوا على مدحه؟

نكتفي في هذه الحال بالعودة المباشرة إلى كتاب ربنا وسنة نبينا، فنستلهم منهما منهاج هذه التزكية النفسية والتربية الوجدانية، ثم نمارسها وظيفة مستمرة ثابتة، على أساس هذا المنهاج، فإن ذلك خير عون على إشراق القلب وتطهير النفس من كل الأمراض والرعونات.

فلقد ندبنا القرآن إلى القيام بالأسحار، راكعين ساجدين، مكثرين من الاستغفار، بضراعة وذل، فهذا أول جزء من المنهاج المرسوم.

ولقد أمرنا القرآن بالإكثار من ذكر الله في نفوسنا ودون الجهر من القول، ونهانا أن نكون من الغافلين، ثم زاد الأمر تأكيداً في أوقات البكور والآصال، وعند طلوع الشمس وغروبها، نكثر فيهما من التسبيح والتحميد، بقلب خاشع حاضر، وهذا هو الجزء الثاني من المنهاج.

ولقد أوصانا القرآن بالإكثار من تلاوته ـ وهو كتاب ربنا جل جلاله ـ وقد ذكر العلماء أن من أعظم أنواع ذكر الله تعالى الاشتغال بتلاوة كتابه، فهذا جزء ثالث من المنهاج الذي نتحدث عنه.

ولقد نهانا كتاب ربنا جل جلاله عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن أن نغذي جسومنا بشيء من الحرام، وأكدت لنا سنة المصطفى أن الجسم الذي غذي بالحرام، فالنار أولى به، وقد علمنا أن أكل المال الحرام يغلف القلب بالسواد ويجلله بالران، فلا ينفتح لموعظة واعظ ولا يهزه ترغيب ولا يخيفه ترهيب.. وهذا جزء آخر من المنهاج.

ولقد أمرنا كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا بمصاحبة الأخيار، والابتعاد عن مجالسة الأشرار، فإن مصاحبة الأخيار تنقل إشراق أفئدتهم إلى قلبك، وإن نظرهم إليك ينير طوايا نفسك، وإن في مجالسة أصحاب رسول الله ﷺ، له، والآثار التي اكتسبوها من ذلك، لأكبر شاهد على ما نقول. ولا ريب أن النقيض يورث النقيض.. وهذا هو الجزء الخامس من المنهاج.

ثم إن كلاً من الكتاب والسنة قد أمرنا بالإكثار من الصلاة على نبينا محمد؟ دون قيد زمان بعينه أو مكان بعينه، إلا ما أكدته السنة من الترغيب في الإكثار من الصلاة عليه في اليوم والليلة الزهراوين (يوم الجمعة وليلتها) وقد أجمعت الأمة على أن الإكثار من الصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام خير جلاء للقلب، وأفضل طهور للنفس وهذا جزء آخر وليس آخراً من المنهاج.

فمن هذه الأوامر والنواهي يتكامل منهاج تزكية النفس وتربية الوجدان.. وهي لب ما جاء به كل من الكتاب والسنة، وباتباع هذا المنهاج يظهر في حياة المسلم ما يسمى بالأحوال والمقامات، وهو من أجل ذلك يمثل أصول هذا الدين وأساسه.

أفليس هذا المنهاج ـ عارياً من التسميات الطارئة ومطهراً من البدع الباطلة ـ قائماً على دعائم مباشرة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟.. فأين هم الذين يهتمون بالدعوة إليه إلى جانب اهتمامهم بمحاربة البدع، بدع الطرق والتصوف والأذكار؟.

إن بوسع الواحد منا أن يكتب مجلداً ضخماً يحذر فيه من بدع الطرقية وانحراف بعض الصوفية، والمكتبة الإسلامية تعج بعشرات من الكتب المعاصرة التي تحذر من التصوف، وتصب جام غضبها على الصوفية.. ولكن هل غيرت هذه الكتب من الواقع؟ وهل استطاع هؤلاء أن يعالجوا سخائم قلوبهم وأهواء نفوسهم، وأن يصعدوا بعواطفهم المتعلقة بالدنيا بدلاً من التعلق بالدار الآخرة. هل استطاع هؤلاء أن يربوا الجيل المسلم الظمآن، تربية وجدانية صحيحة، وأن يقدموا لهم الصورة الصادقة للإسلام؟.

إن كثيراً من هؤلاء الذين اشتغلوا عن سلسلة هذه الأوامر الإلهية، بالانهماك في أمر البدع والتحذير منها، يتجاذبون فيما بينهم أطراف أحاديثهم هذه ممزوجة بلحوم محرمة ينهشونها على موائد الغيبة، لا يقطعها صوت أذان يصك أسماعهم، ثم لا ينهضون إلى الصلاة إلا وقد مر معظم وقتها، ولا يقبلوا إليها إلا متثاقلين، يمرون بحركاتها وأركانها، مر من يستعجل كي ينتهي ويستريح. فإذا سلموا يمنة ويسرة، دارت على ألسنتهم كلمات محفوظة مكررة، ثم أقبلوا يصلون ما انقطع من الحديث الممتع عن البدع والمبتدعة ومن لف لفهم.

أفليست هذه الحال من شر أنواع البدع والانحرافات التي يجب تجنبها والتحذير منها؟.

ولكن كيف يمكن تجنبها؟ إن السبيل إلى ذلك رهن بتزكية النفس، والاهتمام بما سماه ابن تيمية (أعمال القلوب)، ولا ريب أن السلوك إلى ذلك أشق أنواع الجهاد كلها، دلت على ذلك التجربة والمشاهدة، وأقوى من هذا الدليل وأقوم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف ٥٣].

على أننا نؤكد على ضرورة التحذير من البدع، وضرورة اقتلاعها من تربة مجتمعنا الإسلامي، ولكن لا معنى لهذا العمل قط، إن لم نسرع فنغرس هذه التربة بغراس التربية الإسلامية[1].

● ● ●

(١) انتهى بتصرف يسير من كتاب «الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية» للبوطي ص ٢٠٠ ـ ٢٢٠.

الفصل العاشر
أمور اجتهادية بين الصوفية والسلفية

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه القيم: «السلفية مرحلة زمنية»:

«هناك أعمال ومسالك تربوية كثيرة يأخذ بها بعض الناس أنفسهم، أو يسلكون فيها تلامذتهم، ابتغاء تطهير النفس من الرعونات، وإخضاع القلب للمشاعر والمعاني الإيمانية، لم يتمحض فيها وجه الصحة من حيث اتفاقها مع أحكام الشرع، كما لم تتمحض فيها دلائل الحرمة أو البطلان من حيث مخالفتها لتلك المبادىء والأحكام، فكانت بذلك أموراً اجتهادية، تدور على كل الأحوال ولدى مختلف النظرات، ضمن دائرة المنهج المرسوم في فهم الكتاب والسنة، والقواعد الضابطة لتفسيرهما وكيفية الأخذ بهما.

فهذه المسالك والأعمال الاجتهادية، التي تتخذ سبيلاً إلى التحقق بجوهر الإسلام ولبه، تظل في مجموعها سائغة ومشروعة، شأنها كشأن سائر الفهوم والأعمال الاجتهادية الأخرى، ولا يملك صاحب رأي فيها أن يحتج بالرأي الذي انتهى إليه على ضلال الرأي الآخر الذي انقدح في ذهن صاحبه، كما لا يملك صاحبه هذا أن يبادله النظرة ذاتها، إذ لا مقياس وحاكم بينهما سوى قواعد المنهج المرسوم، والقاعدة المتعلقة بهذه المشكلة هي بذاتها محل نظر واجتهاد. فتقرر بذلك أن التضليل أو التسفيه بشأن هذه المشكلة، والرأي الذي قد يراه أحدنا فيها، افتئات على الدين وتمرد على

موازين الشرع، وممارسة للأنانية النفسية وحب الانتصار للذات تحت اسم الدين والدفاع عن الحق.

والمسالك والأعمال الاجتهادية التي تدخل في نطاق السعي إلى التحلي بحقائق الإسلام ولبابه، والتي أخذت فيما بعد اسم التصوف، كثيرة ومتنوعة، فلنضرب المثل بطائفة منها، ولنعرض أكثرها شيوعاً بين الأطراف المتخاصمة والمتصارعة.»

حلقات الذكر:

فمن ذلك التداعي إلى حلقات الذكر في أوقات محددة، وعلى نحو معين. فإن كثيراً ممن ينتسبون إلى المذهب السلفي، ينكرون مثل هذا الذكر، وينكرون على أصحابه، وينسبونهم إلى الابتداع والضلال؛ مستدلين بأن هذه الجلسة المحددة بهذا الشكل وعلى هذا النظام، لم تكن معروفة في عصر السلف، ولا نرى شاهداً عليها في كتاب ولا سنة.

غير أن الذين يتداعون إلى هذه الحلقات ويحضرونها، يحتجون بالعموم الذي يدل عليه قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ١٩١] وهو عموم بين لايخرج من نطاقه إلا ما أخرجه نص آخر عن طريق الاستثناء والتخصيص، وذلك كأن يتلبس الذكر بعمل منهي عنه كالرقص والتثني، فهذا ممنوع وخارج من عموم النص القرآني العام استنادا إلى دليل حرمة الرقص والتثني، واذا اجتمع المشروع والمحرم في مناط واحد، كان الأثر الأقوى للمحرم عملاً بقاعدة: (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح). فأما إن مارس الإنسان ذكر الله تعالى منفرداً أو مع أصحاب له على أي حالة وفي أي وقت، بعيداً عن وضع خاص دل الدليل على حرمته، فكل ذلك مشروع مبرور بدلالة عموم هذا النص القرآني.

ويحتجون بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ - أي يذكرون -، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وفي الحديث

الثابت يقول ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أصبر نفسي معهم»، وليس أبلغ في باب التقوى من الذكر، فوجب التعاون عليه والاجتماع له.

وقد فضّل الله صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبعة وعشرين ضعفاً، كما جاءت به الأحاديث الصحيحة، للدلالة على أن في الاجتماع على العبادة فضل وتعاون، لا يتركه إلا الغافلون.

وقد قال النبي ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**» فهو ترغيب مطلق في الحث على الاجتماع للخيرات، كذلك فضّل الله صلاة الجمعة على غيرها لما فيها من الاجتماع والتعاون.

وفي الحديث المتفق عليه، يقول الله تعالى عن عبده: «**إذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ ـ أي جماعة ـ خير منهم**» وهو أيضا حث ظاهر على الذكر في جماعة، ليحوز الإنسان شرف الذكر في الملأ الأعلى.

الذكر في المساجد:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ومن عمارة المساجد كما نص عليه كثير من المفسرين، أن يقوم الإنسان فيها بالعبادة، ولا شك أن أفضل العبادة بعد الفرائض ذكر الله.

وقد كان الصحابة لعهد رسول الله ﷺ يعقدون حلق الذكر في المساجد والنبي ﷺ يراهم ويقرهم ويبشرهم، كما جاء في رواية مسلم من حديث أبي سعيد عن معاوية، أنه ﷺ خرج على بعض أصحابه وهم حلقة يذكرون الله ويحمدونه فأخبرهم أن جبريل أتاه فبلغه أن الله يباهي بهم الملائكة.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**» أي في الملأ الأعلى.

والواقع أن كتب الحديث الستة الصحاح مشحونة بالندب إلى الذكر في المساجد، وهو مشمول بعموم قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ولا يقال أن المراد بالذكر هنا الصلاة، فقد اندفع هذا الاستشكال بقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾.

فتراه عند وصف هؤلاء الرجال قدم لفظ (الذكر) ثم أردفه بلفظ (الصلاة) منعاً من الاشتباه والتأويل. ومن هذا تتبين شرعية الذكر في المساجد والزوايا وفضلها على غيرها في ذلك، لأنها إنما أوجدت لإحياء مختلف شعائر الإسلام فيها ومنها الذكر، وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[1]

وقد يعترض بعضهم مما يحدث من التشويش على المصلين، ولذلك يجب إقامة مجالس الذكر بعد العشاء وبعد الفجر، وبعد الجمعة، وهذه الأوقات الثلاثة لا يكون فيها صلاة عادة في المساجد، فإنه من تفوته جماعة بعض هذه الأوقات، لا يسعى إلى المسجد بعدها، بل يؤديها حيثما اتفق له، والمشاهدة والعادة دليل غير مردود.

أما ما جاء من أحاديث النهي عن رفع الصوت في المسجد فهو خاص بأحد شيئين (الأول) النهي عن كلام الدنيا، و (الثاني) مزيد رفع الصوت بالذكر أو القرآن بما يحدث الجلبة، ويتنافى مع وقار المسجد.

ويُخشى على الذين يمنعون ذكر الله في المساجد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[2].

---

(١) الرأي والعدل والدين: أنه إذا بنى مسجد أو زاوية لغرض الذكر، وعرف ذلك الناس، فأولى ألا يعترض عليه أحد، وذاكر الله جهراً كالمدرس في المسجد جهراً سواء بسواء، وكما يجوز هذا يجوز ذاك، وقد كان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة الدين ويحفظهم القرآن، ويقضي بين الناس ويستمع لخطب الوفود ويرد عليها في المسجد.

(٢) معالم المشروع والممنوع ص ٣٣ ـ ٣٥ باختصار.

كما أنهم يحتجون بأحاديث كثيرة ثابتة، من مثل حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم مرفوعاً: «**لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**». وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة مرفوعا: «**إن لله ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر**» مع العلم بأن عقد مجالس الذكر لا يمكن أن يتم إلا على حالة ما وفي وقت ما. وكما لم يرد نص بتحديد حالة أو وقت معين له، فكذلك لم يرد نص يأمر بتجنب حالة مخصوصة أو وقت محدود له، وإذن فالانضباط بحالة مخصوصة أو وقت مخصوص، ليس أولى بتسميته بدعة من القصد إلى عدم الانضباط بأي حالة أو وقت.

فالمسألة اجتهادية قابلة للنظر، وإن كلا الرأيين يمكن أن يعتمد على مستند داخل في نطاق المنهج المرسوم المتفق على تحكيمه. ولا ريب أن أصحاب كلا الرأيين موقنون بضرورة تجنب البدع، متفقون على قاسم مشترك منها، ولكن الخلاف هنا يقع في دائرة (تحقيق المناط) أي في مجال تطبيق هذا المبدأ على جزئية لا يستبين فيها دليل قاطع على أحد الرأيين.

إن اعتداد أحد الفريقين برأيه إلى درجة تسوقه إلى تضليل الفريق الثاني ونسبته إلى الابتداع والفسق، أمر لا يقره جوهر الدين، ولا يعبر إلا عن أنانية نفسية بغيضة تقنعت بقناع الدعوة إلى الدين والانتصار للحق، ولا فرق في هذا بين أي من الفريقين وأي من الرأيين

ذكر الله تعالى بالاسم المفرد:

ومن ذلك ذكر الله تعالى بالاسم المفرد (الله) دون ذكره في جملة ذات معنى تام.

فإن جل من ينسبون أنفسهم إلى مذهب السلفية، ينكرون هذا الذكر ويحرمونه، وينسبون من يذكر الله باسمه المفرد وحده إلى الضلال، ويستدلون على ذلك بأن جميع ما ورد من صيغ الأذكار في القرآن والسنة جمل أو كلمات ذات دلالة على معنى يتضمن حكماً كاملاً، مثل: لا إله

إلا الله، أستغفر الله، سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وليس فيها لفظ الجلالة المفرد؛ فذكر الله بهذا اللفظ بدعة باطلة، كما يستدلون أيضاً بأن الاستمرار على ذكر الله بهذا اللفظ المفرد من شأنه أن يزج الذاكر شيئاً فشيئاً في أوهام الحلول ووحدة الوجود[1].

ولكن عامة المسلمين من غيرهم لا يجدون حرجاً من أن يذكروا الله تعالى بأي من أسمائه أو صفاته المفردة، أو يذكروه بشيء من الصيغ والجمل الدالة على معنى يتضمن حكماً من أحكام التوحيد أو التنزيه.

ودليلهم على ذلك صريح قول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل] والتبتل هو الخشوع والتذلل والانقطاع عن الشواغل. وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ومن المعلوم أن أول أسمائه تعالى: الله. وقوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف ٢٠٥].

وذكر الله في النفس أعم من أن يقيد بمدلول جملة ذات معنى متكامل يتضمن حكما من أحكام التوحيد أو التنزيه، فإن الجملة من مستلزمات التراكيب اللفظية، والذكر النفسي قد لا يعتمد على شيء من هذه التراكيب، وإنما يكون المعني به نقيض النسيان، ولا أدل على ذلك من قوله عز وجل، في آخر الآية المذكورة ﴿.. وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾. وهذا الذكر يكون بإجراء اسم الجلالة أو أي من صفات الله تعالى: الخالق، الرازق، المصور، الحكيم.. إلخ على القلب، بحيث يكون يقظاً لشهود الله تعالى، في اسمه الفرد، أو في أي من صفاته المعروفة.

(أما اللغة فإنها تدل أيضاً على جواز الذكر بالأسماء المفردة، لأنها في حقائقها جمل كاملة، فالاسم (الله) إما خبر لمبتدأ محذوف تقديره: ربي الله مثلاً، وإما مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: الله ربي، أو الله قادر مثلاً، أو

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/٥٥٦.

مفعول لفعل محذوف تقديره (أستغفر الله أو أستعين بالله مثلاً، وإما منادى محذوفة ياء ندائه والتقدير، يا الله جائزة لغة، مطلوبة بلاغة، ويقال مثل هذا في كل الأسماء المذكور بها.

وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ولفظ الله هنا مرفوع على وجهي المبتدأ والخبر. وفي الآية إشارة لطيفة إلى جمال الذكر بالاسم المفرد.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء معناه النداء، والنداء ذكر، فكأنه يقول: قل ادعو قائلين: يا الله ويا رحمن، وهكذا.

بل إن النبي ﷺ سمع بأذنيه الذكر بالاسم المفرد وأقره، فقد ورد صحيحا أنه كان يمر على بلال بن رباح، وهو يعذب من أجل الإسلام، ويخفف عن نفسه بقوله: (أحد أحد) فيتأثر النبي ﷺ له، ولم ينهه، وظاهر أن (أحدا) اسم من أسماء الله، وسكوت النبي ﷺ على سماعه يجعل الذكر المفرد سنة إقرارية من الحق أن تؤدى، وقال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ - يعني (الله، وحي، وغيرها) ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ (أي اذكروه ونادوه) ﴿بِهَا﴾.

وفي حديث مسلم وغيره: «**لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله الله!!**» ففيه جواز الذكر باسم الله المفرد معرباً على الإغراء والتحذير أو على المبتدأ والخبر، فهل الجاهلون يمنعون الذكر بالاسم المفرد؟)[1].

وربما ناقشوا من يقول: إن الاستمرار في ذكر الله باسمه المفرد، من شأنه أن يزج الذاكر في أوهام الحلول ووحدة الوجود، بأن ذكر الله تعالى باللفظ أو القلب، وبأي أسمائه عز وجل، من شأنه أن يرقى بالذاكر إلى كل

---

(١) معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصر - للشيخ محمد زكي إبراهيم ص ١٤.

من حالتي الجمع والفرق في اعتدال وتناسق، فكما أن ذكر الله تعالى ينبه الذاكر إلى معاني الجمع، فهو يعيده في الوقت ذاته إلى حقائق الفرق.

فالأدلة في هذه المسألة محتملة، وليست قاطعة، ومن ثم فالاختلاف فيها وارد، والرأيان لا يخرجان بحمد الله عن دائرة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، طبق ما يقتضيه ميزان تفسير النصوص ومنهج النظر والبحث.

إنما الذي يخرج عن هذه الدائرة هو من يذهب في الاعتداد برأيه مذهباً يدعوه إلى وصف صاحب الرأي الآخر بالجنوح إلى الفسق والضلال.

فهذا الاتهام هو الخروج على دائرة المنهج، إذ هو بدون ريب تأل على دين الله بما لم يأذن به الله تعالى.

إن القول بضلالة من استدل بقول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ فأجاز ذكر الله باسمه المفرد، طبقاً لما يدل عليه صريح هذا النص، قول بما لم يأذن به الله، وتحجير واسع في نطاق فهم كلام الله، وأنانية واضحة من صاحب هذا القول، تتمثل في أنه يحجر حق تأويل الآيات القرآنية أو عدم تأويلها، لنفسه وحده دون غيره.

كما أن اتهام الفريق الثاني بضلالة من رأي اجتهاداً، أن ذكر الله إنما يجب أن يكون من خلال ترديد جملة وافية المعنى، لا من خلال ترديد كلمة واحدة تتضمن اسم الله أو بعضاً من صفاته، هو أيضاً قول بما لم يأذن به الله، وتحجير لواسع في نطاق فهم كلام الله، وركوب لمتن الأنانية النفسية في مسألة دينية ينبغي تنزيهها عن حظوظ النفس والسعي إلى الانتصار للذات[1].

نعم لا ضير من الحوار بين الأطراف في أي مسألة اجتهادية مما

---

(١) إن الذي مكن لخصوم التصوف وصرف كثيراً من المثقفين عن حظيرته المقدسة ما يرونه من مهازل المواكب الرسمية والموالد البدعية، وحلقات العبث والتهريج التي تسمى ظلماً وزوراً بحلقات الذكر، وما هي إلا المنكر المتجسد والطاعون القاتل للتصوف الصحيح ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾.

اختلف فيه الفقهاء وغيرهم، ابتغاء التعاون في البحث عن الحق الواحد في ميزان الله عز وجل، فإن وصلوا إليه واتحدوا في التمسك به فذاك، وإلا فإن على كل فريق أن يعذر الآخر، بل أن يوصيه بالعمل وفق ما دل عليه اجتهاده.. هذا ما يقضي به دين الله وما يدعو إليه منهج المعرفة وقواعد الاجتهاد وتفسير النصوص.

ولكن، أين هذا ممن تشبع بأحد هذين الرأيين، فلم يأل جهداً في تضليل أصحاب الرأي الآخر ونسبتهم إلى الزغل والفسوق والابتداع، غير مبال بما ينتجه ذلك من الأحقاد والعداوات النفسية التي ما جاء هذا الدين إلا للقضاء عليها وجمع الناس تحت ظلال الإلفة والمحبة والإخاء؟!.

الأحزاب والأوراد:

ومن المسائل المختلف فيها قراءة الأحزاب والأوراد، والأدعية، المنثورة والمنظومة، فبعضهم ذهب إلى تحريمها، بحجة عدم ورودها.

ويمكن أن يقال لهؤلاء أنها واردة، ومأمور بها أيضاً، فهي في مرتبة الوجوب لأنها دعاء محض، والدعاء مطلوب شرعاً وعقلاً، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى، بغير قيود ولا شروط.

وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي أنه قال: **«الدعاء هو العبادة والدعاء مخ العبادة»**.

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: **«ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها،** فقال رجل من القوم إذن نكثر؟ قال النبي ﷺ **الله أكثر»** رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

والحديث الأخير صريح جداً في جواز الدعاء بما شئت، في أي عبارة

شئت، حيث قال فيه (بدعوة) وأطلقها من القيود، والأحزاب ونحوها قائمة على هذا الأساس، مع كثرة ما فيها من الوارد.

ثم إن الوارد أفضل، ولكن لا بأس بغيره ما دام لم يأت فيه نهي، إذ من شبه المستحيل أن يحفظ كل إنسان كل ما ورد، ليدعو في كل حادث بما يوافقه منه، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها. فالعبد يسأل الله بما استطاع، وقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» وليس في كل ذلك قيد بوارد ولا غيره.

الرابطة وأصلها:

يقول العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه: «هذا والدي»:

(معنى الرابطة فيما يقرره ويحرص عليه كثير من مشايخ الطريقة النقشبندية، هو أن يبدأ المريد في أول توجهه إلى ذكر الله عز وجل، فيتصور شيخه ويجعل من تصوره هذا فاتحة ذكره لله عز وجل.. ويوصي هؤلاء الشيوخ مريديهم بهذا العمل على أنه ضرورة لا بد منه. ووجه ضرورته في نظرهم: أن المريد لا يستطيع أن يستلهم ذكر الله عز وجل إلا إذا تصور الشيخ أولاً، إذ إنه هو الذي يمكنه من دخول الحضرة الإلهية ذاكراً ومراقباً.

هذه الرابطة، بهذا المعنى، كان أبي رحمه الله شديد الإنكار لها، وشديد الإنكار على من يدعون إليها من الشيوخ أو من يمارسونها من المريدين.

ولقد دعت المناسبة ذات يوم فتحدثت عن هذه الرابطة في أحد دروسي العامة، وأوضحت حرمة هذا التوجيه وهذا السلوك، وبراءة التصوف من هذه البدعة التي أقحمت فيه.

وكان أن بلغ كلامي هذا، سمع أحد شيوخ الطريقة النقشبندية في الجزيرة، فزار أبي ليشكوني إليه، ظاناً ـ نظراً إلى شدة تمسكه بالتصوف ودفاعه عنه ـ أنه يقول بهذه الرابطة المنكرة ويدافع عنها.. جلس الشيخ

يروي لأبي ما بلغه من حديثي عن الرابطة وإنكاري لها، وكنت أسمع، وكان من عادتي أن أجنح إلى الصمت في مجلس والدي إلا إن طلب مني الكلام أو اقتضى الأمر ذلك.

ولما أنهى الشيخ حديثه، قال له أبي رحمه الله: إن هذا الذي قاله سعيد صحيح!..

ثم قال: إن المسلم إذا جلس يذكر الله، يجب أن لا يستحضر حتى صورة رسول الله في ذهنه، فكيف بصورة الشيخ؟.

ثم فصّل له القول في أصل هذه الرابطة فقال: إن الرابطة عند قدماء شيوخ الطريقة النقشبندية لم تكن تعني أكثر من حب المريد للشيخ، وهو حق لا اعتراض عليه، لأن علاقة الشيخ بالمريد، هي علاقة تربية وتسليك، ولن ينصاع المريد لتربية الشيخ إلا إن أحبه ووثق به. غير أن هذا الحب ما ينبغي أن يمحضه المريد إلا للشيخ الذي جمع بين العلم والسلوك واستقام على الرشد والخلق الإسلامي الحميد، وكان مثال الزهد والورع والتقوى.

ثم أشار أبي للشيخ إلى مكتوبات الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، وأوصى أن يعود إليه ليجد فيه تفصيل هذا الكلام الذي أوضحه له)[1].

ويقول الدكتور محمد درنيقة في كتابه «السيد محمد رشيد رضا»:

(لقد اعتمدت الطريقة النقشبندية على إلزام مريديها بالرابطة التي تكون في ابتداء الذكر عندهم. وطريقتها أن يستحضر المريد صورة شيخه، وما يتبع ذلك من طاعة لأوامر الشيخ المرشد.

يبين رشيد رضا بأن أئمة الصوفية وكبراءهم ما وضعوا هذه القاعدة إلا عن علم وتجربة واختبار، حيث توصلوا بها إلى مرتبة اليقين بأن ذلك مفيد لهم وموصل إلى الغاية التي يقصدون، وفي ذلك يقول: (إن التوجه والرابطة

---

(١) والمكان الذي أحال إليه من هذا الكتاب هو المكتوب التسعون والمئة، في التحريض على مداومة الذكر مع بيان كيفية الذكر. ج١ ص ١٦١ طبعة إستانبول. (هذا والدي ص ١٠٢ ـ ١٠٣).

ليسا من الدين في شيء، ولا يجوز أن يعدا من العبادة المشروعة في الإسلام؛ ولكن لا أقول بكفر كل من عمل أو يعمل بهما؛ وإنما أخشى أن يكون بعض المقلدين لهذه الطريقة تقليداً من غير علم بالشرع؛ وعرفان بحقيقة النفس، أقرب إلى الوثنية منهم إلى التوحيد، فيما يكون بين الشيخ والمريد)[1]. وفي رأيه أنه يمكن للمريد العارف بعقيدة الإسلام أن يجمع بين عقيدة التوحيد وتخيل شيخه، كأن يتخيله بقربه، يراقب أدبه وحضور قلبه في الذكر، مع الاعتقاد بأنه يتوجه في قبول ذكره إلى الله تعالى وحده، وبأن شيخه لا ينفع ولا يضر ويقبل العمل أو لا يقبله (فمثال هذا لا يعد مشركاً لشيخه مع ربه، وهو لا يشغله تخيله لشيخه عن ذكره. إذا عرفت هذا وهو ما عليه محققو العارفين من الصوفية تبين لك أن مسألة التوجه والرابطة من الوسائل التي تعد من وسائل علم النفس، وليست بحد ذاتها من الدين فيستدل عليها بالآيات والأحاديث؛ وأن علم النفس كعلم الآفاق قد يكون بالإرادة طريقاً لمعرفة الله تعالى، وبالقصد والنية عبادة له.

والأصل في ذلك عند الصوفية قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

إنني ـ رشيد رضا ـ قد وجدت أثر الرابطة والتوجه في نفسي: رأيت ما لم يره معي الناظرون، وسمعت ما لم يسمعه مثلي المصغون، وشممت ما لم يكن يشم الحاضرون، ولا أحب شرح ذلك في المنار، ولا الخوض في علله وأسبابه، وما ذكرت هذه الإشارة إلا ليعلم السالكون لهذه الطريقة بالفعل أنني لست منها كما يقال في المثال «من جهل شيئاً عاداه» وإنما أتكلم فيها عن عرفان وأحكم فيها بسلطان)[2].

وخلاصة رأيه في الرابطة والتوجه أنهما ليسا من عبادات الإسلام لأنه ليس هناك من دليل فيه على كونهما مشروعين. لذلك فإن

---

(١) المنار ١١: ٥٠٩.

(٢) رضا، منار، مجلد١١، ص ٥٠٩.

أئمة الصوفية يعتبرونهما من وسائل معرفة النفس[1].

وقد كان لهذه الفتوى الوقع الحسن عند نقشبندية سنغافورة وغيرها من البلاد الشرقية فكتبوا له عدة رسائل تبين اغتباطهم بهذه الفتوى: (نحن معاشر أهل الطريقة بهذه الجهات؛ قد عثرنا على فتواكم في رابطة أهل الطريقة، فحمدنا الله على صنيعكم وما أيدتم طريقتنا بقولكم: «يمكن للمريد العارف بعقيدة الإسلام أن يجمع بين التوحيد وبين تخيل شيخه؛ فمثل هذا لا يعد مشركاً لشيخه مع ربه»).

وهكذا فقد استعار الصوفية لأنفسهم ألفاظاً من اللغة أخرجوها عن معناها الأصلي، وعبروا بها عن أذواقهم ومعارفهم؛ كما فعل غيرهم من العلماء في شتى الفنون.

وفي رأي رشيد رضا أنه لا يشترط في إباحة ذلك لهم أن كل ما قالوا به قد نطق به الشرع. لذلك فهو ينتقدهم بأمرين:

أحدهما: عندما جعلوا بعض اصطلاحهم وآرائهم من الدين بغير دليل شرعي.

ثانيهما: كون بعض أفكارهم مخالفة للكتاب والسنة الثابتة. فهم في رأيه فلاسفة يدينون بالإسلام، مع الاجتهاد والاستقلال، إذ الصوفي الحقيقي لا يكون مقلداً إلا في بداية سلوكه، فإنه حينئذ يقلد شيخه فقط.

قولهم مدد:

لقد درج معظم الصوفية على طلب المدد من مشايخهم، وذلك عند ابتداء الذكر. وقد اختلف العلماء في جواز هذا الأمر؛ فانبرى رشيد رضا يبين ما هو جائز وما لا يجوز.

فهو يذكر أن (الاستمداد طلب المدد، وهو ما يمد الشيء أي يزيد في

---

(١) رضا، منار / مجلد ١١ ص ٥١٥.

مادته الحسية أو المعنوية. فمن طلب من مخلوق مدداً جسمياً كالزيادة في ماله ورزقه، والنماء في زرعه بغير الأسباب التي جعلها الله شرعاً بين خلقه، فقد طلب منه ما لا يطلب إلا من الله تعالى، وهذا ينافي التوحيد لأنه عبادة لغير الله تعالى.

ومن طلب من المخلوق مدداً معنوياً فهو على نوعين: نوع يعد شركاً كطلب الزيادة في العمر؛ فإن هذا مما لا يطلب إلا من الله تعالى؛ فمن طلبه من غيره فقد أشركه معه.

ونوع لا يعد شركاً لأنه داخل في دائرة الأسباب؛ وهو ما يطلبه المتصوفون من أهل العلم بزيارة الصالحين وقربهم أو ذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور أحوالهم من الزيادة في حب الخير والصلاح والتقوى. ويعبرون عن هذه الزيادة التي يجدونها في نفوسهم بالبركة والمدد؛ ولكنهم لا يدعونهم من دون الله)[1].

فالاستمداد بهذا الشكل مسموح به لأن الإنسان يتأثر بأحوال غيره إذا رآها أو سمعها أو تصورها. فإذا كانت أعمالاً صالحة ازداد إقبال الإنسان على الصلاح، والعكس بالعكس. ويضرب رشيد رضا الأمثال: فالذين يعاشرون المستبدين والفاسقين تقوى في نفوسهم دواعي الظلم والانغماس في الشهوات؛ وإذا جلس الإنسان إلى حزين كئيب فسرعان ما يسري إلى نفسه شيء من كآبته؛ والجلوس إلى المسرور يحمل إلى نفس الجليس أثراً من هذا السرور وانشراح الصدر. ومعاشرة أهل الجد والنشاط تحمل نصيباً من نشاطهم وجدهم إلى غير ذلك من الأمثال[2].

ويصف رشيد رضا تجربته الشخصية في هذا المجال فيقول: (وقد رأينا أثر الخير والصلاح في أنفسنا من بركة بعض مشايخنا، كما رأينا، ولله الحمد، في أنفس تلامذتنا. كنا إذا نمنا عند شيخنا الناسك أبي المحاسن

---

(١) رضا، منار، مجلد ١٤ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) رضا، منار، مجلد ١٤ ص ٢٦٤.

القاوقجي، رحمه الله تعالى، نزداد رغبة في العبادة من صيام وقيام، إذ نرى ذلك الشيخ الكبير في السن والقدر يصوم الأيام الفاضلة، ويقوم طائفة من الليل؛ لا يجيء الثلث الأخير منه إلا ونستيقظ ونحن رقود في حجرة بجانب حجرته، على صوت تكبيره وقراءته وبكائه.

وأما شيخنا الأستاذ الإمام فكان إذا قام من الليل لا يسمع له صوت، ولا يشعر له بحركة. وكنا نرى أثر مجالسه الخاصة في زيادة الإيمان بالله عز وجل، والثقة به جل ثناؤه والغيرة على الدين وعلو الهمة في الخير).

الكشف:

ومن تلك الأمور الاجتهادية التي وقع فيها الاختلاف: الكشف.

(والكشف في اللغة: رفع الحجاب. وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً).

يقول ابن القيم في الكشف: (ونور الكشف عندهم هو مبدأ الشهود، وهو نور تجلي معاني الأسماء الحسنى على القلب، فتضيء به ظلمة القلب، ويرتفع به حجاب الكشف. ولا تلتفت إلى غير هذا فتزل قدم بعد ثبوتها)[1].

ولم يقل أحد من أئمة المسلمين بأن الكشف من الدلائل الشرعية، أو من مآخذ الأحكام الدينية. فالكشف الذي يتحدث عنه الصوفية لا يثبت به حكم شرعي، ولا دليل حكم شرعي. ويعتبر أنه لو جعلنا الكشف حجة شرعية لما كانت دلائل الشرع محصورة فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله، وأخذه عنه الصحابة، الذين هم خير الأمة؛ ومع ذلك فلم يحتجوا بالكشف ولم يقولوا به.

لكن نقل عن بعضهم شيء من النطق بالإلهام الصادق، كما ورد عن

---

(١) المنار ٩: ٤١٣.

أبي بكر وعثمان.. الذين لم يعتبروا ذلك كشفاً ولا طريقاً لمعرفة الأحكام الشرعية. فعثمان اعتبر ما حصل له مع الرجل فراسة المؤمن، وكبار الصوفية يعدون موافقة الكشف للشرع من شروط صحته، فهذا محيي الدين بن عربي يقول:

كل كشف شهد الشرع له فهو علم فبه فلتعتصم

ويعتبر كثير من الصوفية أن الكشف إذا جاء بخلاف الشرع فهو باطل؛ لأنه يكون من وحي الشياطين[1].

فالشريعة، لا تحتاج إلى أن يكملها كشف أو رؤيا أو أحلام، فهي الحاكمة لا يحكم عليها سواها (فلا وجه للاعتماد على قول من يصحح الأحاديث بالكشف؛ ولا قول من يجعل الكشف أصلاً شرعياً؛ ولا عمل المكاشف بكشفه المخالف للشرع)[2].

وعلماء أصول الدين وعقائده وأحكامه متفقون على أن الكشف والإلهام ليسا من أدلة الشريعة، ولا يثبت بهما حكم ولا تقوم بهما حجة؛ لأنه لا يجوز العمل بما لا يقوم عليه الدليل من الكتاب والسنة. كما أن بعض الباحثين يعلن عدم ثقته بصفاء أرواح هؤلاء المكاشفين وعدم قدرتهم على ضبط ما يروونه[3].

«فالكشف، ضرب من إدراك النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد، فليس بدليل عقلي ولا شرعي، وإنما هو إدراكات ناقصة تخطىء وتصيب.

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات في الكشف تعارض أهله وتناقضهم فيه. فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله أن يصدق منه ما يخالفها، وأن يثبت من أمر عالم الغيب ما لم يثبت بها؛ وما أغنانا عن هذا كله.

---

(١) مجلة المنار ١٠ ـ ٣٥٦.

(٢) مجلة المنار ٣٢ ـ ١٠١.

(٣) المصدر السابق.

وقال أئمة الصوفية العارفون: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء، فلا تعتدوا به حتى تروه عند الأمر والنهي الشرعيين.

كما تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين أن أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف).

ويذكر رشيد رضا بأنه قد حصلت له مكاشفات عديدة نتيجة لعباداته ومراقباته. وكان يكتم ما لم يعلمه الناس؛ وأما ما يقع له معهم فقد كان يقول عنه: مصادفة أو رأي أو خاطر؛ لأنه غير مغترٍ بنفسه فلا يدعي أن له خصوصية عند الله تعالى[1].

اصطلاحات علماء التصوف:

ومن الأمور الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف: ألفاظ اصطلح عليها عند علماء التصوف والمهتمين بتزكية النفوس، كالوقت، والمقام، والحال، والقبض والبسط، والشريعة، والحقيقة، والطريقة.

فربما نظر بعض الباحثين إلى هذه المصطلحات، والأصول التربوية التي يأخذ المريد بها نفسه على ضوئها، فهداه اجتهاده إلى أنها أمور مبتدعة طارئة على الدين الذي كمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بشهادة قول الله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة ٣]، فلم يعر التفاتاً إليها ولا عملاً بها.

ولقد كان في علماء الحديث ورواته من ينكر التعمق في بيان أحوال النفس، والتعامل بهذه المصطلحات والألفاظ.

غير أن كثيراً من علماء السلف وذوي الاستقامة والصدارة فيهم، كانوا يتعاملون بهذه المصطلحات وينظمون أصول تزكية النفس وتطهير القلب على ضوء مدلولاتها، من هؤلاء: سهل التستري، والحارث المحاسبي، والجنيد

---

(١) مجلة المنار ٣٣: ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

البغدادي، ومعروف الكرخي، وكثيرون غيرهم. وخلاصة ما يرونه في ذلك أنها ليست أكثر من تفصيل لما أجمله كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أصول الرعاية للباطن، وحمايته من الأدران والموبقات، والتنبيه إلى ما قد يتعرض له الإنسان أثناء سلوكه من قوانص الخطرات والوساوس النفسية.

ولو كان الخوض في تفصيل مجملات القرآن والسنة، أو السير في طريق مستلزماتهما، بدعة محرمة، إذن لكانت علوم الشريعة كلها بدعة، فإن هذه العلوم على اختلافها إما أن تكون تفصيلاً لما أجمله أو أوجزه الكتاب والسنة، وإما أن تكون من مستلزمات العمل بهما. وما من أحد قال بأن الاشتغال بها بدعة محرمة قط.

فمهما جدت مصطلحات وألفاظ حديثة، فإن مطمح النظر ينبغي أن يكون إلى ما تتضمنه تلك المصطلحات من المعاني والأفكار، فإن رأيتها داخلة في معاني الكتاب والسنة، مرسخة لها، أو مبينة ومفصلة لمجملها، فهي مع المصطلحات الجديدة المعبرة عنها، من جوهر الدين ولبه. وإن رأيتها خارجة على معاني الكتاب والسنة زائدة عليها أو معارضة لها، فتلك هي البدعة التي حذر منها رسول الله ﷺ وأمر باجتنابها.

غير أن لمن شاء من العلماء والباحثين أن لا ينظر هذه النظرة، إذ من الممكن أن يرى أن معنى البدعة التي نهى رسول الله ﷺ عنها أشمل من هذا القدر وأوسع. وأن استحداث تعابير ووسائل جديدة، في مجال التربية النفسية والتسليك إلى الله عز وجل، قد يمهد إلى التلاعب بجوهر الإسلام وأحكامه وكثير من مبادئه وآدابه. فاقتضت الحيطة سد هذا الباب عموماً. وهذا هو روح وسبب الخلاف الذي وقع بين ثلة كبيرة من أفضل من عرفناهم من علماء السلف وأئمتهم، وممن كانت هذه الأمة ولا تزال تقتدي بهم وتنتهج نهجهم.

فهل كوَّن صاحب كل رأي منهم، في هذه المسألة، من رأيه، عنواناً أو أساساً لجماعة إسلامية انتمى إليها واعتز بها، وامتاز بها عن أصحاب الرأي الثاني، وهل بادله صاحب الرأي الثاني العمل ذاته، فجعل هو الآخر

من رأيه أساس جماعة أخرى. وهكذا جعل الفريقان من خلافهما هذا أداة لشطر جماعة المسلمين (أهل السنة والجماعة) شطرين اثنين، كل يسفه الآخر ويمعن في تضليله؟

هل فعل أولئك السلف، شيئاً من ذلك حتى يقتدي بهم من يجعلون اليوم من انتمائهم إليهم إطاراً لجماعة إسلامية جديدة منشقة عن الجماعة الإسلامية الواحدة التي يشملها شرف كونها من أهل السنة والجماعة؟.

فهذا هو واقع السلف رضوان الله عليهم: اتفقوا فيما اقتضاهم منهج المعرفة وقواعد تفسير النصوص أن يتفقوا عليه، واختلفوا فيما لم يمنعهم ذلك المنهج وتلك القواعد من الخلاف فيه، ثم ما أكثر الذين اختلفوا منهم في بعض هذه المسائل يوماً، ثم عادوا فاتفقوا من بعد، ذلك لأن الزمن والظرف والأعراف السائدة، كل ذلك كان يلعب دوراً كبيراً في اختلافهم في أمثال هذه المسائل، فمن أجل ذلك رأينا أن كثيراً ممن كانوا ينكرون علم الكلام في صدر حياتهم، عادوا يقرونه ويمارسونه عندما اختلفت من حولهم الظروف والأحوال.

الحالات والمشاعر الوجدانية:

ومن ذلك حالات ومشاعر وجدانية، قد تزج بأحدهم فيما يسمونه الفناء؛ وقد يمتد به هذا الحال أو يطبق عليه ويمتلك مشاعره، فينطق بكلمات منافية في ظاهرها لمبادىء العقيدة وقواعد الشرع، فيثور من ذلك جدل شديد بين من يدافع عن هذه المشاعر وتلك التعابير والكلمات، ومن ينكرها وينسب أصحابها إلى الزندقة أو الحلول.

وربما أدخل بعضهم في هذا الباب ما اشتهر على لسان رابعة العدوية وأمثالها، من قول: اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكني وجدتك رباً تستحق العبادة فعبدتك.

غير أن الجدل الذي يثور حول تقويم هذه المشاعر، والحكم على التعابير والألفاظ التي تطفح على ألسنة أصحابها، جدل متأخر عن عصر

السلف، فلست أعلم أن في أئمة القرون الثلاثة الأولى وعلمائها، من قد دخلوا في نقاش حول هذا الموضوع، بل ربما لم يكن موضوعه قد وجد بعد، أي لم يكن في متصوفة ذلك الصدر الأول من أطبقت عليهم مشاعر الفناء هذه حتى نطقوا بتلك الشطحات.

وإنما مصدر الجدل الذي وقع في ذلك، عدم تحرير حدود هذه المسألة أولاً، وجهل الحالة التي يمر بها صاحب هذه المشاعر ثانياً.

وأعني بعدم تحرير حدود هذه المسألة، التباس حال الفناء ـ عند كثير من المنكرين والمجادلين ـ بعقيدة الحلول التي يتبناها بعض الفلاسفة من أصحاب نظرية الفيض وأمثالها؛ فهؤلاء يحللون الظاهرة الكونية على أنها تعبر بمجموعها الكامل عن الوجود الكلي التام الذي هو وجود الله عز وجل، وهم يعبرون عن عقيدتهم هذه تعبيراً عقلانياً فكرياً في حالة من الصحو واليقظة الشعورية التامة. دون أن يعتري أحدهم أي ذهول بالمكوِّن عن الأكوان بل الأكوان هي ملء أفكارهم ومشاعرهم، والله في أوهامهم لا يتجلى في أكثر من هذه الأكوان.

وهذه لوثة عقلية أصيب بها كثير من الفلاسفة قديماً، وأصابت برشاشها وعدواها، بعض الإسلاميين الذين جاؤوا على أعقابهم، وآخر من وقع في دوامتها وتخبطاتها الوجوديون الغربيون، وأعني بهم الفريق الذي يقر بوجود الله، لا الفريق الملحد الذي يسمي نفسه بالوجوديين الأحرار. ويعد (سير كير كجورد) المتفلسف الدانمركي، الأب الروحي لهذه النزعة وأصحابها.

أما الفناء، فهي حالة من الاستغراق تعتري أصحابها، تجعلهم يذهلون بالمكون جل جلاله عن الأكوان التي من حولهم؛ مع يقينهم العقلي بوجودها، ولكنهم ذاهلون عن يقينهم العقلي هذا؛ وآية ذلك أنهم أثناء مرورهم بهذا الفناء، يكونون في حالة جذب تمنعهم من التعامل مع الناس في شؤونهم المعيشية على نظام أو نسق سوي. وقد كان هذا هو شأن الشيخ أحمد البدوي (٥٩٦ ـ ٦٧٥هـ) مع الناس، فيما روى

المترجمون له، معظم حياته، ومنهم من كانت تعتريهم هذه الحالة إلى حين، ثم يعودون إلى الصحو والتعامل الطبيعي مع الحياة.

ولقد كان من تأثير التباس تلك الفلسفة الفكرية الجانحة، بهذه الحالة الشهودية الوجدانية، على كثير من الناس، جهلهم بتلك التعابير والكلمات التي تطفح على ألسنة أصحاب تلك الأحوال، كتلك الألفاظ التي اشتهرت عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله. فظنوا أن قوله (ما في الجبة إلا الله) عقيدة فكرية يتبناها الشيخ، فهو يعتنق إذن عقيدة الحلول وينادي بها، ولو أنهم تمهلوا وأمعنوا في حقيقة الأمر وواقعه، ووقفوا على تراجم هؤلاء الرجال وأحوالهم، لما تسرعوا بالانجراف في هذا الفهم الباطل، والتهمة الشنعاء. ولكنه ليس فناء الشعور عن كل ما سوى الله، بل هو فناء الإرادة لكل ما عدا الله، وهو يتمثل في اليقين بأن الله هو النافع والضار، وفي صدق التوكل عليه والتفويض إليه، وإخضاع إرادته وحبه، لما يحبه الله ويرضاه. إلا أن هؤلاء الرجال رحمهم الله تعالى لما استرسلوا في هذا الحال، وواصلوا مراقبتهم لله عز وجل وعودوا أنفسهم أن لا يبصروا شيئاً من مظاهر الكون إلا وتتجلى لهم صفات الله من خلاله، تجاوزوا مرحلة ذلك الفناء الإرادي إلى الفناء الشعوري، فمنهم من استمر على هذه الحال، ومنهم من عاد إلى حالة الصحو والبقاء، واستقام على منهج التنسيق بين الجمع والفرق، وذلك هو المقام السامي الذي بعث به الرسل والأنبياء وتحلوا به، وهو الذي يجب أن يكون مطمح أبصار السالكين إلى الله عز وجل.

ولا يوجد في هذا الباب أدق ولا أحسن من كلام ابن تيمية في تحليل معنى الفناء وموقف الشريعة منه، كما سبق نقله عنه، ولا يوجد أي فرق بين تحليله هذا لمعاني الفناء وحكمه في ميزان الشرع، وحكم الشطحات التي قد تنتج عنه، وبين ما قاله الإمام القشيري في رسالته عن ذلك كله، بل لن نجد أي خلاف بين كلام ابن تيمية هذا وكلام سائر أئمة التصوف المشهود لهم بالاستقامة على الحق والبعد عن الزيغ والابتداع.

وحدة الوجود ووحدة الشهود:

يقول الدكتور البوطي أيضاً في كتابه: «هذا والدي» ص ١١٢ ـ ١٢٠:

(أما وحدة الوجود بمعناها الفلسفي فإنها باطل من القول والاعتقاد، يكفر معتقدها. وأما وحدة الشهود، وهي شهود صفات الخالق في مكوناته ومخلوقاته، فإنها من أهم نتائج الإيمان وثمراته.

وعقيدة وحدة الوجود بمعناها الفلسفي، هي اعتقاد أن وجود الخالق والمخلوق وجود واحد، ومن ثم فحيثما وجد الخالق لا بد أن يوجد المخلوق كجزء من وجوده، أي الخالق عز وجل. إذ لو لم نقل بذلك لكان وجود الخالق وحده وجوداً ناقصاً، لأن ما يكمل بغيره يصبح ناقصاً عند افتراض عدم وجود ذلك الغير.. وهذا الاعتقاد يؤدي إلى ضرورة القول بقدم المخلوقات، إذ إن وجود الله لا بد أن يكون مساوياً في الوقت ذاته لوجودها، كما يؤدي إلى القول بالحلول.

ولا فرق في بطلان هذا الاعتقاد وكفره بين أن يصاغ التعبير عنه بهذه الطريقة أو أن يصاغ التعبير عنه بطريقة القول بنظرية الفيض، أي القول بأن وجود الله كان لا بد أن يفيض على ما وراء ذاته، المتمثل فيما يسمى بالأغيار أو المكونات.

وليس اعتقاد الحلول، أي حلول الذات الإلهية في عين مخلوقاته، إلا لازماً من مستلزمات عقيدة وحدة الوجود بالمعنى الدقيق الذي ذكرناه.

وإنما الاعتقاد المنطقي السليم هو أن نعلم أن الوجود الحق، أي الوجود الذاتي المستقل بنفسه، إنما هو وجود الله وحده. ثم إن الله خلق بمحض تدبيره وإرادته وقدرته وجود المكونات التي أبدعها، كلاً في ميقاته الذي حدده له. فالوجود الأزلي القديم هو وجود الله لا غير، إذ لم يكن في الأزل ما يسمى غيراً.. واستمر الأمر على هذا المنوال ما شاء الله أن يستمر، ثم إن قدرة الله تعلقت بإنجاز خلق كل ما قد قضى الله أن يخلقه، فدخلت تلك المخلوقات عندئذ في نطاق ما يسمى بالوجود.

وهذا يعني أن الوجود الذاتي الحقيقي إنما هو وجود الله وحده. أما وجود ما عداه من الموجودات، فبإيجاد الله إياها تم أو تحقق وجودها. وهذا هو السبب في تعبير العلماء عن وجود كل ما عدا الله عز وجل بالوجود التبعي أو الوجود الظلي... إن الظل له وجود مستقل عن وجود أصله كالشاخص مثلاً، ولكنه في الوقت ذاته يزول وينمحق بزوال أصله فهو من آثاره ونتائجه.

ولعل من أقرب الأمثلة التي توضح ما نقول: إيقاف الرجل طفله الصغير على قدميه، إذ يمسكه بيديه. لا شك أن وقوف الطفل غير وقوف أبيه، ولكنه ـ في الوقت ذاته ـ لم يوجد إلا بالقوة السارية لحظة فلحظة من أبيه إليه.. كذلكم الغصن بالنسبة لجذعه، لا شك أن الغصن غير جذعه. ولكن وجود الغصن إنما امتد إليه من الجذع.

إن استمرارية وجود الإنسان أو غيره من الموجودات، رهن باستمرارية إيجاد الله له لحظة فلحظة. فمن حدّق في المصدر واستمر يتأمل فيه، ذابت من أحاسيسه صور الموجودات الظلية أو التبعية، وتحولت الأغيار عنده إلى أخيلة وأطياف، ولا يبعد إن استسلم لهذه الحال أن يفوه لسانه بما يعبر عن حاله ومشاعره تلك فيُنسب بسبب ذلك إلى القول بوحدة الوجود. ولكنه سرعان ما يعود فيحط على أرض الواقع ليثبت الخلق والمخلوق والخالق.

فاعتماداً على الشرح الذي نؤكده للعلاقة بين وجود الله ووجود مخلوقاته، فإننا نبرىء شيوخ التصوف وأئمته المشهود لهم بالخير والاستقامة، من القول بوحدة الوجود بمعناها الفلسفي الذي سبق بيانه. وإنما يسري الخطأ إلى نصوصهم وكلماتهم من سوء الفهم الصادر من بعض السامعين أو القارئين لمعانيهم ومراميهم... لا سيما أولئك الأئمة الذين أثنى عليهم وترجم لهم الإمام القشيري في رسالته المشهورة.

ومما يبرهن على تبرئتهم من ذلك بالكثير من نصوصهم وأقوالهم. وفي تلك النصوص الصريحة في دلالتها ما يستوجب تأويل الموهم من عباراتهم الواردة في أماكن أخرى.

ومن النصوص التي تبرىء الشيخ محيي الدين بن عربي من عقيدة الحلول ووحدة الوجود قوله في آخر قصيدته التائية:

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له ... وشاهدتُ ذاك الحق في كل صنعةِ

وطالِبُ غير الله في الأرض كلها ... كطالب ماء من سرابٍ بقيعةِ

إذ من الواضح أنه يتحدث عن الوجود الذاتي، الذي هو وجود واحد فعلاً، وهو وجود الله عز وجل. يدل على ذلك البيت الثاني الذي يحذر فيه من الطلب من غير الله، ومن الثقة بغيره، ومن التوكل إلا عليه. إذ كل ما عداه وهم وسراب.. وهل هذا إلا عين ما قاله لبيد «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وهو أصدق ما قاله لبيد بشهادة سيدنا رسول الله ﷺ.

والخلاصة: أنا إن نظرنا إلى الوجود الحق أو ما يسمى بالوجود الذاتي، فهو وجود واحد لا ثاني له في الكون كله، ولن يكون توحيد الله عز وجل إلا بفهم هذه الحقيقة. وذلك هو المعني عندئذ بوحدة الوجود إن عبّر بها بعض أئمة التصوف. وإن اعتبرنا الوجود بكلا نوعيه: الذاتي والتبعي، أو الأصلي والظلي، كما هو مرئي لأعيننا، فالوجود متعدد عندئذ وليس واحداً..[1].

فإن شئت أن تنظر بعيني لبيد، فلا بدّ أن ترى الكون كله وهماً وباطلاً، وهذا ما استصوبه رسول الله ﷺ، وبمثل تلك العين رأى المتصوفة الصادقون الكون من حولهم.

وإن شئت أن تنظر بعيني من يتعامل مع الدنيا ويركن إليها ويثق بها، فلا بدّ أن ترى الوجود وجودين... وأغلب الظن أن وجود الفاني سيحجبك عن رؤية الوجود الخالد الباقي.

---

(١) تراجع إلى مكتوبات الإمام أحمد الفاروقي السرهندي. المكتوب الرابع والأربعين، وفيه إجابة مفصلة عن استفسار بعضهم عن وحدة الوجود وموقف الشريعة منها (ج٢ ص ٧٢).

أما وحدة الشهود، فهي الحصيلة التي انتهينا إليها، بعد تمحيص ما قد يسمى بوحدة الوجود. على أن يطرح عن الاعتبار التصور الفلسفي الذي يجنح إليه بعض الفلاسفة، من اعتبارهم جملة هذه الوجود الكلي للكون، مساوياً لوجود الله عز وجل. وهي فلسفة خرقاء نادى بها بعض قدماء الفلاسفة، ثم عاد، فنادى بها أئمة المذهب الوجودي في الغرب، وفي مقدمتهم الأب الروحي لهذا المذهب «سيرن كيركجورد» (١٨١٣ ـ ١٨٥٥م).

فإن هذا التصور الفلسفي لا شأن لأحد من أئمة التصوف المسلمين به قط.

ومعنى وحدة الشهود، أنها حال تلاحق شعور الإنسان، وليس قراراً يصدر من عقله. فهو على الرغم من يقينه العقلي الجازم بوجود هذه المكونات وحدوثها ومخلوقيتها، لا يرى فيها أو منها إلا مرايا تتجلى فيها صفات الخالق المنبثقة عن أسمائه الحسنى. فهو لا يرى في كثرة المكونات التي يوقن بها إلا وحدة الخالق التي تهيمن على مشاعره.

إن الانصياع التام للآيات التي يأمر الله فيها عباده بالتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، لا يتم، إلا بعد أن يداوم الإنسان على ذكر الله، حتى يصقل ذكره لله صفحة المكونات التي أمامه ولا يزال يصقلها. وعندئذ تتحول من كونها حجاباً كثيفاً ينسي الإنسان وجود الله وسلطانه وفاعليته، إلى مرآة وضاءة صقيلة لا تتجلى فيها إلا وحدانية الخالق عز وجل. وهذا معنى قولهم: لا يكمل إيمان المسلم حتى يرى الوحدة في الكثرة. أي حتى يرى الوحدة الربانية في الكثرة الكونية. وكلما ازداد لله ذكراً ازدادت الكثرة الكونية أمامه ذبولاً وضآلة، إلى أن تنمحق بالكلية عن شهوده فلا يرى أمامه في مظهر صنع الله إلا عظمته وصفاته، مع يقينه العقلي الدائم بوجود المكونات، وتعامله التام معها.

يقول أحد العلماء الربانيين في التعبير عن هذه الحال: ما رأيت شيئاً! إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده.

وبمقدار ما يهيمن الحب على القلب، تهيمن وحدة الشهود على

المشاعر والعين، أياً كان المحبوب ونوعه، وإنما تتنوع وحدة الشهود تبعاً لتنوّع المحبوب.

فالذي تولع بحب فتاة كمجنون بني عامر، لا يرى في مظهر منازلها الا رسمها وصورتها. ولن تجد إلا من يعذره في ذلك، إذ هذا هو شأن الحب وقانونه. ومن ثم فالكل يردد له هذين البيتين بإذعان وإعجاب:

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

والمرأة التي ذاب فؤادها شوقاً وتلهفاً على ابنها الغائب عنها، تضم ثيابه إلى صدرها وتستنشقها وتقبلها، دون أن ترى فيها إلا صورة ابنها، وإذا جاءها منه كتاب، حملقت في الورق والكتابة وهي لا ترى ورقاً ولا حبراً ولا كتابة، وإنما ترى من ذلك كله مرآة لا تشهد فيها إلا ابنها.

فإذا اتجه القلب إلى محبة الله عز وجل ـ وهو أولى الكائنات كلها بالحب ولواعجه ـ فلا بدّ أن يقع صاحب هذا القلب من حبه لله وشوقه إليه في المشاعر والرؤية ذاتها... فهو لا يكاد يبصر الزهرة ويشم عبيرها، حتى يذهل عنها برؤية جميل صنع الله وإبداعه، ولا يكاد يبصر الكواكب في هدأة الليل تتلألأ في سمائها حتى يذهل عنها بالتأمل في عظمة المكون وباهر حكمته وخلقه، بل لا يكاد يرجع إلى ذاته في المرآة ليتبيّن مظهر العافية في شكله ودلائل القوة في كيانه، حتى يذهل عن ذلك كله ويخترقه إلى وقفة أدب وشوق وحب يعيشها بكل مشاعره مع الله عز وجل الذي أبدع بجميل صنعه وواسع رحمته وباهر حكمته ذلك كله.

فهل للإنسان، أياً كان، أن يعتب على الحب، في هذا الذي من شأنه أن يفعله بصاحبه؟

وإذا كان الجواب الذي يمليه علينا المنطق، هو أن صاحب هذا الحب يقدَّس ولا يعاتَب، لا سيما عندما يتجه به الحب إلى المصدر والأصل والينبوع، لا إلى الفروع والجداول والسواقي، فما الذي زاد أو غيّر أو زيّف

ابن الفارض رحمه الله على هذا الأمر الطبيعي الذي من شأن الحب أن يفعله بصاحبه، حتى اشتدّ العتب عليه من بعض الناس، عندما عبر عن هذه المشاعر الْعُلْوِية ذاتها بقوله:

تراه إن غاب عني، كلُ جارحةٍ ... في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمه العود والناي الرخيم إذا ... تآلفا ضمن ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في ... برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على ... بساط نورٍ من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إليَّ سُحَيراً أطيب الأرج
وفي التثامي ثغر الكأس مرتشفاً ... ريق المدامة في مستنزه فرج
لم أدر ما غربة الأوطان، فهو معي ... وخاطري، أين كنا، غير منزعج

وإنما يتسرب العتب أو النقد على هذا الكلام وصاحبه، من تصور أنه تعبير عن وحدة الوجود بمعناها الفلسفي الباطل الذي سبق ذكره. غير أن هذا التصور خطأ فادح لا يصدر إلا من ضيق دراية باللغة العربية ومعانيها.

إن قصارى ما يريد أن يقوله ابن الفارض من خلال هذا الكلام: أن الأشياء كلها صادرة من الحق جل جلاله، وليست هي الحق ذاته، ومن ثم فهي مظهر بل مرآة لصفاته السنية وأسمائه القدسية[1] فجدير بمن برَّح به الشوق إلى الله، أن لا يستأنس بها ولا يركن إليها إلا من حيث إنها مجلاً لصفات الله وعنوان على وحدانيته.

إنه لن يفقه هذا الكلام إلا من التاع قلبه بشيء من حب الله عز وجل وتعظيمه والشوق إليه. فأما ذاك الذي حجب بالأكوان عن مكونها، ومحض حبه لمتع الدنيا وشغل نفسه برغائبه وآماله فيها، فهيهات أن يعي هذه الحقيقة فضلاً عن أن يتذوقها، وكيف يتذوقها من لم يبق في قلبه متسع

(١) انظر المكتوبات للإمام الرباني: ٢/ ٧٢.

لحب الله والتعظيم له والشوق إليه.. إن شأنه في أحسن الأحوال أن يحفظ من الدين سطوراً أو كلمات، ثم يقنع نفسه من ممارسة الدين والتفاعل مع سلطانه بترداد تلك السطور والكلمات والتعامل بها وعلى أساسها مع الآخرين.

الفناء والبقاء:

إذا وقع الإنسان من حالة شهوده هذا، في ذهول أطبق عليه، فلم يعد يستطيع أن يتعامل مع الدنيا وأن يصلح من شئونه معها، فذلك هو الذي يسمونه الفناء، وهي مرحلة على الطريق قد يمر بها بعض السالكين، والأفضل، بل المطلوب، أن يتجاوز السالك هذه الحالة، ولا يستسلم لها أو يقف عندها، فإذا تجاوزها، فلا بدّ أن يعود إلى صحوه وتزول عنه تلك الغاشية، فيتعامل مع الدنيا ويستعملها لخيراته ومصالحه كالآخرين، مع استمرار شهوده لوحدانية الله، واستمرار رؤيته الأكوان مرايا تتجلى فيها صفات الله عز وجل، وهذا هو الذي يسمونه البقاء، أو الانضباط مع حالة الجمع والفرق. والمثل الأعلى لذلك الرسل والأنبياء وأصحاب رسول الله ﷺ، على أن الصحابة في ذلك متفاوتون تفاوتاً كبيراً في درجات الشهود والقرب. انتهى[1].

ثم يقول الدكتور البوطي في كتابه: «السلفية مرحلة زمنية» وهو يتابع الحديث عن بعض الحالات والمشاعر الوجدانية.

«بقي أن ننظر في قول أحدهم: **اللهم ماعبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك، ولكني وجدتك رباً تستحق العبادة فعبدتك**، وفي انتقاد بعض الناس له وإدخاله في الشطحات الممنوعة في الدين.

وهذا الكلام يدخل في خالص معنى العبودية والتوحيد.

---

(١) من كتاب «هذا والدي» ص ١١٢ ـ ١٢٠ بتصرف واختصار.

إذا كان هذا الكلام غير موافق للشرع، إذن فلا بد أن يكون نقيضه هو الموافق له، ونقيضه أن يقال: اللهم إني ما عبدتك لأنك رب تستحق العبادة، ولكني عبدتك طمعاً في جنتك وخوفا من نارك. فهل من مسلم وعى معنى عبودية الإنسان لله عز وجل، يقول: إن هذا الكلام الثاني هو الموافق للشرع؟ بل هل يجرؤ مسلم صادق في إسلامه أن يخاطب ربه بهذا الكلام؟ وهل يقال عن الطاعة التي يساق الإنسان إليها سوقاً خوفاً من عقاب ينتظره أو طمعاً في مطمع تعلق قلبه به وإن أطاعه ـ لترك الطاعة وأعرض عن الأوامر وانحط في المنهيات، أقول: هل تسمى هذه الطاعة المشروطة بهذا القيد عبودية لإلهه المطاع؟.

لقد تلقى رسول الله ﷺ النبأ الصادق من ربه، بأنه عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبأن الله سيعطيه ما يرضيه، وسيبعثه المقام المحمود والحوض المورود، ومع ذلك فقد كان ﷺ يحمل نفسه كل يوم مزيداً من مشقة الطاعات والقربات والعبادات.

وقد روى الشيخان عن المغيرة بن شعبة وعائشة وأبي هريرة أنه ﷺ قال لمن سأله ـ وقد رأى قدميه متورمتين من كثرة الصلاة ـ ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال له: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وهذا دليل قاطع على أن طاعة رسول الله ﷺ لربه عز وجل لم تكن استحصالا لجنة ولا توقياً من نار، بل كان يحمل عليها يقينه بأنه عبد لله، مغمور من قبله بالنعم والآلاء المختلفة، وضريبة العبودية هي شكر المنعم وتعظيم الرب عز وجل.

وقد روى مسلم من حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: **«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟** قال: الله ورسوله أعلم. قال: **أن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً.** قال: **أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك،** فقال: الله ورسوله أعلم، قال: **أن لا يعذبهم».**

فقد أوضح رسول الله ﷺ، بما لا يدع مجالاً لشبهة أن ما ينهض به العبد من طاعات وقربات، هو حق الله عليه بوصف كونه عبداً مملوكاً له،

لا من حيث إن الله عز وجل تعاقد معه على أن يقوم له بتلك الطاعات مقابل أجر محدد يعطيه إياه. فواجب العبد إذن أن يعبد ربه أداء لحق ربوبية الله ومالكيته له، لا رغبة في العوض، كما هو شأن الأجراء من الناس. ولا تستشكلن قوله في الشق الثاني من الحديث: «**وحق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئا أن لا يعذبهم**». فإن هذا الحق لم يوجبه أحد على الله تعالى، وإنما كتب الله على نفسه ذلك تفضلاً منه وإحساناً، فسماه على سبيل المشاكلة حقاً مترتبا عليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا وليس لديه سعي ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

ومرمى هذا الحديث النبوي الجليل، أن يعلم العبد أن عليه أن لا يخلط بين هذين الحقين، ويجعل منه حقاً واحداً يتخيله في ذهنه، بحيث يتوهم أنه يصبح - إن أطاع الله ولم يعصه - ذا حق في أن ينجز الله له ما وعده به. بل عليه أن يعلم أن حق الله مترتب في عنقه بوصف كونه عبداً له، بقطع النظر عن أي منحة قد ينالها أولاً. فهذا شيء... والشيء الثاني أن الله ألزم ذاته العلية بأن يكرم عباده الذين لم يقصروا في القيام بحق ألوهيته وربوبيته لهم، بعظيم المثوبة وواسع الكرم والإحسان.

وهذه الحقيقة ماثلة بوضوح في كتاب الله عز وجل، فما أكثر الآيات التي ينبه الله العبد من خلالها، إلى أن مناط العبادة التي يجب أن ينهض بها العبد، إنما هو ربوبية الله له بقطع النظر عن أي شيء وراء ذلك. فهو عز وجل يقول: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٩٢] ويقول خطابا لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه ١٤].

فإذا أدركت هذه الحقيقة، وعدت إلى قول القائل: (اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكني وجدتك رباً تستحق العبادة فعبدتك)، رأيت أن هذا القول منه ليس أكثر من تلبية لدعوة الرب

عز وجل وانصياع للحق المثبت في عنقه لمولاه وخالقه عز وجل. أفليس غريباً كل الغرابة إذن، أن يقف المسلم العاقل من هذا القول موقف الجاهل لمضمونه، فضلا عن أن يقف موقف المنكر له؟!.

ولكن لعلك تظن، أن هذا الكلام من قائله، تعبير عن زهده في الجنة، وعن عدم خوفه من النار، وعدم اهتمامه في التوقي منها، فاعلم أن ذلك خطأ في فهمك أنت، وشتان بين هذا الكلام والمعنى الذي تفهمه منه.

هما أمران مستقلان، كل منهما منفك عن الآخر. الأول: وجوب القيام بحق الربوبية، بقطع النظر عن أي جزاء. وهو المطلوب، والمعني بالإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ...﴾ [البينة ٥]، والثاني: وجوب الطمع في الفضل الذي أطمعنا الله فيه، والخوف من العقاب الذي خوفنا الله منه. بل لا يتحقق الإنسان بمعاني عبوديته لله عز وجل إلا بأن يمد يد الطلب والاستجداء إليه سبحانه، فيسأل من كرمه وجوده، ويستعيذ به من سخطه وعذابه. وقد كان من دعائه؟: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل».

ومن أعلن عن زهده في الجنة أو عن عدم خوفه من النار يوم القيامة، فقد أعلن بذلك عن استغنائه عن كرم الله عز وجل، وعن عدم خوفه منه ومما يخوف عباده به، ولا يفعل ذلك إلا مغرور بنفسه مدل على الله بطاعاته، ذاهل عن واقع عجزه وعبوديته لله عز وجل.

ولكن العبد إذ يبسط كفه إلى الرحمن يسأله جنته ويستعيذ به من عذابه، يجب أن يفعل ذلك طمعاً بفضله وغفرانه وأملاً في أن يتجاوز الرب عن سيئاته، فيعامله بما هو شأنه جل جلاله من الصفح والغفران، ولا يعامله بما هو أهل له من المؤاخذة والعقاب. ومهما كان العبد في استقامته وعلو شأنه وقربه من الله عز وجل، فما ينبغي أن يكون دعاؤه وطلبه إلا على هذا الوجه. وقد صرح بذلك المصطفى، في الحديث المتفق عليه عن أبي

هريرة: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته..»[1].

(١) من كتاب «السلفية» بتصرف واختصار ص ١٩١ ـ ٢١٢.

الفصل الحادي عشر
أخطاء أساسية تخالف العقائد الإيمانية

هناك أمور ترفضها الشريعة بالبداهة، إذ إن القول بها معناه التملص من حبال الدين، والتحلل من قيوده، فيما أوجبه من العقائد.

الأول: في الرد على من قال بنجاة إبليس يوم القيامة

يقول بعضهم بنجاة إبليس يوم القيامة، وهل يتصور عاقل صدوره من مسلم، يؤمن بالقرآن؟ فماذا يكون موقفنا من القرآن؛ إن لم نعترض على هذا الزعم ولم نشمر لجحده وإنكاره؟ هل يكون إلا إهمالاً له وهجراناً، يقول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦ ـ ١٧]. ويقول أيضا: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [ابراهيم: ٢٢]. وهي صريحة في أن هذه الخطبة لإبليس تكون في جهنم؛ لأن الإصراخ لا يكون إلا لمن كان تحت العذاب لحاجته إليه. وقد حكم الله تعالى عليه في آيات كثيرة بالكفر، والكفرة خالدون في النار أبداً.

وعلى هذا، فإن هذا القول كفر بواح، عندنا من الله فيه برهان، ونص الإمام الشعراني رحمه الله تعالى، على أن هذا مكذوب على الشيخ محيي

الدين والشيخ عبدالكريم الجيلي، منحول عليهما مدسوس في كتبهما، وهما بريئان منه.

الثاني: في الرد على من يقول إن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز وجل

أخرج بعض المعاصرين كتاباً في التصوف الإسلامي، ذكر فيه نقولاً عجيبة عن بعض كتب القوم منها: أن الشيخ الجيلي قضى في كتابه «الإنسان الكامل» بأن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز شأنه، لإطاعة كل منهم له سبحانه في صفة من صفاته واسم من أسمائه، فالأول أطاعه في اسمه الهادي، والثاني أطاعه في اسمه المضل؛ فكلاهما إذاً مطيع، ومقرب، ومثاب على طاعته.

نقرأ قول الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، ويقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

هذا قول الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ينفي المساواة بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، فكيف يقدم مؤمن على القول بخلافه، وهل يكون سيدنا محمد رسول الله وحبيبه ﷺ كأبي جهل لعنه الله تعالى؟! اللهم لا، وإن هذا الزعم باطل وكذب ظاهر لا يقبل التأويل، وإن أريد بأنهما سواء من حيث إن كلاً منهما نفذت فيه إرادة الله، فهو مظهر لتحقيقها، فهذا حق، ولكنه لا يلزم منه التساوي في إطلاق الطاعة عليهما؛ لأن الإرادة غير الأمر، وقد يريد الله من عبده ما يأمره بضده، إذ ليست الإرادة الإلهية إلا التخصيص للشيء ببعض ما يجوز عليه، لا الأمر به ولا الرضى عن فاعله لتنزه الله تعالى عن الأفاعيل النفسانية، والميول الطبيعية، وعلى هذا فالمطيع مثاب والعاصي معاقب.

الثالث: في الرد على من يقول بأن أهل النار يتلذذون فيها

عزا بعضهم إلى الشيخ الجيلي أيضاً، أنه ذكر في كتابه: «الإنسان الكامل» أن أهل النار يتلذذون فيها، كما يتلذذ أهل الجنة بجنتهم. وهذا بناء منه على النظرية السابقة من أن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز شأنه.

إذا عرضنا هذه النحلة على القرآن الكريم نجده يقضي بخلافها، إذ يقول عز شأنه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ويقول: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، ويقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. والآيات في هذه المعاني كثيرة جداً، فمن قال بخلافها فقد عطلها وكفر بها، وقد ذكر هذا المعنى في كتاب (الفصوص) وشرحه، أن العذاب ينقلب على أهله عذوبة في النهاية؛ فهم فيه متلذذون.

هذا والقرآن ناطق بعكس ذلك تماماً، إذ هو مصرح بالخلود في العذاب لا في العذوبة. وأين هو منها، الشريعة تقضي على قائل هذا القول بالكفر، لأنه لم يؤمن بآيات الله تعالى الناطقة بالوعيد على أتمه، وليس للتأويل فيه مجال، والتأويل الذي ينبو عنه النظم الكريم مردود على صاحبه.

الرد على من يقول بخروج الكافرين من النار.

ويقرب من هذا الزعم الباطل، ما يلهج به بعضهم من خروج الكافرين من النار، وقد أشبع التقي السبكي ـ القول في هذه المسألة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) رد فيها على من قال بخروجهم منها، أو بفنائها، وقرر أنها عقيدة مخطئة؛ لمصادمتها الآيات القرآنية، وخرقها الإجماع المنعقد على خلود الكفرة فيها، وعدد الآيات في الخلود لأهل الجنة، وأهل النار فإذا هي اثنتان وثلاثون آية، ولعمر الحق إن واحدة منها كافية لحصول اليقين عند المؤمن الموقن.

الرابع: في الرد على من يقول بنجاة فرعون

القول بنجاة فرعون المنسوب إلى الشيخ محيي الدين، تعلقاً بقوله

تعالى ـ حكاية عنه حين عاين الهلاك وأدركه الغرق ـ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] قال القائلون: ولم يزد الله تعالى في ذلك المقام على أن عاتبه وبكته بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١] الآيات. قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥] فإيمانه إيمان يأس غير مقبول.

ثم ماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩]. أفيقدمهم إلى النار ويوردهم إياها ثم يعود أدراجه إلى الجنة، ما هذه المهزلة التي يتنزه عنها القرآن؟!.

فهم إنما كفروا بسببه، فهو رأسهم في الكفر وكبيرهم في الضلال، فيتقدم أمامهم إلى النار. على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ يعود عليهم وعليه، لئلا يلزم تفكيك النظم بتشتيت الضمائر، والقرآن الفصيح لا يقبل هذا الضعف في التركيب.

وماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]. أليست الأولى هي الدنيا، والآخرة يوم القيامة وما بعده.

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم، وليس بعدها مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد، إذ الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع، وليس لله مع أحد كلام فيما قضاه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٣٩ ـ ٤٢]. فإذا كان الله تعالى نفى عنهم النصرة يوم القيامة، ولعنهم في الدنيا والآخرة، وأخبر أنهم من المقبوحين

فيها. إذا كان الأمر كذلك، فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده، لا هم وحدهم فقط، لأن الضمائر في الآيات له ولجنوده.

إذاً فالقول بنجاة فرعون كفر صريح، وعن هذا أقسم الشيخ الشعراني في كتابه (اليواقيت والجواهر) بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محيي الدين، ومنحول عليه، ولم يقل به، وهذه هي العقيدة الصحيحة المنجية عند الله تعالى. ورحم الله الشعراني الذي دافع عن القوم، وبيّن أن كثيراً مما هو في كتبهم دسه الوضاعون فيها، وليس للقوم علم به، حتى إنه حكم بأن كل ما في «الفتوحات» و«الفصوص»، مما يخالف مذهب أهل السنة، مدسوس على الشيخ. ومثله ما هو منسوب إلى الجيلي من القول بتساوي المطيع والعاصي، وبانقلاب العذاب عذوبة، كل هذا كذبه الشعراني، ونقل عن الشيخ الأكبر القول الصريح بخلود الكفرة في العذاب أبداً دون تخفيف، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. ويكفي الاعتماد على ما ذكره أيضاً من أن أحد العلماء اليمانيين، أخبره أن النسخة الأصلية للفتوحات وهي في (قونية) خالية من كل هذه الكفريات، وهي التي بخط الشيخ محيي الدين، وغيرها من النسخ دخلها التحريف والتبديل.

الخامس: في الرد على من قال بوحدة الوجود.

وقد فسرها بعض الناس عنهم: بأن هذا الكون، بحيواناته، وجماداته، مجموعة إلهية، والله تعالى هو روح لها، وهذا كفر قطعاً، إذ هو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون، ويقضون بأنه كفر، وأهل التصوف في عصرنا، يفسرون وحدة الوجود بوحدة الشهود (أي أن الصوفي يغيب عن العالم فلا يشهد إلا الله سبحانه)، وهذا المعنى لا بأس به، وهو بمعنى قول القائل: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، أما على التفسير الأول فهو الممنوع[1].

---

(١) سبق إيضاح ذلك.

أما المنظومات والمنثورات التي في الحلول، فشيء كثير، وإن كان الكثير من الصوفية يحيلها على معنى الفناء وما إليه. على أن هناك جملة منسوبة إلى صاحب الكتاب «الإنسان الكامل».

محصلها: أن النصارى إنما كفروا لحصرهم الإشراق في المسيح وأمه عليهما السلام، فقد كفروا بهذا الحصر، وخرجوا عن زمرة الموحدين القائلين بالشيوع، وهذا القول كفر مهما قلبت فيه وجوه التأويل، ولا مخلص إلا بالحكم بأن هذه الجملة مدسوسة عليه أيضاً، لأنه لا يقول إلا ما يلتئم والشريعة المطهرة، وإذا كان النصارى كفروا بدعواهم الحلول في اثنين أو ثلاثة، أفلا يكون القول بالحلول في الجميع كفراً؟!.

«إن عقيدة الحلول أسوأ وأخطر من مقولة الاتحاد، ذلك أنَّ فيها تطاولاً على الذات الإلهية، وانتقاصاً لها بالادعاء أنَّ هذه الذات الإلهية قابلة للحلول بأجساد طائفة مخصوصة من أفراد البشر، وامتزاجها بها امتزاجاً كاملاً في الطبيعة والمشيئة، حتى تصبح الذاتان ذاتاً واحدة.

وفي هذا الكلام ما فيه من إلغاء لألوهية الله المطلقة، وتفرده بالربوبية، وتحدٍّ صارخ لمبادئ الإسلام الواضحة، وخروج سافر على أصول الإيمان الثابتة.

ولذا فقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية القول بالحلول كفراً صريحاً أشنع من كفر النصارى، ذلك أن القائلين بالحلول قد توسعوا في مقولتهم، فقالوا بحلول الذات الإلهية في أجساد طائفة مختارة من البشر، في حين أن النصارى قد قصروا القول بالحلول على عيسى عليه السلام، وهو رسول الله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه[1]. ومع ذلك فقد كفَّرهم الله سبحانه وتعالى في قوله عزَّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا

(١) انظر الفتاوى ٢/١٧٨، ٢٩٦، مجموعة الرسائل والمسائل ٢/ ٣٠ وما بعدها.

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾»[1]).

قال الحافظ ولي الدين أبو زرعة العراقي في كتابه «الأجوبة المرضية في الأسئلة المكية»: أما ابن عربي فلا شك في اشتمال «الفصوص» المشهورة عنه على الكفر الصريح الذي لا شك فيه، وكذا فتوحاته المكية، ثم قال: «وينبغي عندي ألا يحكم على ابن عربي بشيء، فإني لست على يقين من صدور هذا الكلام منه، ولا من استمراره عليه إلى وفاته، ولكن يحكم على هذا الكلام أنه كفر».

وفي «العقائد الخيرية» ص ٣٢ للعلامة محمد وهبي الخادمي المتوفى (١٣٦٧) رحمه الله تعالى:

(واعلم أنه تعالى محيط بكل شيء لا اتحاد له ولا حلول عند أصحاب إذعان وعرفان لأن الاتحاد مع المخلوقات يستلزم كون الخالق مخلوقا وهو محال. وكذا الحلول في الأشياء محال على الله لأن الحلول في الشيء يوجب الاحتياج إلى ذلك الشيء وكونه حادثاً، مع أن الحدوث والاحتياج منافيان للألوهية.

واعلم أن غلاة الملحدين أربعة: الوجودية، والاتحادية، والحلولية، والظهورية.

أما الوجودية فيقولون: الوجود مع كونه عين الواجب قد انبسط على هياكل الموجودات فيظهر فيها فلا يخلو عنه شيء من الأشياء بل هو عينها وحقيقتها. وإنما امتازت بتقيدات اعتبارية. وهذا طور وراء طور العقل لأن الأشياء حادثة ومخلوقة له تعالى بالبداهة فكيف يكون الحادث عين القديم والمخلوق عين الخالق وكيف انبسط وجود الواجب على وجود الحادث. وإذا لم يكن العالم موجوداً فالخالق إلى أين انبسّط وإلى أي شيء اتحد معه. ومثل هذا الكلام لا يصدر عن العاقل بل عن المجنون فلا اعتبار له.

وأما الاتحادية فيقولون: الإنسان إذا وصل إلى بحر الفناء في التوحيد

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٢.

فربما يتحد معه الله بحيث لا اثنينية بينهما في الخارج فحينئذ يقول هو أنا وأنا هو وهو يعبدني وأنا أعبده فيرفع عنه الأمر والنهي والتكاليف بالكلية ويتصرف كيف شاء.

وهذا باطل لا شك فيه وهذيانات لا ريب فيها لأنه مخالف لجميع الشرائع وأصول الدين وقواعد الشريعة. وهذا أيضا لا يصدر عن العاقل لأنه كفر صريح وإلحاد بعيد وافتراء عظيم على الله تعالى.

وأما الحلولية: فيقولون مثل ما يقول الاتحادية إلا أنهم يقولون ربما تحل الألوهية في الإنسان بحيث لا يتمايزان في الخارج فيقول ما يقول ويفعل ما يفعل ولا قيد من القيود ولا سؤال عليه وهذا نهاية الشناعة في الكفر.

وأما الظهورية: فيقولون إن الله تعالى قد يظهر في بعض صور الكاملين ويجيء عند المريدين فيعانقهم ويرشدهم إلى الحق. وهذه المذاهب كلها خروج عن الشريعة ولزم على أئمة الأمة أن تحفظ عقائد المسلمين عن أمثال هذه الإلحادات. عصمنا الله تعالى عن هذه العقائد الباطلة وعن شرور أصحابها وإغفالاتهم لأن أرباب هذه الأباطيل قد ظهروا في زي الصوفية بين العباد في البلاد فهم مختلطون بضعفاء الأمة فاللائق بأوليات الأمور حفظ عقائد الأمة عن مثل هذه الهذيانات). ا.هـ[1].

يقول الغزالي: (الاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال، وهذا جارٍ في الذوات المتماثلة فضلاً عن المختلفة، فإنه يستحيل أن يصير هذا السواد ذاك السواد، كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذاك البياض، أو ذلك العمل، والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم، فأصل الاتحاد إذاً باطل، وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو لا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز)[2].

إن الذي يقرره الإسلام في هذا الصدد ويقره كعقيدة مقبولة هو

---

(١) الثقافة الإسلامية، للطباخ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ١٤٦ ـ ١٤٧.

المعية، وليس الاتحاد، فالله مع المتقين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، ومع المحسنين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

وذلك هو ما أدركه الأنبياء عليهم السلام وهم الصفوة الممتازة من بني الإنسان، والنماذج القصوى للكمال البشري، فقد ورد على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2].

وورد على لسان محمد ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3].

ليس هناك اتحاد إذاً، بل هي معية الحب والرعاية والحرمة والمؤازرة، بل إن لنا أن نوسع دائرة المعية، بحيث لا تبقى مقصورة على الأنبياء والصالحين، بل تشمل سائر الناس، وذلك إذا فهمت المعية على أنها معية العلم والقدرة. فالله مع الجميع بعلمه وقدرته وإرادته، ومن هذا القبيل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾[4].

تلك هي المعية المقبولة التي يتحتم أن تقوم على أنقاض الاتحاد. معية لا تنقص من جلال الألوهية لحساب الإنسان، ولا ترفع من قدر الإنسان على حساب الألوهية[5].

السادس: التحذير من الشطح والطامات

أنكر كثير من أئمة التصوف على بعض الأدعياء شطحاتهم، ومن أشد هؤلاء الأئمة الذين حذروا من الشطح الإمام الغزالي حيث كرر ذلك في

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٨.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٦٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٤) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص.

كتابه الإحياء. وإليك ما قاله في أول كتابه: (وأما الشطح: فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

الصنف الأول: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا: كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج، الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق.. وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي.

فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا يعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم. ومهما أنكر عليهم ذلك، لم يعجزوا أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس..

فهذا وأمثاله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء من ذلك فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

الصنف الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل:

إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله، وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر.

وإما أن تكون مفهومة له، ولكنه لا يقدر على تفهيمها، وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة.

ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان.. وقد قال: «**كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله**» [رواه البخاري موقوفاً عن علي رضي الله عنه].

وهذا فيما يفهمه صاحبه، ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله..؟

وأما الطامات: فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو: صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات.

فهذا ـ أيضاً ـ حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ.

وهذا ـ أيضاً ـ من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له. وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة، بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم.

ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] إنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان.

وفي قوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة» أراد به الاستغفار في الأسحار.. وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره..

فكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن الحسن البصري، مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم..)[1].

السابع: القول بسقوط التكليف

من أخطر الانحرافات التي وقعت لبعض أدعياء الصوفية، والتي تخرج

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

صاحبها من دائرة الإسلام القول بسقوط التكليف.

ذلك أن بعضهم وقع في الإباحية، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام.. وهم فئات[1].

ويقرر جمهور الصوفية أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن المكلف بأي حال، حتى ولو بلغ درجة الوصول. بل إن الوقوف عند حدود الشرع والتمسك بأحكامه، هو المقياس الذي يحكم به على صدق الصوفي الواصل مهما ظهرت عليه من كرامات وأحوال. يقول أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى ارتقى في الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة)[2].

ويتشددون في الأمر إلى درجة أنهم يعتبرون أن من أخل بفريضة أو ضيعها يوشك أن يضيع دينه، ويسقط في مهاوي البدعة. وفي هذا يقول أبو محمد عبدالله بن منازل: (لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يبل أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع)[3].

وإذا كان هذا رأيهم بالنسبة لموقف الولي الواصل من التكاليف. فما موقفهم ممن قال بإسقاط التكاليف عن المعارف؟.

والإجابة تأتينا على لسان الجنيد الذي يعتبر أن السارق والزاني ومرتكب المعاصي أفضل حالاً ممن يقول بإسقاط التكاليف، وذلك في رده على رجل ذكر المعرفة، فقال: (أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى)، فقال الجنيد: (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه

---

(١) الإحياء ٣/ ٤٠٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١٤.

(٣) المصدر نفسه ٢٦.

رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوى في حالي)[1].

ويوافقه على هذا الرأي أبو علي أحمد بن محمد الروذباري حين سئل عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال، لأني وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال فقال: (نعم وصل، ولكن إلى سقر)[2].

يقول الغزالي: (ومن هؤلاء طائفة ظنت أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكاليف على عوام الخلق)[3].

وحكم أئمة التصوف على هذه الفئات بأنها مذاهب باطلة وضلالات هائلة.

وقد سئل الإمام الغزالي من واحد من هؤلاء سؤالاً حول هذه القضية، فلم يكن جوابه إفادة الحكم وحسب، بل فصل وعلل، وأقام الحجة القاطعة على بطلان هذا المذهب الذي يخرج صاحبه عن الإسلام. وأورد هذه الفتوى بطولها الإمام السبكي في طبقات الشافعية الكبرى[4].

وينفرد الغزالي بفهم متميز حقاً لمسألة إسقاط التكاليف، فهو يلاحظ ما في التكلف من مشقة يمحص بها قلب المؤمن وتختبر قوة إيمانه، وبما أن الصوفي الواصل قد تجاوز مرحلة التمحيص فقد افتقد التكليف لديه ما يتسم به عادة من المشقة والعسر، بل لقد أصبح للقيام بالتكاليف مذاق خاص لا يشعر بحلاوته غير الصوفي.

---

(١) السلمي، طبقات الصوفية ١٥٩، الرسالة القشيرية ١٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٦.

(٣) الإحياء ٣/ ٢٣٠.

(٤) الإحياء ٤/ ١٣٤-١٤٣.

فإسقاط التكاليف عنده شعور جديد عند الصوفي بزوال المشقة التي حلت محلها حلاوة المذاق يقول الغزالي: (بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي، أن العبادة تصير قوة عينه، وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنه فلا يكون كلفة فيه) إلى قوله: (والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم ولا يصلي، ويشرب ويزني)[1].

وقال السهروردي في (عوارف المعارف):

(فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشيء، بل هم في غرور وغلط يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوى أخرى، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون، هذا هو الظفر بالمراد. والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً.

وجهل هؤلاء المغررون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع من عنقه ربقة التكليف ويخامر باطنه الزيغ والتحريف).

وأذكر في هذا الصدد قصة تروى عن الشيخ عبدالقادر الجيلاني وخلاصتها أنه بينما كان ذات يوم جالساً في محرابه يذكر الله ويراقبه.. إذ سمع هاتفاً يقول له: ياعبدالقادر، أبشر، فقد أسقطت عنك التكليف!.. ولما صحا الشيخ إلى نفسه أخذ يفكر في صاحب هذا النداء، وفي مدى احتمال إسقاط الله الأحكام التكليفية عن أحد من عباده قبل الموت، على ضوء ما يدل عليه كل من القرآن والسنة، وكان الشيخ عبدالقادر عالماً جليلاً وفقيهاً متمكناً. فصاح الشيخ قائلاً: اخسأ، فقد عرفتك أيها الملعون. قال فعاد إليه النداء يقول: لولا علمك بالشريعة لأضللتك، وكم من شيخ مثلك

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٢٦٤.

جاهل بها أرديته في أقصى أودية الضلال.

فالجهل بالشريعة يزج المسلم في أرض عراء يسهل على الشيطان أن يقتنصه فيها، أما العلم السليم بأحكامها فيضع المسلم منها فيما يشبه الحصن المنيع الذي يقيه من وصول الشيطان إليه.

الثامن: التفريق بين الحقيقة والشريعة

انحرف بعض المتصوفة، بسبب اغترارهم بالشطحات والطامات، وقد أدى بهم هذا الغرور والانحراف إلى القول بأن للشريعة ظاهراً وباطناً.. فالفقهاء والمحدثون والعلماء يقفون عند الظاهر، وهو حجاب بينهم وبين الباطن الذي هو الحقيقة.. والمتصوفة يتجاوزون هذا الظاهر، فلا يقفون عنده ـ ولذلك فهم لا يهتمون بالعلم ـ ويباشرون الوصول إلى الحقيقة.

وقد أنكر أئمة التصوف هذا التفريق، ومن هؤلاء الإمام الغزالي حيث أنكر هذا القول بأماكن كثيرة ومنها «إحياء علوم الدين».

ويؤكد الغزالي بأن القول بكون الباطن مناقضاً للظاهر فيه إبطال للشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة، وهو كفر.

ويؤكد بأن الشريعة عبارة عن الظاهر، والحقيقة عبارة عن الباطن، والباطن لا يخالف الظاهر ولا يناقضه، فهو هو، فيزول الانقسام.

وهكذا ليس هناك انقسام بل هما شيء واحد، ومن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان)[1].

وأحب أن أنبه إلى (أنه لا يعترض على الحقيقة إذا كانت ـ كما جاء على لسان بعض الصوفية ـ بأن في كلام الله ورسوله ما يعلو عن أفهام

---

(١) الإحياء ٣: ١٠٠.

العامة مما يشير إليه من دقائق الحكم والمعارف التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، فحسب العامة من هذا الوقوف عند ظاهره. ومن آتاه الله بسطة في العلم ففهم منه شيئاً أعلى مما تصل إليه أفهام العامة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فهذا ما يسمونه علم الحقيقة، وليس فيه شيء يخالف الشريعة أو ينافيها)[1].

ذم بعض الصوفية العلم الظاهر قد يخرجهم عن الإسلام:

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه: «شرح حديث العلم» ص ١٦: (وكثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه: يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام، ويطعن في أهله ويقول: هم محجوبون وأصحاب قشور!.

وهذا يوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها، وربما انحل بعضهم عن التكاليف وادعى أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له!.

وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين: وصلوا ولكن إلى سقر. وهذا من أعظم خداع الشيطان وغرور لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يتلقى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة! وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات!! فأساؤوا الظن بالشريعة الكاملة، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع، الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب! وأوجب ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية! والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا).

---

(١) مجلة المنار ٧: ٣٣١ نقلاً عن كتاب «السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية».

تعارض الكشف والإلهام مع الكتاب والسنة:

قال أبو الحسن الشاذلي ـ رحمه الله تعالى ـ: (إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة...) ا.هـ.

ولو أن ولياً كاملاً فهم بواسطة الكشف والإلهام من حديث شريف فهما يخالف فهم أئمة الاجتهاد، فلا يجوز له أن يخالف ما قرره وفهمه أئمة الاجتهاد.

وإن خير ما أتوج به هذا البحث، كلمة الشيخ أحمد الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ وهي: «كل طريقة خالفت الشريعة فهي زندقة».

● ● ●

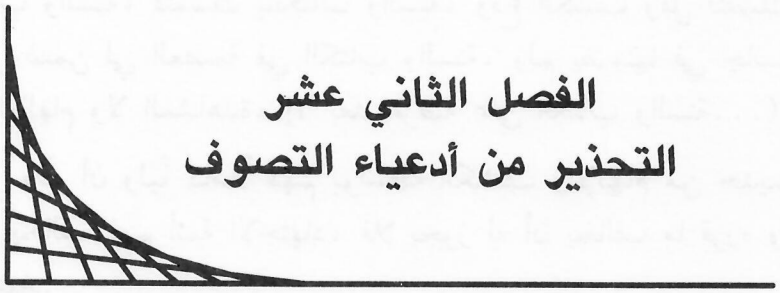

الفصل الثاني عشر
التحذير من أدعياء التصوف

سبق أن بينت في الفصل السابق بعض الأخطاء الأساسية المخالفة للعقائد الإيمانية، وهي مما يبرأ منه أعلام التصوف الصادقون، وأنبه في هذا الفصل إلى بعض الأخطاء المتعلقة بسلوك بعض أدعياء التصوف، والتي حذر منها الصوفيون أنفسهم، وفي مقدمتهم الإمام الغزالي رحمه الله تعالى الذي صحح الكثير من مفاهيم الزهد والتوكل والعلم، وأورد الآن أهم البدع والمحرمات التي يأتيها هؤلاء القوم الذين ينسبون أنفسهم إلى التصوف[1].

حب الظهور:

١ ـ داء عم، فالشيخ من هؤلاء قد لا يمشي إلا في حفل هائل من الخلق، جمعهم بأساليبه وحيله، ويجعل على بابه الحجاب (يأمرون الداخل بكيفية الجلوس والكلام بين يدي الشيخ، ويقدرون له وقتاً معيناً لا يزيد عليه).

وما كان لرسول الله ﷺ ولا لواحد من الخلفاء الراشدين ولا الأئمة المجتهدين (ولا الأربعة المشهورين) حاجب يفعل ذلك أو يدخل بعض الزائرين ويمنع البعض الآخر، وإنما جاء النهي عنه لأنه من الترف والرياء.

---

(١) من رسالة «خلاصة التحقيق في بيان الدخيل والمدسوس على أهل الطريق» للسيد إبراهيم الخليل الشاذلي ص ٣٨ ـ ٥٠.

وهكذا يدعي بعضهم الكرامات والكشف، وهو كذب مفترى، فإن المأثور عن كل الأولياء أنهم كانوا يخفون كشفهم، ويتسترون على كراماتهم، فإن المتفق عليه عند أهل الحق أن الكرامة انشغال عن الله، وليست من شأن كبار الرجال، وإنما يفرح بها صغار السالكين فتبعدهم عن الله، وولي الله الحق يتستر على كرامته كما تتستر الفتاة على عرضها، بل كيف يدعي بعضهم التصريف في الكون مدع لا يساوي قلامة ظفر في رسول الله ﷺ، الذي أمره الله تعالى أن يقول للعباد: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

٢ ـ ونجد أحدهم يخرج إلى ما يسمونه (المولد) فلا يعمل من الخير بقدر ما يعمل من الشر، بل نجد في كل عمله حب المفاخرة والظهور على القرناء، والامتياز بإعجاب الناس واستلفات نظرهم، وما كان كذلك رسول الله ﷺ إنما كانت خيمته أيام الحرب جرداء، لا تمتاز عن خيام المجاهدين، وهو لو أراد لصاغها من الذهب والفضة، وإنما ضرب لنا المثل في نكران النفس، وتحريم المغالاة فيما لا يفيد. وقد قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» يعني مردود على فاعله بالخيبة والخسارة.

٣ ـ ونجد هؤلاء الأدعياء سائرين بين الناس بصنوف الشعوذة، وقد دبروا لهم بطانات وحاشيات من بعض المضطرين وذوي الحاجات، وهذه البطانات (تؤلف لهم الروايات والمزورات) وتذهب تنشر عن هؤلاء الأشياخ كواذب الكرامات، ويؤثرون في نفوس الجماهير بالأوهام والترهات، ويدخلون على نفوسهم بما يسميه علماء النفس (الإيحاء والاستهواء).

والجماهير ـ كما يقول علم الاجتماع ـ كقطيع الأغنام، إذا وثبت الأولى على القناة وثب الجميع، وإن نفرت نفر الجميع، فلا تلبث أن تجد إيحاء بطانة الشيخ قد عمل فيما حولها، ثم ما حول ما حولها، فإذا شهرة كاذبة، وإذا عمل مبتدع إلى جانب عمل محرم، وإذا السنة تداس، وإذا الشريعة تموت باسم الشريعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٤ ـ وقد كان العلماء المرشدون في الزمن السالف، لا يكاد يعرفهم

من وسط أصحابهم أحد، لشدة تواضعهم وزهدهم، حتى أن أحدهم كان يكره أن يجلس في درسه على مرتفع، حتى لا يداخله الرياء، ويخالف سنة خير الأنبياء، ويقع تحت الوعيد الشديد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وفي حديث النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى لا تعرف شماله ماذا صنعت يمينه**»، أي من الخير، ما يفيد أن التباهي بالحسنات، وإظهار الطاعات رياء ونقص في الإيمان، ولذلك قال ﷺ: «**إن صدقة السر، تفضل صدقة الجهر بسبعين ضعفا**».

مشكلة الموالد:

٥ ـ إقامة الموالد المعروفة اليوم من حيث ما فيها من أعمال البر المختلفة لا بأس بها، بل مندوب إليها، ومن حيث ما تحتويه من المنكرات والبدع محرمة، فالذكر والقرآن والعلم والصدقات والتعارف والتآلف والتعاون والتعاطف ونحوها مطلوبة شرعاً.

أما اختلاط الرجال بالنساء وإنفاق الأموال على مزيد من الأنوار والسرادقات الفاخرة، والمواكب الكرنفالية، والطبل والزمر والرقص والرايات والأرشحة والشعوذات والبدع، والإسراف في أسباب المفاخرة، مع الحاجة إلى الأموال، لفقراء الأمة، ومرضاها وأيتامها وغيرهم، فمنهي عنه في ما لا ينفع ولا يضر، فكيف بإنفاقه على ما يضر ولا ينفع؟ وعلى ما هنالك من أنواع غضب الله ونقمته؟

وقال ﷺ: «**ويل لمن طلب الدنيا بالدين، ويل له**» رواه صاحب المدخل.

وروي أيضا عنه ﷺ: «**من عمل من هذه الأعمال شيئاً يريد به عرضا لم يذق عرف الجنة**»، وعنه ﷺ: «**إن الله كره لكم القيل والقال، وإضاعة المال وكثرة السؤال**».

ولا شك أن الإنفاق على الموالد (بوضعها الحالي) من إضاعة المال بغير سبب شرعي (وهي بما فيها مما لا يرضي الله من البدع والمنكرات حرام، وبما فيها من المهازل والألعبانيات، والتنافس في الظهور، رجس وفضيحة للتصوف والإسلام، اللهم إلا إذا تطهرت من كل هذا فتكون عبادة وسعادة) للأفراد والمجتمع.

الرقص في الذكر:

٦ ـ الرقص في الذكر والتطويح والاهتزاز يميناً ويساراً (بلا وقار ولا أدب) خصوصاً إذا صاحبته الطبول والمزامير بأنواعها حرام، لأنه لم يرد في كتاب ولا سنة ولا كان من فعل الصحابة ولا التابعين، ولا الأئمة ولا الأولياء.

وقد قال صاحب المدخل وسابقوه من أهل الفتوى أنه من فعل أصحاب السامري، وقد نقل رضي الله عنه الفتوى عن المذاهب الأربعة بحرمة هذا الفعل وأن صاحبه لا تقبل له شهادة ولا إمامة، ولا يصح بشهادته عقد زواج، بل نقل أن الحصر التي فعل عليها هذا الفعل تحرق، والأرض التي رقصوا عليها باسم الذكر تحفر.

ثم إن الذي يتصور وقار الصحابة ومن بعدهم من الرجال، لا يتصور أنه يقع منهم هذا الرقص المنافي للأدب بين يدي الله تعالى ولا الطبل والزمر، والذي لا يعمله رجل يشعر باحترام نفسه، ولا رجل عنده مروءة وتعقل.

قال الشاعر:

أيا جيلاً تصوَّف عن فضولٍ ... تناقلتم جهولاً عن جهول
أفي القرآن قال الله يوماً ... «كلوا أكل البهائم وارقصوا لي؟»

الذكر الملحون والمختلف:

٧ ـ ومن الخطأ أن يذكر اسم الله محرفاً (كما يفعله أكثرهم) فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولفظ (الله) فيها كلها ممدود مده الطبيعي.

وقد جوز العلماء مده إلى ست حركات (إذا عرض للسكون) عند الوقوف عليه.

والإجماع منعقد على حرمة الإلحاد والتحريف في أسمائه تعالى لقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. سواء كان الإلحاد والتحريف (بالقصر أو المد في غير موضعه أو بمضغ أو عجن الحروف).

قال العلماء: وإخراج الاسم الشريف عن وضعه (إلحاد محرم)، ولم يسمع ممن يعول عليه من المشرعين ولا اللغويين ولا الصوفية الشرعيين، وقد نصَّ على حرمة ذلك العلامة الأمير في كتاب (نتائج الفكر) وسيدي الأخضري في منظومته التي يقول فيها:

ابقوا من اسم الله حرف الهاء ... فألحدوا في أعظم الأسماء

لقد أتوا والله شيئاً إداً ... تخرُّ منه الشامخات هدا

وقد نصَّ الفقهاء على أن لفظ (الله) إذا قصر لا يكون ذكراً ولا يميناً، وتفسد به الصلاة في التحريمة كما ذكره الفخر الرازي وأبو السعود في تفسيرهما.

وعندئذ لا يكون هذا اللفظ من الأسماء الحسنى التي أمرنا الله بدعائه بها بعد تحريفه وتزييفه.

ولا عبرة بمن يقول في هذا: (إن الأعمال بالنيات) فإنها لا تكون كذلك إلا إذا وافقت الأعمال ما جاء به الشرع الذي هو الحجة التي لا حجة بعدها، أو أن يكون الذاكر مذهولاً عن نفسه فيكون عذره معه، إذ قد رفع عنه القلم.

ومن الإلحاد: تحريف اسمه تعالى (حي) فيقولون فيه (حاي وحي وحوى) وكلها حرام.

وكذلك يحرم المد أو القصر في (لا إله إلا الله) فمحل المد (لا) و(الله)، ومحل القصر ما بقي منها. وغير ذلك ممنوع خصوصاً الطرائق التي تخرج بها عن معناها بالتمطيط الشنيع، والقصر المشين (خصوصاً في التغني والإنشاد)

ومن الإلحاد: تغليظ الصوت بالذكر فيما يسمونه (الدوكة)، وهو يتنافى مع جلال الله، وقد سمع النبي ﷺ قوماً يرفعون أصواتهم إلى حد الإجهاد، فقال لهم: «**أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم**».

وغض الصوت عند الرسول ﷺ من التقوى فأولى أن يكون مع الله.

وقد حدد القرآن أدب الذكر اللساني فقال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي ما بين الصراخ والهمس، أي التوسط والاعتدال الصوتي في الذكر.

أحكام النذور:

٨ ـ في النذور على المذاهب الأربعة مقال طويل، نلخصه فيما يأتي:

فإنك إما أن تكون قد نذرت بالفعل، أو أنت راغب في أن تنذر.

فإن كنت تريد النذر، فقد اختلفوا في الإقدام عليه، قال بعضهم: هو مكروه مطلقاً في الطاعة والمعصية[1]، وقال بعضهم: إن كان نذر طاعة جاز، أو نذر معصية منع.

وإن كنت نذرت بالفعل، فإن كان نذر معصية كشرب الخمر والزنا، والأذى، أو صوم أول أيام العيد مثلاً، أو نحو ذلك من المعاصي على مراتبها، فلا ينعقد به النذر ويحرم الوفاء به، لقوله ﷺ: «**لانذر في معصية**».

---

(١) لقوله ﷺ: «**لاتنذروا فإن النذر لا يرد قضاء**» رواه مسلم، ولكن لهذا الحديث ونحوه تأويلاً آخر، وقد قال علماؤنا: إنه كان ذلك في بداية الإسلام، ثم نسخ بآيات النذر في القرآن، وهذا هو الصحيح المقبول، والمعمول به.

وإن كان نذر طاعة، كصلاة وصدقة وصوم ونحو ذلك من العمل الصالح، وجب الوفاء به، لقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ولقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» رواه مسلم.

وقد مدح الله قوماً، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ووعد تعالى بالأجر عن النذر فقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

فإذا لم توف بنذرك في الطاعة، لأنك عجزت لسبب من الأسباب الشرعية، أو لم توف لأنه نذر معصية[1] فقد وجب عليك أن تكفر عنه، وكفارة النذر هي كفارة اليمين، أي طعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام متتابعات (وهذا ما كان عليه السلف).

وشرط النذر أن يكون من المكلف المختار، وأن ينطق به مع النية، إلا أن يكون أخرس، فتكفي إشارته (ويرى بعضهم الاكتفاء بالنية من غير نطق).

ويحرم النذر (لشخص) الأولياء مطلقاً في المذاهب الأربعة، (إلا إذا كان على معنى حذف المضاف) فيكون معنى: نذرت للسيد، أي لربِّ السيد، أو للحسين أي لربِّ الحسين، أو للسيدة، أي لرب السيدة، والثواب في كل ذلك للسيد أو للحسين أو السيدة أو غيرهم ممن ذكرهم، فإنه على هذا المعنى الملحوظ في نفس الناذر جائز ولا شيء فيه (لأن النذر راجع إلى الله لا إلى الشخص).

وأشدها حرمة نذر الذبائح لغير الله، ففي صحيح مسلم عنه ﷺ: **«ملعون من ذبح لغير الله»** **«ومن ذبح لغير الله فقد أشرك»**، و **«لعن الله من ذبح لغير الله»** ا.هـ، إلا إذا كان على الوجه الذي سلفناه، وهو ما فعله سيدنا سعد بن أبي وقاص عندما حفر البئر صدقة على أمه، وقال: (هذه لأم سعد) ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

---

(١) يكفِّر في نذر المعصية جزاء له على اختيارها والرغبة في فعلها.

أما كيفية النذر الشرعي، فأن يقول مثلاً: (لله عليَّ نذر أن أذبح كذا أو أن أتصدق بكذا أو أصنع كذا، وأنفقه، أو أوزعه على الفقراء، أو يقول: لله عليَّ نذر أن أذبح أو أتصدق أو أعمل كذا وثوابه لسيدي فلان، أو الولي الفلان. . . أو لله علي نذر أن أصنع كذا، وأطعمه أو أفرقه على الفقراء والمساكين) وهكذا.

وهكذا يجعل النذر قلَّ أو كثر لله تعالى، ويجعل ثوابه لمن شاء من الأولياء، أو غيرهم، وله أن يحدِّد مكان توزيع النذر، وعلى من يوزع، وبذلك يكون نذره شرعياً، ويتعين الوفاء به (وهنا يعذر الجاهل بجهله ويكفينا حسن نيته). ويجب علينا أن نعلمه، وأن نبين للناس هذا الحكم فإنه هام وخطير.

أحكام الرقى والتمائم:

٩ ـ قال القاضي عياض: أجمعوا على جواز الرقى بكتاب الله، وعلى منعها بالأسماء الأعجمية. وذلك خشية أن تكون كفراً أو سحراً أو نحوه.

ونقل الشنقيطي في «فتح المنعم» اتفاق المذاهب الأربعة على جواز الرقى بكتاب الله وأسمائه وصفاته، وما لا يجهل معناه، بشرط أن تكون باللغة العربية، وغير مترجمة لتحتفظ بالسر الخفي في حروفها وتراكيبها، وبشرط أن يعتقد المرء أن الرقية إنما تفيد بتقدير الله ومشيئته لا بنفسها (فإنما هي تسبب والله الفعال).

واتفقوا على منع الرقية بالحديد والخيط والخرزات ونحو ذلك، أو تعليقه على المريض طفلاً كان أو رجلاً لأنه من أعمال الجاهلية الأولى وفيها قال ﷺ: «**من علق تميمة فلا تمم الله له**» رواه أحمد والحاكم.

وقال ﷺ: «**من علق تميمة فقد أشرك**».

ويلحق بهذا ما يلغط المعزمون به ومستحضرو الشياطين من الكلمات

الغريبة، والألفاظ المصطنعة، والعزائم الموهمة، والبخورات المنفرة، والعبودية للجن الفاسد، فكل أعمالهم محرمة قال الأبى: (وأما ما يفعله المعزمون فذلك تمويه، وتطرق لأكل المال بالباطل) ا.هـ.

ولا يجوز أن يتخذ ذلك حرفة للتعيش فقد اشتغل بها الجهلة والهمج، ومزجوا السحر بالشبهة والكفر بالكذب، والشعوذة بالخزعبلات وبالتضليل، وقل أن يموت واحد منهم إلا بعد الفقر والفضيحة والمرض وسوء الحال، نسأل الله السلامة والعفو.

ولا فرق عند بعض الأئمة في جواز الرقية الشرعية، بين أن تكون قراءة أو حملاً أو شرباً أو دهناً أو غير ذلك من أنواع التطبيب، فقد ثبت أن ابن عمر كان يعلق على بعض أطفاله آيات وأدعية، حتى إذا كبروا أمرهم بحفظها، وشرط حمل الرقية أن تغلف بما يمنع عنها القاذورات والنجس احتراماً لما فيها من كلام الله أو أسمائه أو أدعيته.

ويجب إخفاء الرقية أو الحرز المحمول عن الأعين، ويستوي في حمل الرقية المريض الذي يرجو البرء، أو الصحيح الذي يخشى المرض، كما نقله الشنقيطي في (فتح المنعم) عن الجمهور.

غير أن العلماء (سداً للذرائع) أغلقوا هذا الباب عن العامة، لما يقع منهم من الخلط وعدم التفرقة بين أهل الصلاح والبركة، ممن يرجى أن يصلح عملهم، وبين الدجاجلة بالنصب، ولا بين الحق والباطل، من الجائز وغير الجائز (فإذا كان الدواء يشفي الجسم، فالدعاء بالرقية يشفي الروح).

ونؤكد هنا ضرورة اجتناب الرقى بالأسماء الأعجمية مهما قيل إنها أسماء الله أو ملائكته، فكثير منها كذب واختراع لا أصل له، وربما أفضى إلى الجنون والكفر أو الشرك والعياذ بالله.

التقديس لله وحده:

١٠ ـ مما قدمنا من أنواع النصب الصوفي، والاحتيال الدقيق، استطاع كثير من الناس السيطرة على عقول كثير من العامة وأشباههم، فأباحوا لهم تقديسهم، والسجود أمامهم، والتذلل إليهم، ودعاءهم في النائبات، لاعتقادهم أن أمر الكون بأيدي هؤلاء الشيوخ وإن قضاء الله معلق على مشيئتهم وحدهم.

حقاً إن للشيوخ الصالحين السائرين على نهج المصطفى ﷺ كرامة، ولكنها لا تغيِّر القدر، ولا يستطيع الشيخ نفسه أن يدفع عن نفسه أمر الله. قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وكيف يملك هؤلاء زمام العباد، وفي البخاري وغيره: أن النبي ﷺ قال لابنته، وآل بيته وصحابته: **«اشتروا أنفسكم من الله، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً»** وقد قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾. فإذا كان هذا مقام الرسول أعظم الخلق وأكرمهم على الله، فما بالك بهؤلاء الذين لا يساوون فيه قلامة ظفر؟.

وعلى ذلك ضاعت قيمة الهدى، وأصبح المريد يدخل طريق الرجل الذي يقال إن له كرامات، وله خوارق وعادات، وكذا وكذا لأجل أن يحصل المريد على مآربه باتصاله بالشيخ، وباتباع الشيخ من ذوي النفوذ والإدارة في البلاد.

وصدق الله ورسوله ﷺ: «ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين».

وإذا كان المصطفى ﷺ يقول: **«إنما أنا بشر مثلكم»** فقد علم أن التقديس لله وحده، أما عبادة الشيوخ، وذكرهم ونسيان الله، والسجود لهم، ودعاؤهم كآلهة فضلال وجهل، وحماقة، وفسوق مبين.

نعم للشيخ المستقيم السائر على نهج الكتاب والسنة حق كل الإعظام والإكبار والإجلال، وغاية الاحترام، ومنتهى الأدب، وحسن الظن، والامتثال، في الحدود الشرعية لا أقل ولا أكثر[1]، أما أن يكون إلٰها أو نصف إلٰه مع الله؟ فهذا ضلال مبين.

● ● ●

(١) من مبالغات بعض المريدين أن يعتقدوا أن حركة الكون مرتبطة بحركة شيخهم، ولا تدري أي شيخ هو بعد أن تعددت هذه الدعاوى من هؤلاء الأشياخ ومريديهم، ونحن نرجو من هؤلاء المفوضين من الله للتصرف في ملكه، بدل أن يفعلوا أفاعيلهم بالمريدين، أن يوجهوا همتهم إلى اليهود في فلسطين، فأصحاب الكشف يكشفوا لنا خططهم الحربية والسياسية، وأصحاب العطب والأذى يصبون على زعمائهم العطب والأذى فيكفونا شرورهم وشرور زعماء أمريكا وحلفائها، وهكذا تكون خدمة الدين والوطن، أما غير ذلك فشيء يجب أن يستحي من ذكره العقلاء. وكفى استخفافاً بعقول العوام وأشباههم.

المصادر والمراجع

١ ـ الأجوبة المصرية عن الأسئلة المكية، للعراقي.
٢ ـ إحياء علوم الدين ـ للغزالي.
٣ ـ الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
٤ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية.
٥ ـ إلى التصوف يا عباد الله، لأبي بكر الجزائري.
٦ ـ ترتيب المدارك، للقاضي عياض.
٧ ـ التصوف بين الحق والخلق، لمحمد بشير شقفة.
٨ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي، تقديم: عبدالحليم محمود.
٩ ـ تلبيس إبليس، لابن الجوزي.
١٠ ـ تيسير فقه السلوك إلى الله، للقرضاوي.
١١ ـ الثقافة الإسلامية، لمحمد راغب الطباخ.
١٢ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.
١٣ ـ خلاصة التحقيق في بيان الدخيل والمدسوس على أهل الطرق، للسيد إبراهيم الشاذلي.
١٤ ـ ربانية لا رهبانية، لأبي الحسن الندوي.
١٥ ـ روح المعاني، للآلوسي.
١٦ ـ رسائل الإصلاح، لمحمد الخضر حسين.
١٧ ـ الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري.
١٨ ـ رسالة المسترشدين، للحارث المحاسبي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، تقديم: حسنين محمد مخلوف.

١٩ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم.
٢٠ ـ الزهد، للإمام أحمد.
٢١ ـ السلفية مرحلة تاريخية لا مذهب إسلامي، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
٢٢ ـ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي.
٢٣ ـ شرح حديث العلم، لابن رجب.
٢٤ ـ عبدالقادر الجيلاني، للدكتور عبدالرزاق الكيلاني، تقديم: محمد بشير شقفة.
٢٥ ـ الاعتصام، للشاطبي.
٢٦ ـ الغنية، لعبدالقادر الجيلاني.
٢٧ ـ فتاوى معاصرة، ليوسف القرضاوي.
٢٨ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر.
٢٩ ـ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية.
٣٠ ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي.
٣١ ـ كشف الغمة، للشعراني.
٣٢ ـ اللمع، للطوسي.
٣٣ ـ مجلة الأزهر.
٣٤ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٣٥ ـ محمد الحامد، العلامة المجاهد، للشيخ عبد الحميد طهماز.
٣٦ ـ مدارج السالكين، لابن القيم.
٣٧ ـ المرجع في علم التصوف، لإبراهيم الخليل الشاذلي.
٣٨ ـ معالم المشروع والممنوع من ممارسات التصوف المعاصر، لمحمد زكي إبراهيم.
٣٩ ـ المنقذ من الضلال، للغزالي، تحقيق عبدالحليم محمود.
٤٠ ـ الموافقات، للشاطبي.
٤١ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف، للقرضاوي.
٤٢ ـ نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي، لأبي اليزيد العجمي الدمنهوري.
٤٣ ـ نظرية الاتصال عند الصوفية، لسارة بنت عبدالمحسن آل جلوي.
٤٤ ـ هذا والدي، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٤٥ ـ الوابل الصّيِّب، لابن القيم.
٤٦ ـ السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية.
٤٧ ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، للغزالي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التصوف بين الإفراط والتفريط	٩
تمهيد:	٩
الفصل الأول: الإنصاف ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾	١١
أمثلة على الإنصاف وعدم الإجحاف:	١١
التوبة تتجزأ والمعصية تتجزأ:	١٢
خطأ التعميم:	١٣
الطوائف المدسوسة في التصوف:	١٤
تجريد الحق عن قائله:	١٥
عدم الاعتراف بالحق من أوصاف أهل الكتاب:	١٦
مقام الإحسان:	١٧
طريق الوصول الى حقيقة الإحسان:	١٧
علم الأخلاق وتزكية النفوس:	١٧
التفريق بين المتدين وأخلاقه:	١٧
علم الإخلاص:	١٨
علم الخشوع:	١٨
الإكثار من ذكر الله عز وجل:	١٨
الصوفية والسلفية	٢٠
الكتاب والسنة أولاً وقبل كل شيء:	٢١

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: التصوف بين مادحيه وقادحيه ٢٣
التصوف بين المادحين والقادحين: ٢٣
التصوف بين مادحيه وقادحيه ٢٧
تعقيب على الاتجاه الصوفي: ٢٨
ومن مظاهر الانحراف عند الصوفية هذه الأفكار: ٢٩
موقفي النظري من التصوف: ٣١
فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية: ٣٢
تقويم ابن القيم للصوفية: ٣٢
الفصل الثالث: حاجتنا إلى التصوف النقي ٣٤
التصوُّف النقي سلّم الوصول إلى ثمرات الإيمان: ٣٥
التربية الوجدانية: ٣٦
أهمية التزكية: ٣٩
موقف الناس من التصوف والصوفية: ٤٣
الميزان الذي نتحاكم إليه: ٤٣
من أسباب الاختلاف: ٤٤
شروط قبول العمل: ٤٤
تعريف التصوف ٤٦
بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي: ٥٠
١- التصوف النقي: ٥١
٢- التصوف المنتحل المبتدع: ٥٣
٣- التصوف المنحرف المزوَّر: ٥٣
الفصل الرابع: علم التصوف وأشهر أئمته ٥٥
عهد الصحابة: ٥٥
عهد التابعين: ٥٦
الحسن البصري: ٥٦
التصوف في القرن الثالث: ٥٨
التصوف في القرن الرابع: ٦٠

الموضوع	الصفحة

أشهر أعلام التصوف: ٦٠
أويس القرني: ٦٢
أبو مسلم الخراساني: ٦٢
الحسن البصري: ٦٣
مالك بن دينار: ٦٣
رابعة العدوية: ٦٣
إبراهيم بن أدهم: ٦٣
داود الطائي: ٦٣
الفضيل بن عياض: ٦٤
معروف الكرخي: ٦٤
أبو سليمان الداراني: ٦٤
بشر الحافي: ٦٤
المحاسبي: ٦٥
ذو النون المصري: ٦٥
أبو تراب النخشبي: ٦٥
سري السقطي: ٦٥
يحيى بن معاذ: ٦٦
أبو يزيد البسطامي: ٦٦
سهل التستري: ٦٦
أبو سعيد الخراز: ٦٦
حمدون القصار: ٦٦
أبو القاسم الجنيد: ٦٧
الدقاق: ٦٨
أبو طالب المكي: ٦٨
أبو القاسم القشيري: ٦٨
ابن الفارض: ٦٨
عبدالقادر الجيلاني: ٦٨

الموضوع	الصفحة

محيي الدين بن عربي: ٦٩
أبو الحسن الشاذلي: ٧٠
أحمد زروق: ٧٠
الفصل الخامس: أركان التصوف ٧١
أولا ـ الذكر ٧١
فوائد الذكر: ٧١
قوة الذكر وبركته عند الإمام ابن تيمية ٧٢
شمول ذكر الله تعالى لأنواع كثيرة: ٧٣
أنواع الذكر عند رسول الله ﷺ: ٧٣
مجالس الذكر هي مجالس العلم والفقه: ٧٤
الذكر وسيلة لا غاية: ٧٥
شروط ذكر اللسان: ٧٥
الذكر المشروع والذكر الممنوع: ٧٦
الحافظ ابن حجر ينكر الذكر الممنوع: ٧٧
إنكار المفسر القرطبي الذكر الممنوع: ٧٨
بيان الإمام الشاطبي لمنكرات الذكر الممنوع: ٧٩
تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى: ٨٠
الأحوال ٨٣
التمكن في الحال يوصل إلى المقام ٨٣
الأحوال عند الصحابة. ٨٤
صاحب الحال لا يقلد أثناء غلبة الحال عليه. ٨٥
القبض على ناصية الحال: ٨٥
الأحوال والأعمال: ٨٦
الشطح والتحذير منه. ٨٦
شطحات الصوفية: ٨٧
ثانياً ـ الشيخ المرشد ٨٩
ضرورة صحبة المرشد. ٨٩

الموضوع	الصفحة

تعريف المرشد الكامل: ٩٠
شروط المرشد: ٩٠
قلة المرشدين: ٩٢
المرشد الكامل نادر في هذا الزمن: ٩٣
الصلاة على النبي تقوم مقام المرشد عند فقده: ٩٤
تزكية النفس لا يتوقف على شيخ وبيعة: ٩٤
الفصل السادس: الكرامة والولاية ٩٨
الأولياء والشريعة: ١٠١
الشعوذة والتدجيل: ١٠٢
موقف ابن تيمية من الولاية والأولياء: ١٠٤
رأي ابن تيمية في الولاية والأولياء: ١٠٤
من هو الولي؟: ١٠٥
ختم الأولياء: ١٠٨
الفصل السابع: الإلهام والكشف بين الإفراط والتفريط ١١١
الإلهام هل هو حُجَّة في الأحكام الشرعية؟ ١١١
مواقف العلماء من الإلهام: ١١٢
موقف النفاة المنكرين للإلهام: ١١٢
المغالون في إثبات الإلهام وحجيته واعتباره: ١١٣
الإلهام ليس بحُجَّة شرعية: ١١٣
موقف الربانيين المعتدلين من علماء السنة: ١١٤
تحرير موضع النزاع: ١١٥
أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام: ١١٥
ابن تيمية لا ينكر الإلهام الناشئ عن الإيمان والتقوى: ١١٦
شرط الاعتبار بالكشف والإلهام والرؤيا: ١١٩
في هذه الأُمور يتحدد النزاع: ١٢١
١ - ادعاء العصمة لما جاء عن طريق الكشف والإلهام ١٢٣
لا عصمة لغير الكتاب والسُّنَّة: ١٢٤

الموضوع	الصفحة

٢ - ضلالة ازدراء العلم الشرعي ١٢٥
الصوفية الأوَّلون ملتزمون باتباع الشريعة: ١٢٦
العلم اللدُنِّي: ١٢٨
٣ - التفرقة بين الشريعة والحقيقة: ١٣٠
قصة موسى والخضر: ١٣١
من كلمات مجدد الألف الثاني: ١٣٣
ففي المكتوب الثالث والأربعين من المجلد الأول: ١٣٣
٤ و ٥ - اعتبار الصوفية الكشف هو غاية الغايات واتخاذهم إليه طريقاً
غير شرعية ١٣٥
الفصل الثامن: نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي ١٤٠
الحقيقة الأولى: الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان ١٤١
نشأة التصوف الإسلامي: ١٤٣
الحقيقة الثانية: تصور الصوفية للشخصية المسلمة ١٤٧
الحقيقة الثالثة: الدور التاريخي للتصوف الإسلامي ١٥١
أ ـ مجال العلم والتعليم: ١٥٢
ب ـ مجال إصلاح الحياة: ١٥٣
ج ـ مجال نشر الإسلام: ١٥٤
الحقيقة الرابعة: أثر التصوف في العلماء والمصلحين ١٥٥
انتشار التصوف في الحنابلة: ١٥٦
أثر التصوف في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: ١٥٧
أثر التصوف في الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا: ١٥٧
كراماته: ١٥٨
رأيه في التصوف: ١٦٠
خلاصة رأيه في التصوف: ١٦٢
تصوفـه: ١٦٥
محمد إقبال ١٧١
ضوابط منهجية لقراءة التصوف الإسلامي ١٧٤

الموضوع	الصفحة

أولاً: ضرورة تجاوز نقاط الخلاف الشكلية والدخول إلى المضمون: ... ١٧٤
ثانياً: ضرورة القراءة في تجرد واستقلال فكري ١٧٧
معاصرون متعصبون: ١٧٨
ثالثاً: التفرقة بين أقوال الصوفية وروايات المؤرخين عنهم ١٨١
رابعاً: ضرورة تحديد المصطلحات المتصلة بالتصوف الإسلامي ١٨٢
خامساً: مراعاة طبيعة التصوف كتجربة ذوقية ١٨٩
سادساً: الحكم على الصوفية في ضوء أحوالهم ١٩٠
حالات الصحو واليقظة: ١٩٢
سابعاً: الفكر الصوفي والتنبيه إلى غلطات بعض الصوفية ١٩٤
التصوف باعتباره تراثاً تربوياً: ١٩٦
حاجة الناس إلى الحياة الربانية والتربية الإيمانية: ١٩٦
موقف بعض السلفَيين من التصوف: ١٩٩
ابن تيمية وابن القيم رجلان ربانيان: ١٩٩
تصويف السلفية، وتسليف الصوفية: ٢٠٠
الفصل التاسع: تزكية النفس بين مشكلة الابتداع وفقدان الاتباع ٢٠١
وأهم الأسباب التي دعت إلى ذلك: ٢٠٤
الفصل العاشر: أمور اجتهادية بين الصوفية والسلفية ٢١٥
حلقات الذكر: ٢١٦
الذكر في المساجد: ٢١٧
ذكر الله تعالى بالاسم المفرد: ٢١٩
الأحزاب والأوراد: ٢٢٣
الرابطة وأصلها: ٢٢٤
الكشف: ٢٢٩
اصطلاحات علماء التصوف: ٢٣١
الحالات والمشاعر الوجدانية: ٢٣٣
وحدة الوجود ووحدة الشهود: ٢٣٦
الفناء والبقاء: ٢٤٢

الموضوع	الصفحة

الفصل الحادي عشر: أخطاء أساسية تخالف العقائد الإيمانية ٢٤٧
الأول: في الرد على من قال بنجاة إبليس يوم القيامة ٢٤٧
الثاني: في الرد على من يقول إن المطيع والعاصي سواء أمام الحق
عز وجل ٢٤٨
الثالث: في الرد على من يقول بأن أهل النار يتلذذون فيها ٢٤٩
الرد على من يقول بخروج الكافرين من النار. ٢٤٩
الرابع: في الرد على من يقول بنجاة فرعون ٢٤٩
الخامس: في الرد على من قال بوحدة الوجود. ٢٥١
السادس: التحذير من الشطح والطامات ٢٥٥
السابع: القول بسقوط التكليف ٢٥٧
الثامن: التفريق بين الحقيقة والشريعة ٢٦١
ذم بعض الصوفية العلم الظاهر قد يخرجهم عن الإسلام: ٢٦٢
تعارض الكشف والإلهام مع الكتاب والسنة: ٢٦٣
الفصل الثاني عشر: التحذير من أدعياء التصوف ٢٦٤
حب الظهور: ٢٦٤
مشكلة الموالد: ٢٦٦
الرقص في الذكر: ٢٦٧
الذكر الملحون والمختلف: ٢٦٧
أحكام النذور: ٢٦٩
أحكام الرقى والتمائم: ٢٧١
التقديس لله وحده: ٢٧٣
المصادر والمراجع ٢٧٥
فهرس الموضوعات ٢٧٩